منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

مصطفى بنسباع

السلطة بين التسنن و "التشيع" و التصوف

ما بين عصري المرابطين و الموحدين



كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة عبد المالك السعدي - تطوان

منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

مصطفى بنسباع

السلطة

بين التسنن و"التشيع" والتصوف

ما بين عصري المرابطين و الموحدين

تقديم الدكتور امحمد بنعبود

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السعدي بتطوان

الكتـــاب: السلطة بين التسنن و"التشيع" والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين
المؤلـــف: مصطـفى بنســباع
رقم الإيداع القانوني : 99 / 957
الطبــع: مطابع الشويخ - تطـوان
تصميم الغلاف: حسن الشاعر
الطبعة الأولى تطــوان 1999

تقديم

أريد أن أقدم صاحب الكتاب قبل تقديمي لكتابه . لقد عرفت الأستاذ مصطفى بنسباع . بشعبة التاريخ بكلية الآداب بتطوان . منذ عقد من الزمن . فشاهدت فيه الجدية في تعامله مع زملائه وطلابه وإخلاصه لمهنته واهتمامه بالبحث التاريخي رغم ظروف جامعية صعبة .

كما لمست فيه رغبة أكيدة في اكتشاف الحقائق التاريخية وخباياها . وامتناعه عن تكرار ما أتى به غيره . ومن ذلك اتخاذه مواقف نقدية مخالفة للتيار العام في بعض الحالات . ما أدى به أحيانا إلى المواجهة لإثبات مواقفه . وتسجل له هذه الخصال في محيط ثقافي جامعي تكاد تخلو منه مثل هذه الأوصاف .

أما الكتاب . فإنه يعكس جانب الباحث في شخصية مصطفى بنسباع . إنه ناتج عن مجهود كبير كان الغرض منه اكتشاف الجديد في مرحلة تاريخية انتقالية بين عصري المرابطين والموحدين.. فقد كان يبحث عن الحركية التاريخية عندما عالج موضوع الصراع من أجل السلطة بين المرابطين المالكيين والموحدين " المتشيعة " والمريدين المتصوفة ... مبرزا البعد العقائدي لهذه التحولات كتحول الحركة الصوفية من مواقف فردية منعزلة إلى قوة جماعية . ويظهر ذلك التحول السياسي في التقلب الجذري من دولة المرابطين التي ارتكزت على مفهوم إمارة المسلمين إلى دولة الموحدين التي اتخذت مفهوم الخلافة شعارا لسيادتها . واعتبر المؤلف هذه المفاهيم النظرية أدوات تحليلية لفهم تحول الواقع التاريخي المغربي والأندلسي بين عصري المرابطين والموحدين . بهدف تأويله تأويلا جديدا . فانطلق من مفاهيم الفكر السياسي الإسلامي التي كانت سائدة آنذاك باعتبارها تعكس الواقع الذي عبرت عنه أكثر من غيرها .

ولقد درس المؤلف موضوع التحول العقائدي والسياسي وانعكاساته الاجتماعية في إطاره الشمولي على المستوى الدولي نظرا لكون الدولة المرابطية أصبحت في إحدى مراحل تطورها تشمل مساحة شاسعة امتدت من الأندلس إلى صحراء المغرب و إلى الجزائر . وتناول المؤلف الضغوط الخارجية التي ساهمت هي الأخرى في تبلور الأوضاع الداخلية خلال المرحلة المدروسة كالعلاقات مع الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية والعلاقات مع الخلافة الفاطمية بإفريقية والعلاقات مع الخلافة العباسية في بغداد. ودرس المؤلف الحركات الانفصالية داخل الدولة المرابطية ثم الموحدية ومدى تأثيرها في تطورات المرحلة الانتقالية المذكورة .

كل هذه العوامل اجتمعت لتأثر في التوازن السياسي من جهة وكذا الحركة الصوفية بصفتها ظاهرة اجتماعية ذات انعكاسات سياسية عميقة .

لقد استطاع المؤلف أن يتناول موضوع التحول بأبعاده السياسية والدينية والاجتماعية باعتبارها أبعادا متنوعة لنفس الواقع .

إن المنهج المتعدد الأبعاد الذي وقع اختيار المؤلف عليه يعبر عن الالتحام والتمازج الذي كان يطبع الواقع التاريخي .

سوف يرحب الجمهور بهذا الكتاب الذي ركز على جوانب دقيقة من التاريخ المغربي الأندلسي مساهما بذلك في إغناء تصورنا الشمولي لهذا التاريخ .

الدكتور امحمد بنعبود

الحمد لله وحده

مقدمة

أثار انتباهنا موضوعان اثنان يشكلان مظهران من مظاهر الانتقال . من العصر المرابطي إلى العصر الموحدي . خلال المدة التي اصطلحنا على تسميتها في التمهيد بفترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين . وهما :

أولا : التغيير الذي طرأ على شكل السلطة السياسية العليا في المغرب والأندلس . ولو نظريا. خلال فترة الانتقال هذه. فقد كان المرابطون أهل سنة. يستوحون نظرية السلطة السنية كما صاغها الفقهاء الأشاعرة . بينما اقتبس ابن تومرت عناصر من نظرية السلطة السياسية الشيعية . خاصة منصب الإمام . ما يدل على أن تغييرا قد حدث ولو على المستوى النظري .

ثانيا: ظاهرة تحول التصوف في المغرب والأندلس . قبل فترة الانتقال. من ممارسة دينية روحية تكاد تكون فردية. إلى تنظيم سياسي جماعي . خلال فترة الإنتقال . له برنامجه. ويسعى للوصول إلى السلطة . حتى ولو باستعمال السيف . وقد تمثل هذا في ثورة " المريدين " في الأندلس ضد المرابطين والموحدين . وثورة ابن هود الماسي في المغرب ضد الموحدين .

وهكذا قسمنا هذا العمل إلى تمهيد وبابين اثنين . قد يبدو أنهما بحثان منفصلان . لكن الذي يجمعهما . هو أنهما يرصدان ظاهرتان انتقاليتان . عرفهما المغرب والأندلس . بحيث يعالجان إشكالية السلطة . ويتناولان صراع أقطاب ثلاثة حولها . هذه الأقطاب هي المذهب المالكي والموحدي والتصوف . كما أنهما يتأطران زمنيا داخل ما اصطلح هذا البحث على تسميته بفترة الانتقال . وقسمنا كلا من البابين إلى ثلاثة فصول . فجاء هذا العمل متضمنا لستة فصول .

تناولنا في التمهيد تحديد فترة الانتقال . وعللنا الأسباب التي جعلتنا نختار نقطا بعينها كبداية ونهاية لها . وقدمنا فيه فكرة عن أحداث فترة الإنتقال العسكرية والسياسية . حين لخصنا بتركيز شديد ومقتضب أهم الأحداث العسكرية السياسية التي عرفتها فترة الانتقال . منذ سقوط سرقسطة 512 هـ / 1118م في أيدي المسيحيين . إلى تسليم المرابطين مدينة غرناطة للموحدين سنة 551 هـ / 1156م .

ينقسم الباب الأول بعنوان " من أميرية للمسلمين إلى خلافة للمؤمنين " إلى ثلاثة فصول. عرفنا في الأول بعلاقة المذهب المالكي بقيام أميرية المرابطين . وأن هذا كان في إطار رد الفعل ضد المذهب الشيعي . وذلك ما يفسر تحالف المرابطين مع العباسيين . وعرجنا على مظاهر العلاقات العباسية المرابطية . التي تبين تحرك المرابطين في إطار نظرية السلطة السياسية السنية . وكيف أن الفقيه المالكي تولى منصب " منظر " أو " مرشد " الحركة المرابطية . إلى جانب الأمير المرابطي الذي قاد الجناح العسكري للحركة . واختفاء هذا الدور بعد تحول الحركة إلى دولة مع يوسف بن تاشفين . واتساع مجال تداول السلطة. خلال الطور الأول من عمر الحركة . بحيث كانت تنتقل بين قبائل الحركة . لتصبح منحصرة في قبيلة لمتونة . ثم تتركز في أسرة واحدة في طور الدولة من خلال البيعة . وفي الأخير أشرنا إلى صراع الأمراء المرابطين حول السلطة خلال الطورين . وقد توخينا التركيز . لأن هذه القضايا لم تكن من مستجدات فترة الانتقال . بل كانت قد تبلورت قبل ذلك بوقت طويل .

وعمدنا في الفصل الثاني . الذي عنوناه بالدعوة الموحدية والسلطة السياسية العليا . إلى تتبع سلوك ابن تومرت . خلال رحلة عودته من المشرق إلى المغرب . منذ ما قبل دخوله إلى الأراضي التي كانت تمتد عليها سيادة المرابطين . لنناقش الفكرة التي ترسخت سواء في كتابات القدامى أو دراسات المحدثين . حول تبلور فكرة الإطاحة بالمرابطين لدى ابن تومرت حين كان في المشرق . لنرصد زمن وظروف التحول في موقفه من سلطة المرابطين . وميزنا بين فترتين غامضتين من خروج ابن تومرت على سلطة المرابطين . حيث كان في الأولى فقيها ثائرا من داخل نظرية السلطة السنية . ثم في الثانية إماما مهديا . وبينا أسباب وزمن ومكان هذا التحول . كما ألقينا الضوء على طبيعة إمامة ابن تومرت المهدية .

وفي الفصل الثالث . بينا أن عبد المومن بن علي لم يكن المرشح الأول لخلافة ابن تومرت. وفندنا ادعاءات المصادر الموحدية حول وصية ابن تومرت لعبد المومن . فخلصنا إلى أنه وصل إلى السلطة. ليس لمؤهلاته العسكرية . ولكن نظرا لكونه لم يكن ينتمي إلى أي من القبائل المصمودية التي تبنت الدعوة الموحدية مبكرا . وكذلك نظرا " لعلمه " . ذلك أن الحركة الموحدية في أساسها ثورة ايديولوجية. . ورغم هذا الحل الذي نهجته قيادة الحركة الموحدية . بعد وفاة ابن تومرت إلى أنه لم يمنع من انقسامها إلى أجنحة متصارعة حول السلطة والثروة . فعرجنا على الحديث عن صراع هذه الأجنحة ــ ربما لأول مرة ــ بمثل هذا الوضوح . إلى أن استطاع عبد المومن القضاء على تلك المعارضة و ربما تحييد أحد أجنحتها . وإحداث تدابير إدارية مكنته من الاحتفاظ بالسلطة لنفسه وتوريثها في أبنائه .

أما الباب الثاني بعنوان " من ولاية صوفية إلى إمامة سياسية " فقد قسمناه أيضا إلى ثلاثة فصول . تناولنا في الفصل الرابع قضية إحراق كتاب " إحياء علوم الدين " لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي . رغم أن هذه الحادثة تتحدد زمنيا خارج ما اصطلح هذا البحث على تسميته بفترة الانتقال . وهي قضية كتب حولها الكثير . فتتبعناها في المصادر والمراجع ومن خلال الإحياء نفسه لنجيب عن سؤال هو لماذا أحرق " الإحياء " في الأندلس والمغرب ؟ فنخلص إلى ارتباط هذه الحادثة بالصراع بين المرابطين والمتصوفة . و بتنامي تيار التصوف في الأندلس والمغرب . وأنها كانت تعبيرا عن مطاردة المرابطين للمتصوفة .

وفي الفصل الخامس. حاولنا أن نرصد دور العاملين الإجتماعي والايديولوجي . في اتجاه بعض الشرائح السكانية نحو تيار التصوف السياسي . وموقف فقهاء الدولة والمرابطين من هذا التيار. رابطين ذلك . من جهة . بأوضاع الأندلس خاصة . مبرزين كيف أصبح التصوف يعبر عن تذمر الفئات الاجتماعية الدنيا . وكشفنا من جهة أخرى عن استعارة تيار التصوف السياسي هذا بعض عناصر الفكر السياسي الشيعي . فرصدنا هذه العناصر الفكرية التي وظفها التصوف السياسي . في صراعه مع المرابطين . لبناء تصوره لشكل السلطة التي يريد إقامتها . خاصة ما تعلق منها بشخص إمام المريدين .بالأخص في الأندلس . ثم تناولنا موقف فقهاء المالكية والمرابطين في المغرب والأندلس من هذا التيار . وميزنا بين مواقفهم التي تراوحت بين نقد كرامات المتصوفة . ومحاباتهم في أحيان . ثم مطاردتهم في أحيان أخرى .

وفي الفصل السادس تناولنا ثورة الصوفية في المغرب والأندلس . خلال فترة الإنتقال. فتوقفنا عند رؤى المؤرخين وتعليلاتهم . لثورة الأندلسيين خاصة . مبرزين موقفنا منها . قبل أن ننتقل إلى الحديث عن ثورة " المريدين" في الأندلس التي دققنا في ظروف اندلاعها والمجال الجغرافي الذي امتدت عليه وأطوار صراعها مع المرابطين والموحدين . وميزنا بينها وبين ثورة الفقهاء القضاة من حيث اختلاف الأهداف والمنطلقات . ثم تناولنا ثورة ابن هود الماسي في الجنوب المغربي من خلال المصادر والمراجع . وقمنا بربط هذه الثورة بتيار التصوف. لأول مرة ــ حسب علمنا ــ مقدمين حججنا على ذلك . و أخيرا قمنا بتسجيل استنتاجات عامة في الخاتمة .

وقد تناولنا موضوع البحث . بمنهاج نقدي لا يغفل التوثيق والتحقيق . لذلك كثفنا من اقتطاف النصوص سواء في المتن أو الهوامش . وذلك من أجل تدعيم استنتاجاتنا . كثيرا ما كانت الهوامش تخدم المتن وتكمله . ولعل القارئ يلاحظ أننا نهجنا نهجا حجاجيا منذ البداية سواء مع المصادر أو المراجع . ولم نكتف بالوصف والتقرير . ثم إننا لم نغفل ربط الإقتصادي الإجتماعي بالسياسي . خلال دراسة الظاهرتين . متى أمكن ذلك دون تعسف أو لوي للنصوص . كما فعلنا

حين أشرنا إلى الجانب المادي في صراع عبد المومن مع المعارضة . وكذا حين ربطنا بين موقف الغزالي في كتاب الإحياء من الضرائب غير الشرعية على المسلمين . وبين واقع المغرب والأندلس في العصر المرابطي . معلاقة ذلك بإحراق الكتاب . والصراع المرابطي مع المتصوفة . وكذلك حين تحدثنا عن الجانب الاجتماعي في ثورة المتصوفة . ولسنا ندعي أن القول الفصل قد قيل بخصوص دراسة الموضوع .

وفي الختام . نذكر أن هذا العمل أنجز سنة 1987 أي منذ ما يقرب من اثني عشر سنة . ولم يكتب له أن ينشر إلا الآن . لذلك نغتنم هذه الفرصة لنقدم جزيل شكرنا وامتناننا لكل الذين مدوا لنا يد المساعدة من قريب أو بعيد . سواء خلال إنجاز هذا العمل أو عند نشره لعموم القراء . و الله نسأل التوفيق .

تطوان في 1999/6/6

تمهيد

لعل أول قضية تثار عند محاولة الشروع في إنجاز هذا البحث . هي قضية تحديد فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هذه . وما هي الأسس التي يمكن الارتكاز عليها في عملية التحديد تلك . هل هي نقط تحولات جذرية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع . عرفها المغرب والأندلس . خلال هذه الفترة من تاريخه ؟ أم هناك معايير أخرى ؟

إن أي نوع من هذا التحديد لا يدعيه هذا العمل . لأنه سابق لأوانه . بل ربما أن التاريخ الإسلامي ككل . لم يعتمد الباحثون . بعد . في تحقيبه وتحديد فتراته . على مثل هذه الأسس والمعايير إلى الآن . لذلك سنكتفي باختيار نقطتي البداية والنهاية . التي بدا لنا أنهما تحددان هذه المدة موضوع البحث .

وبما أننا نتحدث عن انتقال السيادة على المغرب والأندلس من المرابطين إلى الموحدين . فربما أول ما يتبادر إلى الذهن . أن بداية فترة الانتقال تبدأ مع ظهور الموحدين ودخولهم في صراع مع المرابطين . أي قد نختار تواريخ مثل 514 هـ/1120م . سنة بداية احتكاك ابن تومرت الفقيه مع المرابطين بمراكش . أو سنة 515 هـ / 1121م . تاريخ خروجه عليهم وخلع بيعتهم . أو سنة 518 هـ / 1124م . تاريخ إعلانه نفسه إماما مهديا . مما يعني قطع كل إمكانية للعودة إلى طاعتهم . كما يمكن أن نختار تاريخ541 هـ / 1146م . كنقطة لنهاية فترة الانتقال . باعتبارها السنة التي أسقط فيها الموحدون عاصمة المرابطين مراكش . وقتلوا آخر أمير من أمراء المسلمين المرابطين .

لكن يبدو لنا أنه يمكن تمديد هذه الفترة قليلا . سواء من حيث بدايتها أو نهايتها . ذلك أنه لا يمكن اعتبار ظهور ابن تومرت على مسرح الأحداث السياسية في المغرب. بداية لانهيار دولة المرابطين. بل يجب البحث عن بداية الانهيار في أماكن أخرى . وعلى جبهة كان المرابطون يعتبرونها أهم وأخطر من تمرد ابن تومرت . إنها الجبهة الخارجية ضد الممالك المسيحية في الأندلس .

لهذا يمكن اعتبار سقوط سرقسطة في يد الفونسو المحارب الأرجوني سنة 512 هـ / 1118م . بداية انهيار دولة المرابطين . حيث أنهم منذ ذلك التاريخ واجهوا متاعب وصعوبات عسكرية هامة في صد هجمات المسيحيين على الأندلس الإسلامية . وتوالت عليهم الهزائم مثل هزيمة كتندة التي يقول عنها ابن الأثير أنها كانت " هزيمة منكرة " .

وترتب على هذه الصعوبات العسكرية السياسية . مشاكل اجتماعية . انفجرت في شكل ثورات اجتماعية داخلية . ضد السلطة المرابطية في الأندلس . احتجاجا على كثرة " اللوازم " التي اضطر المرابطون إلى فرضها على السكان لتمويل تلك الحرب .

ولعل أبرز هذه الانتفاضات ثورة قرطبة سنة 515 هـ / 1121م . والتي كانت من الخطورة . لدرجة أن تسكينها . تطلب عبور أمير المسلمين علي بن يوسف بنفسه إلى العدوة الاندلسية . غير مكترث بخروج ابن تومرت على طاعته . هذا الخروج الذي تزامن مع تلك الثورة . ومكتفيا بإرسال كتيبة من فرسانه في طلبه .

ما يعني أن المرابطين لم يولوه أهمية في البداية . بل كان جل اهتمامهم متجه نحو مشاكل الأندلس . وحيث كان وقع الأحداث . في هذا الطور المبكر من فترة الانتقال . شديدا هناك أكثر منه في المغرب .

ولا أدل على ذلك من وقوع غزوة ألفونسو المحارب الأرجوني الكبرى للأندلس الإسلامية . والتي انطلق فيها من سرقسطة سنة 519 هـ / 1125م . واخترق فيها شرق الأندلس كله . بل واستطاع أن يصل بها إلى ظاهر غرناطة . في محاولة لحصارها . حتى أن الناس " صلوا صلاة الخوف" . ثم اخترق بعد ذلك جبال " سيرانيفادا " ووصل إلى أحواز مالقة على ساحل البحر المتوسط . لكنه لم يتمكن من احتلال مواقع جديدة داخل أراضي المرابطين .

وقد كانت هذه الغزوة عبارة عن حملة صليبية صغيرة . ذلك أنها ضمت العديد من رجال الدين المسيحيين . على رأسهم أسقف سرقسطة ووشقة . كما أنها اعتمدت على الدعم الذي قدمه " المعاهدة " نصارى الأندلس المرابطية . وهذا أيضا يكشف عن تذمر هذه الفئات من المجتمع الأندلسي تحت الحكم المرابطي .

وإن لم تحقق هذه الحملة مكاسب ترابية لألفونسو المحارب . إلا أنها كشفت عن مدى تدهور القدرة العسكرية المرابطية في الأندلس . مقارنة مع مثيلتها المسيحية . خلال هذا الطور الأول من فترة الانتقال ابتداء من سقوط سرقسطة . وتؤكد ذلك هزيمة معركة القليعة أو القلاعة قرب بلنسية سنة 523 هـ / 1128م . رغم أن المرابطين حققوا نصرا في معركة افراغة التي مات ألفونسو المحارب على إثرها .

والملاحظ أن التصعيد العسكري في الأندلس . قد تزامن مع مثيل له في المغرب . فغزوة الفونسو المحارب سنة 519 هـ / 1123م . تزامنت مع بداية أخذ ابن تومرت المبادرة العسكرية . بعد أن كان يكتفي بصد الحملات المرابطية على مناطق الجبال المحيطة بايجيليز هرغة . وذلك بعد سنة 518 هـ / 1124م التي أعلن فيها مهديته ـ كما سنثبت ذلك في الفصل الثاني من هذا

البحث ــ وبدأ ينقل عملياته العسكرية إلى السهول القريبة من سفوح الجبال المحيطة بتينمل مثل أغمات . إلى أن حاول حصار مراكش سنة 524 هـ / 1129م . ورغم أن ذلك الحصار قد فشل . نظرا لأن قوات ابن تومرت حتى ذلك الحين لم يكن ممكنا مقارنتها مع مثيلتها المرابطية . إلا أنه مع ازدياد المناوشات وتوزيع قوات المرابطين بين جبهتين مغربية وأندلسية . واطراد نمو القوة الموحدية . خاصة بعد وفاة ابن تومرت . انتقل ثقل الأحداث هذه المرة إلى المغرب . وبالأخص بعد أن تسلم عبد المومن بن علي زعامة الحركة الموحدية .

وهكذا ففي المدة التي كان عبد المومن يقود فيها قوات الموحدين . نائبا عن الإمام المهدي بن تومرت . ظاهريا أمام عامة الموحدين . الذين أخفي عنهم موت إمامهم . بين سنتي 524 هـ / 1129م و 527 هـ/ 1132م نجده قد حقق انتصارات على المرابطين . فأخذ منهم بعض المواقع كحصن تازاكورت وقصبة تادلة ودرعة وحصن تاسغيموت . وعندما أعلن بيعته الرسمية سنة 528 هـ / 1133م واتخذ لقب أمير المؤمنين . وجدناه يحرز انتصارات على كل من الأمير تاشفين بن علي وقائد علي بن يوسف الربرتير (Reverter) . لكن المعارك كانت مركزة في جبال الأطلس الكبير انطلاقا من تينمل قاعدة العمليات الموحدية .

منذ سنة 535 هـ / 1140م بدأت حملة عبد المومن الطويلة . والتي اتجهت شمالا بشرق . وخلال هذه الحملة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف . وخلفه ابنه تاشفين بن علي سنة 537 هـ/ 1142م . وقتل الربرتير عام 539 هـ / 1144م . واستمرت المعارك بين القوتين . إلى أن كانت هزيمة الصخرتين على المرابطين قرب تلمسان في نفس السنة . فهرب تاشفين إلى وهران وتم القضاء عليه قربها في نفس السنة أيضا .

وهنا مرة أخرى . انتقل ثقل الأحداث إلى العدوة الأندلسية . حيث قامت ثورة المريدين ضد المرابطين . انطلاقا من كورة الغرب سنة 539 هـ / 1144م . مستهدفة القضاء على ما تبقى من نفوذ المرابطين في الأندلس . فاستغل الفقهاء القضاة الفرصة . وحاولوا سحب البساط من تحت أقدام المريدين . تقربا من عامة السكان . الذين كانوا متذمرين من السلطة المرابطية .

أما في المغرب فقد استمر نفس الوقع على نفس الوثيرة . وذلك بإسقاط الموحدين للحواضر المغربية . وجدة. أجرسيف . فاس . مكناسة . سلا . ومراكش سنة 541 هـ / 1146م . والقضاء على آخر أمير مرابطي أبي اسحاق ابراهيم بن تاشفين . وسقوط تلمسان ثم عبور الموحدين إلي إشبيلية .

بعد ذلك اتجه اهتمام الموحدين إلى القضاء على الثوار المريدين في غرب الأندلس . بالتحالف معهم وإدخالهم في طاعتهم مرة . وبحربهم مرة أخرى . وكذلك إلى القضاء على المنتزين

بالأندلس . وفي حوالي سنة 546 هـ / 1151م كان القسم الغربي من الأندلس كله قد صار تابعا للموحدين . ثم تسلم الموحدون مدينة قرطبة نتيجة لمفاوضات مع حاكمها الأمير يحيى ابن غانية المرابطي . وبعد سبعة أعوام من صمود والي غرناطة ميمون بن بدر اللمتوني المرابطي . وبعد أن امتد نفوذ الموحدين إلى معظم قواعد الأندلس الغربية والوسطى أضطر إلى تسليم المدينة للموحدين . في شخص السيد أبي السعيد الموحدي والي سبتة والجزيرة الخضراء551 هـ/ 1156م.

وهكذا أسدل الستار على عصر المرابطين في المغرب وشبه جزيرة الأندلس . وإن استمر في الجزائر الشرقية (البليار) مع بني غانية . وبذلك انتهت فترة الانتقال . ليدخل المغرب مرحلة جديدة من تاريخه . أهم ما ميزها . من حيث مرجعية السيادة السياسية . هو تحرره من الخضوع الإسمي للدولة العباسية . وطموحه نحو توحيد الجناح الغربي من العالم الإسلامي .

عرف المغرب والأندلس خلال فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين تزامن ثلاثة أشكال للسلطة السياسية العليا في البلاد . وقد صارع كل شكل منها الآخرين . خلال هذه الفترة. وشكّل هذا الصراع مظهرا من مظاهر الانتقال التي عرفها المغرب والاندلس .

وقد مثل الشكل الأول المرابطون بنظريتهم السياسية السنية . فاعترفوا بخلافة بني العباس في المشرق . ومارسوا نظام البيعة واستشارة أهل العقد والحل . بينما مثل الموحدون الشكل الثاني . الذي اضطر إلى اقتباس بعض عناصر نظرية السلطة السياسية العليا الشيعية. خاصة القول بالإمامة والوصية . الذي ترتب عنه ضرورة رفض الموحدين – ولو نظريا – الخضوع لأية سلطة سياسية إسلامية أخرى . بل ورغبتهم – وذلك بعد فترة الإنتقال – في بسط سيادتهم على كل الغرب الإسلامي . أما الشكل الثالث فقد مثله المريدون . الذين تبنوا الولاية الصوفية كمرجعية للسلطة العليا باعتبارها وراثة زوجية للنبوة .

هذا من حيث المظهر العام للخلاف بين نظريات السلطة السياسية العليا عند كل من المرابطين والموحدين و المريدين . أما من حيث تفاصيل تطبيق جزئيات هاته النظريات . فنحن في حاجة إلى فحص ذلك من خلال نصوص المصادر الأصلية .

وقبل أن نستخلص استنتاجات بهذا الخصوص يحسن بنا أن نتعرف على شكل كل سلطة على حدة . مع التركيز على الشكل الثاني في الباب الأول و الشكل الثالث في الباب الثاني باعتبارهما من مستنجدات فترة الانتقال . ذلك أنهما صارعا الأول من أجل القضاء عليه . زاعمين إحلال نظام أفضل منه محله .

من أميرية للمسلمين إلى خلافة للمؤمنين

السلطة السياسية المرابطية

قيام أميرية[1] المسلمين المرابطية :

قامت دولة المرابطين على أساس دعوة دينية إصلاحية . اعتمدت على مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . موظفة المذهب المالكي . وعاملة على التمكين له في السودان والمغرب والأندلس. ضدا على بقايا العبادات الوثنية في السودان والمغرب . وبقايا النفوذ الخارجي البورغواطي . خاصة في المغرب الأقصى . وبقايا التأثير الشيعي هناك أيضا وفي كل الغرب الإسلامي[2] .

وقد شكل الصنهاجيون . عصب الدعوة والدولة المرابطية . خاصة منهم قبائل جدالة ولمتونة ومسوفة . التي كانت مضاربها تمتد على القسم الشمالي الغربي من الصحراء الكبرى . وقد استفادت هذه القبائل ماديا من سيطرتها على طرق القوافل التجارية . التي كانت تمر عبر أراضيها . بما استخلصته من رسوم على تجارة المرور . كما شاركت في التجارة بين شمال وجنوب الصحراء . حين سيطرت على مناجم الملح . وبادلته مع المغرب الأقصى شمال الصحراء بالمنتوجات الفلاحية . ومع السودان جنوبها بالتبر . وهكذا أصبحت هذه القبائل حلقة وصل تجارية بين السودان والمغرب[3] .

ويبدو أن طموح هذه القبائل إلى إقامة كيان سياسي خاص بها . قد تبلور حوالي العقد الثالث من القرن الخامس الهجري . ذلك أنها تبنت دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية . وبدأت

---

1 – فضلت استعمال لفظ " أميرية " بدل " إمارة " ذلك أن الأخير غالبا ما يحيل على كيان سياسي يمتد على مجال جغرافي ضيق نسبيا . في حين أن المجال الجغرافي الذي شمله نفوذ المرابطين كان شاسعا . كما سنرى . حيث شمل المغرب الأقصى بامتداده الصحراوي وغرب الجزائر والجزائر الشرقية (البليار) والأندلس إلى حدود الإمارات المسيحية . انظر تحديد المجال الجغرافي السياسي للدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين عند ابن أبي زرع. روض القرطاس . الرباط 1973. ص 136. ورسالة القاضي ابن العربي . عند عصمت دندش . في دراسة حول رسائل ابن العربي . مجلة المناهل عدد 9 . ص 162. وعن عهد علي بن يوسف . روض القرطاس . ص 157.

2 – عن الوثنية والتشيع في المغرب عند قيام المرابطين . انظر البكري . المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر دي سلان . الجزائر 1957. ص161. وعن صراع المرابطين مع البورغواطيين . ص 168.

3 – ابراهيم حركات . النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين . الدارالبيضاء . دون تاريخ . ص 42 .

توظف بعض عائداتها . من الرسوم على التجارة التي تمر عبر أراضيها . لتمويل حملات من أجل التوسع شمالا وجنوبا . كما استفادت أيضا من وفرة الرجال المحاربين بين صفوفها . مستثمرة مؤهلاتهم القتالية الجيدة [4] .

وقد تجلى هذا الطموح في التفاف هذه القبائل حول الداعية عبد الله بن ياسين . الذي كان قد بدأ في نشر دعوته بين قبيلة لمتونة . حوالي سنة 430 هـ / 1038م ثم تولى قيادة الجناح العسكري في الحركة المرابطية في عهده . كل من يحيى بن ابراهيم ويحيى بن عمر. ثم أبو بكر بن عمر الذي تابع مهمته بعد وفاة ابن ياسين .

وكان التوسع المسلح قد بدأ على الجبهة الجنوبية ضد مملكة غانة السودانية في محاولة للسيطرة على عاصمتها أوذغشت . ثم بعد ذلك تحول نشاط هذه القبائل الصنهاجية إلى القسم الشمالي من الصحراء. ومن ثم إلى المغرب [5] .

ولعل ظروف هذا الأخير. كانت مساعدة للمرابطين على التوسع فيه . ذلك أنه كان ممزقا إلى إمارات صغيرة . كما أنه عانى من الصراع الأموي الفاطمي على أراضيه . إضافة إلى ذلك . فإن الزناتيين والبورغواطيين لم يكونوا قادرين على توحيد البلاد وإقامة سلطة قوية فيها [6]. ثم إن الخلافة الأموية في الأندلس كانت قد سقطت . والفاطميون كانوا في طريقهم إلى الانهيار . بعد أن كانوا قد نقلوا مركز سلطتهم إلى مصر .

هكذا اندفع المرابطون بقيادة أبي بكر بن عمر . يساعده يوسف بن تاشفين . نحو جنوب المغرب . فسيطروا عليه ابتداء من سنة 448 هـ / 1056م . حين سقطت سجلماسة في أيديهم وقضوا على مغراوة الزناتيين . بعد ذلك هاجموا البورغواطيين في السهول الأطلسية . وخلال الصراع معهم . سقط داعية الحركة المرابطية عبد الله بن ياسين قتيلا . واستمر الصراع إلى أن تمكن المرابطون من إخضاع بورغواطة . ثم أسقطوا باقي الحواضر المغربية . بعد ذلك انتقلوا إلى المغرب الأوسط الذي سيطروا عليه . إلى حدود إمارة بني حماد أصحاب القلعة . وذلك سنة 473 هـ / 1080م . وفي الأخير انتقلوا إلى الأندلس . حيث أحرزوا هناك نصر الزلاقة الشهير عام 479 هـ /

---

4 - Abdelaziz . ELALAOUI , Le Maghreb et Le Commerce Transsaharien (milieux du 11 éme - milieux du 14 éme S) Thèse du doctorat de 3éme Cycle dactilographié Université de Bordeaux 3 , 1983 . p. 363
يعطي الأستاذ العلوي أهمية قصوى لدور التجارة عبر الصحراء في قيام الدولة المرابطية . يكاد يغفل معه الجانب الايديولوجي في قيامها . أي الدعوة الإصلاحية المالكية . بزعامة عبد الله بن ياسين . انظر ص 365، 366، 369، 370، 372 .

5 - ابراهيم حركات . المرجع السابق . ص 42، 47 .

6 - ابن أبي زرع . روض القرطاس . ص 127، 128، 130، 131، 132 .

1086م [7]. وعملوا بعد ذلك على إسقاط ملوك الطوائف وضم الأندلس .

وهكذا استطاع المرابطون أن يوحدوا . لأول مرة . المغرب الأقصى بامتداده الصحراوي والسنغال والنيجر وغرب المغرب الأوسط والأندلس إلى سرقسطة شمالا [8] .

2 ـ التحالف المرابطي العباسي ضد الفاطميين :

كان الشيعة الفواطم قد تمكنوا من إقامة خلافة لهم في إفريقية . منذ أواخر القرن الثالث الهجري . ثم انتقلت سلطتهم . فيما بعد . بجهازها الإداري إلى مصر . وبعد ذلك امتد نفوذهم السياسي إلى كل من الشام والحجاز واليمن .

وبذلك أصبح الفاطميون يشكلون خطرا على الخلافة العباسية السنية في بغداد بالمشرق . ولما أخضعوا المغرب لسلطتهم في أوائل القرن الرابع الهجري . أصبحوا يشكلون خطرا على الإمارة الأموية السنية أيضا في الأندلس . ما جعلها تتحول إلى خلافة سنية ثانية سنة 316 هـ . خلال عهد الناصر الأموي[9] .

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس . عرف القرن الخامس الهجري رد فعل قوي ضد المذهب الشيعي . سواء في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي أو في الجناح الغربي منه . ويرى الأستاذ عبد الله العروي . أن قيام الدولة المرابطية . كان في إطار رد الفعل هذا . ضد التشيع في الجناح الغربي من العالم الإسلامي . موظفة في ذلك المذهب المالكي[10] .

والملاحظ أن الخلافة الأموية في الأندلس . قبل قيام الدولة المرابطية . كانت توظف نفس المذهب في صراعها مع الفاطميين . لكن المرابطين . خاصة بعد إخضاعهم الأندلس . قد ورثوا من الخلافة الأموية مذهبها السني . إلا أنهم لم يعلنوا أنفسهم خلفاء كما فعل أمويو الأندلس . فكيف كانت طبيعة علاقتهم إذن بالخلافة العباسية السنية في المشرق ؟

سبق الحديث عن أن قيام الدولة المرابطية كان في إطار رد الفعل السني في العالم الإسلامي ضد التشيع . وبما أن الدولة المرابطية وظفت المذهب المالكي السني . وبما أن القوة

---

7 - A. LAROUI , L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse . MASPERO . Paris . 1976 . T.I . pp . 148 , 149 , 152 , 153 .

8 - أحمد حسن محمود . قيام دولة المرابطين . القاهرة 1957. ص 327، 328، 331 .

9 - انظر المنشور الذي أصدره الخليفة الناصر الأموي بهذه المناسبة . عند ابن عذاري . البيان المغرب . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان و ليفي بروفنصال . ط 2. بيروت . 1980. ج2 . ص 198، 199 .

10 - L' histoire du Maghreb ,T. 1 pp. 146 , 147.

الإسلامية السنية الرئيسية في العالم الإسلامي آنذاك كانت هي الخلافة العباسية . فقد كانت هناك علاقات ودية بين المرابطين والعباسيين استهدفت مواجهة الفاطميين الشيعة .

ولا أدل على انخراط المرابطين في الصراع الذي كانت تقوده الخلافة العباسية السنية ضد الخلافة الفاطمية الشيعية . ووقوفهم في صف العباسيين . من أن الفاطميين قد قتلوا رسول الأمير يوسف بن تاشفين إلى العباسيين القاضي عتيق بن عمران . وذلك سنة 484 هـ ./ 1091م بالإسكندرية . لأنهم وجدوا معه كتبا من الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي إلى يوسف بن تاشفين[11]. كما أن المرابطين كانوا إذا أرادوا الحج يتحاشون المرور بمصر .

ورغم أن الفاطميين قاموا ببعض المحاولات لتحسين علاقاتهم بالمرابطين . إلا أن هذه العلاقات ظلت عدائية في الغالب[12]. في مقابل علاقات مرابطية عباسية ودية . فما هي مظاهر هذه العلاقات الودية ؟

3ـ مظاهر العلاقات الودية المرابطية العباسية :

لعل أبرز هذه المظاهر هو التقليد الذي كان الخليفة العباسي يصدره من جانبه . معترفا فيه بولاية الأمير المرابطي على ما تحت سلطته . بالمقابل فإن الأمير المرابطي . من جانبه كان يلتزم بالدعاء للخليفة العباسي على المنابر . وينقش اسم الخليفة العباسي على أحد وجهي العملة المرابطية إلى جانب اسم الأمير المرابطي على الوجه الآخر . كما أن الأمراء المرابطين التزموا بعدم التطاول بتلقيب أنفسهم بألقاب الخلافة . ثم إن الخلافة العباسية لم تتدخل في تنظيم تداول السلطة . التي كانت في البداية عامة في قبائل صنهاجة الجنوب . ثم أصبحت وراثية ابتداء من الأمير يوسف بن تاشفين في أبنائه و أحفاده .

أ ـ التقليد الخليفي :

مع أنه لم تصلنا نصوص التقاليد التي بعثها الخلفاء العباسيون إلى الأمراء المرابطين الأوائل . يحيى بن ابراهيم ويحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر . إلا أنه من المؤكد وجود علاقات ودية بين العباسيين والمرابطين في شكل ولاء اسمي . من الأخيرين للأولين . على الأقل منذ عهد الامير أبي

11 – عن مقتل القاضي عتيق . انظر . عصمت دندش . دراسة حول رسائل ابن العربي . ص 154.

12 – انظر عن الموضوع نصا لابن الأثير . عند أحمد حسن محمود. قيام الدولة المرابطية . ص 332 .

بكر بن عمر . الذي نقش على دينار ضرب في عهده سنة 450 هـ / 1058م . بسجلماسة . اسم الخليفة العباسي أبي جعفر عبد الله القائم بالله (422 ــ 467 هـ / 1029 . 1074م) [13]. وليس إلى الشك سبيل في أن أبا بكر لم ينقش ذلك الإسم على عملته . إلا بعد أن راسل الخليفة العباسي وتلقى منه إجابة بقبول طاعته وتقليدا بولايته [14] .

أما خلال إمارة الأمير يوسف بن تاشفين . فلعل الكتب التي وجدها الفاطميون بمصر مع رسوله القاضي عتيق بن عمران إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله . والتي قتلوه من أجلها . كانت تضم تقليدا من الخليفة . ولعل عدم وصول هذا التقليد وموقف فقهاء الأندلس المالكية من شرعية سلطة الأمير يوسف ــ بعد أن أسقط ملوك الطوائف . حيث قالوا له " إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة " [15] ــ هو ما جعل الأمير يوسف بن تاشفين يبعث بسفارة أخرى إلى الخليفة العباسي سنة 485 هـ / 1092م . تتكون من قاضي اشبيلية الفقيه عبد الله بن العربي المعافري وابنه أبي بكر محمد [16]. طالبين من الخليفة استصدار تقليد لإقرار سيادة الامير يوسف بن تاشفين على بلاد الذهب مما يلي غانة والمغرب والأندلس . ورغم أن السفارة تأخرت في الحصول على بغيتها . إلا أن ذلك تم في النهاية . خلال خلافة المستظهر العباسي الذي بعث بالتقليد سنة 491 هـ / 1097م . كما أن الرسول وابنه عملا على استصدار فتوى تصبغ الشرعية على سلطة الأمير يوسف بن تاشفين . من كل من الإمام الغزالي والإمام الطرطوشي[17].

أما الأمير علي بن يوسف فقد وصله تقليد من الخليفة العباسي عبد الله أبي العباس المستظهر بالله . جوابا على كتاب أرسله علي طلبا لذلك التقليد . كما يفهم من نص هذا

---

13 - انظر تفصيل الكتابة المنقوشة على وجهي هذا الدينار عند حسين مؤنس . سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين في الأندلس . مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية . مدريد 1954 . المجلد 2 . ع1 و2 ص 65 .

14 - وهذا ينفي زعم الأستاذ محمد عبد الهادي شعيرة القائل بأن تاريخ اتصال الأمراء المرابطين بالخلفاء العباسيين هو عام 485 هـ / 1092 م . وأن ذلك مرتبط بأحداث الأندلس في عهد الأمير يوسف بن تاشفين الذي حاول بهذا الاتصال إضفاء الشرعية على ضمه الأندلس إلى المغرب . راجع . المرابطون تاريخهم السياسي . ط1 . القاهرة 1969 ص 123. 124.

15 - النويري . تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب . تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد . الدارالبيضاء . 1985. ص 390 .

16 - محمد عبد الهادي شعيرة . المصدر السابق . ص 124.

17 - انظر نص طلب التقليد والجواب والفتاوى . عند عصمت دندش في . دراسة حول رسائل ابن العربي . من ص 149 إلى 191 .

التقليد [18].

ويبدو أنه لم يصلنا تقليد عباسي بولاية الأمير تاشفين بن علي آخر الأمراء الفعليين للدولة المرابطية . نظرا لأنه قضى كل أيام إمارته في صراع مرير مع الموحدين انتهى بمقتله . وقد خاض هذا الصراع من أجل ضمان استمرارية سلطته على أرض الواقع . لذلك لم يهتم باستصدار تقليد صوري لهذه السلطة .

ب ـ الدعاء على المنابر :

فيما يخص دعاء الأمراء المرابطين للخلفاء العباسيين على المنابر . فإنه وإن لم تصلنا نصوص خطب الجمع تثبت ذلك . فإن من الممكن القول أن ذلك كان يحدث . وأن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يطالبون بذلك . فقد جاء في نص التقليد الذي بعثه الخليفة عبد الله المستظهر بالله إلى الأمير علي بن يوسف ما يلي : " ... وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على المنابر . تكن الظافر بالأعداء والظاهر ... " [19] .

ج ـ نقش أسماء الخلفاء على السكة :

أما فيما يخص نقش أسماء الخلفاء العباسيين على السكة المرابطية . فإن كتب النقود تبين لنا أن المرابطين نقشوا أسماء الخلفاء العباسيين على السكة منذ سنة 450 هـ / 1058م .

---

18 - هناك اختلاف في نسختي هذا التقليد كما أوردهما كل من صاحب الحلل و الوثيقة الأصلية التي نشرها حسين مؤنس . انظر الحلل الموشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . دار الرشاد الحديثة . ط1 الدار البيضاء 1979 . ص 87 . 88. و وثائق جديدة ... ص 66 . 67 . 68 . ورغم أن الأستاذ حسين مؤنس حين كان يقدم لهذه الوثيقة . ذكر أن المراجع لم تحتفظ لنا بشيء من المكاتبات الرسمية بين المرابطين والعباسيين قبل تقليد الأمير يوسف هذا . إلا أنه من الواضح الآن أن ذلك غير صحيح . فقد سبق أن تحدثنا عن وصول تقليد الأمير يوسف بن تاشفين وأحلنا على مصدره . ويبدو أن هذه المكاتبات الرسمية السابقة كانت معروفة لدى المؤرخين القدامى . فهذا ابن الأحمر يقول عن يوسف بن تاشفين " وبعث بهدية أخرى إلى العباسي صاحب بغداد والعراق . فوجه اليه بالخلع " انظر اسماعيل ابن الاحمر وآخرون . بيوتات فاس الكبرى . دار المنصور . الرباط 1972. ص 30 .

19 - الحلل الموشية . ص . 88 . ورد هذا النص عند حسين مؤنس في وثائق جديدة كما يلي " وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على نوايب المنابر . تكن الظافر بالأعداء والظاهر " ص 68 .

وذلك في عهد الأمير أبي بكر بن عمر . واستمر ذلك خلال عهود باقي الأمراء المرابطين [20] . فعن عهد الأمير يوسف بن تاشفين نقل المقريزي صاحب كتاب " شذور العقود في ذكر النقود " أن النقوش التي كانت على السكة التي ضربت في عهده كانت كما يلي : " في ديناره لا إله إلا الله محمد رسول الله . وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكتب في الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . وكتب في الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي . وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة " [21] .

د ـ ألقاب الأمراء المرابطين :

هذا الاتجاه الذي سلكه المرابطون . في التعاون مع العباسيين السنة ضد خصومهم الشيعة . وطلب الاعتراف بشرعية حكمهم عن طريق تلك التقاليد الخلافية . هذا الاتجاه أملى عليهم عدم اتخاذ ألقاب تتعارض مع العلاقات الودية بينهم وبين العباسيين

فمعلوم أن أهم ألقاب الخلافة لقب أمير المؤمنين . وقد جرت العادة أن يتلقب به الحاكم العام للعالم الإسلامي . الذي يجب أن تتوفر فيه شروط منها القرشية [22] . وبسط سلطته على الحرمين . وهذا حسب نظرية السلطة السياسية العليا السنية . كما صاغها الفقهاء انطلاقا من الماوردي إلى الغزالي . أما غيره من الحكام الآخرين فهم ضربان : إما أمير استكفاء . وهو الذي يفوضه الخليفة حكم بلد أو إقليم . أو أمير استيلاء وهو الذي يستولي بالقوة على بلد . وبعد ذلك يفوضه الخليفة تدبيره[23] .

وبما أن المرابطين مالكيون سنة . فهم قد تحركوا في إطار النظرية السياسية السنية هذه . فمع أنهم وصلوا إلى السلطة بسيوفهم إلا أنهم سعوا - كما رأينا - إلى إضفاء المشروعية الخلافية عليها بواسطة طلب التقاليد . وقد استتبع هذا أن يحجم المرابطون عن التطاول على

---

20 - حول هذا الموضوع انظر حسن محمود . قيام دولة المرابطين . ص 334 . 335 . 336 والمراجع التي يحيل عليها في الهوامش . وقد نقش على أحد الدنانير التي ضربت في عهد الأمير أبي بكر بن عمر مايلي : وجه : " لا إله إلا الله محمد رسول الله الأمير أبو بكر بن عمر " . وفي إطار الوجه : " ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " . ظهر : " الإمام عبد الله أمير المؤمنين " . وفي إطار الظهر : " باسم الله ضرب هذا الدينار بسجلماسة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة " . راجع حسين مؤنس . وثائق جديدة . ص 65 .

21 - نقلا عن أحمد حسن محمود . ص 335 .

22 - علي بن محمد الماوردي . الأحكام السلطانية والولايات الدينية . بيروت . 1978 . ص 6.

23 - نفس المصدر . ص 30 . 33 .

ألقاب الخلافة . فما هي الالقاب التي خلعها المرابطون على أنفسهم ؟

خلال فجر الحركة المرابطية اتخذ قواد الجناح العسكري فيها لقب أمير . وذلك انطلاقا من يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر . هذا الأخير الذي نقش هذا اللقب على السكة التي ضربها منذ سنة 450 هـ / 1058م [24] . لكن في إمارة يوسف بن تاشفين دخل تغيير على لقب الحاكم الأعلى المرابطي . ذلك أن هذا القائد اتخذ لقب " أميرالمسلمين وناصر الدين " . وقد اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون حول زمن هذا التحول وأسبابه .

فصاحب الحلل الموشية . يتابعه في ذلك الأستاذ ابراهيم حركات [25] . يريان أن هذا التحول تم سنة 466 هـ / 1073م . وأن سبب ذلك هو أن الامير يوسف بن تاشفين لما توالت عليه الفتوح في المغرب . اقترح عليه أشياخ قبيلته أن يتلقب بلقب أمير المؤمنين . إلا أنه رفض واعتذر بأن هذا اللقب خاص ببني العباس أصحاب الحرمين . لكنه قبل أن يدعى " بأمير المسلمين وناصر الدين " وأصدر منشورا بهذا الخصوص . يتضمن متن هذا المنشور . تاريخ إصداره - حسب ما نقله صاحب الحلل - وهو منتصف محرم سنة 466 هـ / 1073م .

أما الأستاذ محمد عبد الهادي شعيرة و الأستاذ أحمد حسن محمود . فقد حددا زمن هذا التحول في اللقب بعد سنة 480 هـ / 1087م . وقد علل الأول اختيار هذه السنة بأنها التي تلت معركة الزلاقة عام 479 هـ / 1086م . ذلك أن النصر في تلك المعركة - في رأيه - أهل يوسف بن تاشفين لحمل اللقب الجديد . بينما يرى الثاني أنها السنة التي توفي فيها الأمير أبو بكر بن عمر . وهو يرى أن يوسف لم يكن له أن يخلع على نفسه لقب أمير المسلمين وناصر الدين وهو لم يؤل إليه الامر رسميا بعد . إذ كان حتى ذلك الحين . عاملا من عمال أبي بكر .

ورغم المناقشة الطريفة [26] والجهود الطيبة التي بذلها كلا الباحثين من أجل حل هذه القضية . يبدو لنا أنه ما زال هناك ما يقال بخصوصها . في ضوء وثائق لم يكن في وسعهما الاطلاع عليها .

سبق أن تحدثنا عن السفارة التي قام بها الفقيه عبد الله بن العربيّ وابنه محمد إلى بغداد. والتي كانت سنة 485 هـ / 1092م . لكن اللافت للنظر أن الرسالة التي سلمها ابن العربي للخليفة العباسي يطلب فيها إصدار تقليد ليوسف ابن تاشفين لم تلقب يوسف " بأمير

---

24 - انظر تفصيل نقوش سكته في الهامش رقم 20 من هذا الفصل .

25 - الحلل الموشية . ص . 29 . 30. والنظام السياسي والحربي . ص 49 . 50 .

26 - انظر مناقشتيهما في كتابي المرابطون تاريخهم السياسي ص122 . 123 . وقيام دولة المرابطين . ص 338. 339 . 340 . 341 .

المسلمين وناصر الدين " بل اكتفت " بناصر الدين " واستعاضت عن أمير المسلمين " بجامع كلمة المسلمين " كما نعتته أيضا بالأمير فقط . فمما جاء فيها على لسان ابن العربي ما يلي : " أبدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين . القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين . صلوات الله عنه وعلى آبائه الطاهرين الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ... " [27] فهل معنى هذا أن ابن العربي الذي غادر المغرب سنة 485 هـ / 1092م لم يكن يعرف اللقب الرسمي ليوسف بن تاشفين . الذي اتخذه حسب الأستاذين محمد شعيرة وأحمد محمود سنة 480 هـ / 1087م ؟ أم أن يوسف حتى هذا التاريخ لم يكن قد اتخذ هذا اللقب ؟

لعل ما يشجع على الزعم بأن اتخاذ يوسف هذا اللقب كان متأخرا عن سنة 480 هـ / 1087م . هو أن الرسالة الجوابية على طلب ابن العربي . والتي كانت تقليدا من الخليفة العباسي المستظهر ليوسف بن تاشفين . والصادرة في رجب عام 491 هـ / 1097م . لم تنعت ابن تاشفين " بأمير المسلمين وناصر الدين " بل لم تلقبه حتى بالأمير واكتفت بالإشارة إليه بلفظ الولي فقط [28].

وقد وصلتنا رسالة ثانية من وزير الخليفة العباسي محمد بن جهير . باسم الخليفة المستظهر . موجهة إلى يوسف بن تاشفين في نفس الشهر والسنة . لم تلقبه أيضا بأمير المسلمين وناصر الدين . بل اكتفت بنعته بالأمير مجردة فقط . وقد ترددت هذه اللفظة خمس مرات في متن الرسالة [29].

وبما أنه ثابت أن يوسف بن تاشفين قد تلقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " رغم عدم إشارة النقود المسكوكة في عهده إلى هذا اللقب . ربما لأنها لم تصلنا جميعها . بدليل القراءة السابقة لنقوش دنانيره التي قدمها لنا المقريزي . والتي تذكر ذلك اللقب [30] . فإنه من المرجح أن يكون قد خلع على نفسه هذا اللقب بعد سنة 491 هـ / 1097م . أي بعد وصول تقليد الخليفة العباسي إليه . على أية حال فإن خلفاءه . ابنه علي بن يوسف وتاشفين بن علي . حملا أيضا هذا اللقب حتى انهيار سلطتهم [31].

وهكذا يتضح أن المرابطين رغم أنهم أقاموا كيانهم السياسي و وصلوا إلى السلطة

---

27 – رنظر نص الرسالة عند الأستاذة عصمت دندش . دراسة حول رسائل ابن العربي . ص 161.

28 – نفس المرجع . 165 .

29 – نفس المرجع . ص 166 . 167 . 168 . 169 .

30 – راجع ما سبق في هذا الفصل .

31 – أحمد حسن محمود . المرجع السابق . ص 341 . والمراجع التي يحيل [illegible]

بمجهودهم الخاص . وأحرزوا نجاحات كبيرة . على الاقل في بداية عهدهم . في حماية الجناح الغربي من العالم الإسلامي من الخطر المسيحي . إلا أنهم لم يعلنوا أنفسهم خلفاء . بل تقربوا من العباسيين واعترفوا بإمرتهم للمسلمين واحترموها . فقد جاء عن الأمير يوسف بن تاشفين أن أشياخ القبائل قالوا له " أنت خليفة الله في المغرب . وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير . إلا بأمير المؤمنين . فقال لهم حاشا لله أن أتسمى بهذا الإسم . إنما يسمى به الخلفاء . وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب . فقالوا له لابد من اسم تمتاز به . فقال لهم يكون أمير المسلمين " [32] .

4ـ تداول السلطة المرابطية :

مظاهر العلاقات الودية هذه بين العباسيين والمرابطين . والتي تجلت في حرص المرابطين على الحصول على تقاليد من الخلافة . ودعائهم للخلفاء على المنابر . ونقش أسمائهم على السكة المرابطية . وعدم تطاولهم على ألقاب الخلافة . نقول هذه المظاهر قد توحي لأول وهلة بأن المرابطين كانوا تابعين تبعية مباشرة للخلافة في بغداد . لكن الصحيح أن هذا الافتراض لم يكن واردا . وقد تجلى ذلك بصفة خاصة في عدم تدخل الخلفاء العباسيين في تعيين الأمراء المرابطين . بل كانوا يكتفون ببعث التقليد للأمير الذي ينصبه المرابطون . وبذلك كانت قضية تداول السلطة في الدولة المرابطية من اختصاص هؤلاء الأمراء أنفسهم . فكيف كان يتم ذلك ؟

كانت الدعوة المرابطية في البداية مبادرة من فقهاء المالكية ابتداء من أبي عمران الفاسي الذي كون " حلقات أو مراكز علمية . وهي في الحقيقة خلايا سرية لإنشاء وإخراج الدعاة " [33] . ويبدو أنه خلال هذه المرحلة المبكرة من عمر الدعوة . كان الاهتمام منصبا أكثر على الإعداد الفكري النظري للأتباع وذلك في سرية .

والراجح أنه عندما انضم يحيى بن إبراهيم الكدالي . العائد من رحلة الحج . إلى حلقة أبي عمران بالقيروان . بدأ التفكير في إنشاء جناح عملي للحركة . أي جناح عسكري لها . فكان اتصال يحيى ــ بواسطة أبي عمران ــ بالفقيه وجاج بن زلو اللمطي . ثم بواسطة هذا الأخير تم اللقاء بين الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ويحيى بن إبراهيم للعمل سويا على إعلان الحركة : الأول منظرا

---

32 - ابن عذاري . البيان المغرب . تحقيق ومراجعة إحسان عباس . ط2 دار الثقافة بيروت 1980ج 4 ص 27 . 28.

33 ــ أبو بكر المرادي الحضرمي . كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة . تحقيق الدكتور سامي النشار . دار الثقافة . الدارالبيضاء 1981 . ط1. ص 10.

لها حيث كان " يتولى النظر في ديانتهم وأحكامهم ويأخذ زكاتهم وأعشارهم " [34]. والثاني قائدا لجناحها العسكري " يتولى النظر في أمر حروبهم " [35] وذلك حوالي 430 هـ/ 1038م .

واستمر العمل بين قبائل صنهاجة في الجنوب المغربي إلى أن توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي بعد عام 434 هـ / 1042م [36]. ثم انتقلت قيادة الجناح العسكري للحركة المرابطية الصنهاجية إلى قبيلة لمتونة . في شخص أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني [37] .

أ- دور " المنظر/ المرشد " في تداول السلطة :

رغم المساواة التي ظهرت بين منظر الحركة وقائد قواتها . خلال الفترة المبكرة من عمر الحركة . إلا أنه يبدو أن الكلمة الأخيرة في سياسة الحركة . كانت لزعيمها الروحي . يقول صاحب الحلل الموشية : " وكان الأمير أبو زكريا إذا تقدم بجيشه . قدم أمامه الشيخ أبا محمد عبد الله بن ياسين . والشيخ كان في الحقيقة الأمير . وهو الذي يأمر وينهى . وكان يقول لهم : إنما أنا معلم دينكم " [38] .

ويظهر ثقل وأهمية مكانة عبد الله بن ياسين هذه . خلال فجر الحركة المرابطية . في أن نقل قيادة الجناح العسكري في الحركة من قبيلة كدالة إلى قبيلة لمتونة الصنهاجيتين كان بمبادرة منه . يقول ابن أبي زرع : " وتوفي يحيى بن ابراهيم الكدالي فأراد عبد الله بن ياسين أن يقدم غيره في موضعه ليقوم بحروبهم . وكان أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا لمتونة [...] فجمع عبد الله بن ياسين رؤساء القبائل من صنهاجة . فقدم عليهم يحيى بن عمر اللمتوني وأمّره على سائرهم [...] وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين . كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه " [39]. كما أنه بعد مقتل الأمير يحيى بن عمر سنة 447 هـ / 1055م . فإن تولية خلفه وأخيه الأمير أبا بكر بن عمر كان أيضا بمبادرة منه . يقول صاحب الحلل : " ولما كان بعد ذلك قدم الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين أخاه الأمير أبا بكر بن عمر . فبايعته لمتونة وسائر

---

34 ـ ابن أبي زرع . روض القرطاس . ص 127 .

35ـ نفس المصدر و الصفحة .

36 - المصدر السابق . ص 15 .

37 - ابن عذاري . البيان المغرب . ج 4 . ص 9 .

38 - الحلل . ص 21 .

39 - روض القرطاس . ص 126 . 127 .

الملثمين وأهل سجلماسة ودرعة "[40].

وعند مقتل الزعيم الروحي و " منظر " الحركة المرابطية عبد الله بن ياسين . يبدو أن شخصية فقهية قد خلفته في هذا المنصب . فقد وردت إشارة عابرة عند ابن خلدون إلى المدعو سليمان بن حدو . الذي يبدو أنه شغل هذا المنصب لفترة قصيرة . إلى أن قتل أيضا من طرف البورغواطيين عام 451 هـ / 1059م [41].

ولما استبد يوسف بن تاشفين بحكم المغرب على ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر سنة 465 هـ . الذي عاد إلى الصحراء في محاولة لمد نفوذه في الجنوب على حساب قبائل السودان . اصطحب معه أحد الفقهاء . لعله كان يقوم بنفس المهمة التي كان يقوم بها عبد الله بن ياسين من قبل . هذا الفقيه والعالم الأصولي هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي [42] . ولعل تأليف هذا العالم لكتاب " السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة " هو ما يؤكد قيامه بدور " المنظر " للحركة المرابطية في الجنوب بعد أن انقسمت إلى شطرين . بعد استبداد يوسف بن تاشفين بشطرها الذي امتد في الشمال على المغرب .

ولعل هذا الفقيه الأصولي . كان آخر شخص قام بهذه المهمة . رسميا ـ رغم تقريب المرابطين للفقهاء طول عصرهم ـ كما يحتمل أن مهمة " مرشد الحركة " قد انتهت مع وصول يوسف بن تاشفين إلى السلطة واستبداده بها . ولعل ما يقوي زعمنا هذا هو أن المرادي . بعد وفاة الأمير أبي بكر بن عمر سنة 470 هـ / 1077م . قد قام برحلة إلى قرطبة سنة 487 هـ / 1094م. لكنه لم يحاول الاتصال بيوسف بن تاشفين . الذي ضم الصحراء إلى المغرب بعد وفاة الأمير أبي بكر بن عمر . بل عاد إلى الصحراء . حيث توفي هناك في مدينة أزكي سنة 489 هـ / 1095م [43]. وبعد هذا الشخص لانجد ذكرا لزعيم روحي أو " مرشد " للحركة المرابطية . ولعل السبب في ذلك هو أن الحركة المرابطية قد أصبحت دولة . بعد استئثار يوسف بن تاشفين بالسلطة . وسيطرة المرابطين على المغرب بامتداده الصحراوي والأندلس .

هذا فيما يخص المدة التي كانت فيها السلطة السياسية والعسكرية العليا في الحركة المرابطية . موزعة بين من أسميناه " منظر أو مرشد " الحركة وقائد قواتها . ثم بعدها بدأت مرحلة أخرى لعل أبرز ما ميزها هو اختفاء منصب " المنظر / المرشد " وتركيز السلطة السياسية العليا

---

40 - ص 23 .

41 - نقلا عن ابراهيم حركات . النظام السياسي . ص 52 .

42 - كتاب السياسة . انظر مقدمة المحقق . ص 20 .

43 - المصدر السابق . ص 22 .

سواء الروحية أو الزمنية في يد الأمير المرابطي - دائما رغم الحظوة التي نالها بعض الفقهاء عند المرابطين - ثم أهم من ذلك هو حدوث تغيير في طريقة تداول السلطة داخل الحركة . حيث أصبحت وراثية . ولعل ما يثير الاهتمام هو أن كل هذه التحولات قد حدثت خلال إمارة يوسف بن تاشفين . لكن الذي سنهتم به هنا هو الطريقة التي كانت تنتقل بها السلطة السياسية العليا بين زعماء الحركة المرابطية ثم بين أمراء الدولة المرابطية .

ب ـ ضيق مجال تداول السلطة :

سبق الحديث عن أن قيادة الجناح العسكري في الحركة المرابطية . عند نشأتها . كان في شخص الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي . ثم بعد ذلك انتقلت هذه القيادة إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتوني .

وبما أن كلتا القبيلتين كدالة ولمتونة تنتميان إلى أفخاذ قبائل صنهاجة الجنوب الملثمين . وبما أن صنهاجة تبنت دعوة عبد الله بن ياسين . فيبدو أن قيادة جناحها العسكري كان في البداية عاما في صنهاجة الجنوب . وذلك بغض النظر عن الظروف السياسية والعسكرية التي تم فيها انتقال السلطة [44]. وبغض النظر أيضا عن دور عبد الله بن ياسين في هذا الانتقال . هكذا إذن كان في الإمكان نقل السلطة العسكرية العليا في الحركة المرابطية من قبيلة إلى أخرى في فجر تكونها لكن داخل اتحاد صنهاجة الجنوب [45] .

لكن بعد انتقال قيادة الجناح العسكري للحركة إلى قبيلة لمتونة . نلاحظ جنوحا نحو تضييق تلك العمومية الأولى . وجعل القيادة تنحصر في قبيلة لمتونة . مرة أخرى بغض النظر عن ظروف هذا التخصيص ودور عبد الله بن ياسين في ذلك [46] نجد هذه القيادة تنتقل إلى الامير أبي

---

44 - قارن بين ما جاء في هذا الصدد . في كل من روض القرطاس . ص 126 . 127. و البيان المغرب . ج 4 . ص 8 . 9 والحلل الموشية . ص21 .

45 - يهمل أحمد حسن محمود هذه الفترة المبكرة من تاريخ الحركة المرابطية . عند حديثه عن نظم الحكم المرابطية . حيث يركز على دور لمتونة ويحصر السلطة في هذه القبيلة فقط .

46 - قارن بهذا الصدد روايات روض القرطاس . ص 128 الذي يقول أن الأمير يحيى بن عمر قتل " في جهاد كان ببلاد السودان " والبيان المغرب . ج 4 . ص 14. والحلل الموشية . ص 23 اللذان يذكران أنه قتل في صراع مع كدالة .

بكر بن عمر أخ الأمير السابق [47]. بمعنى بقاءها في نفس القبيلة . بل في أسرة واحدة . هي أسرة بني ورتنطق . وإن لم يكن ذلك عن طريق الوراثة [48] .

ج ـ نظام وراثة السلطة :

خلال إمارة أبي بكر حدث تطور جديد تمثل في انتقال السلطة داخل قبيلة لمتونة . هذه المرة ليس من أخ إلى أخيه بعد موته . بل من ابن عم الى ابن عمه. لكن ليس عن طريق تعيين "مرشد" الحركة المرابطية بل بالاستبداد. فقد استولى يوسف بن تاشفين على السلطة في المغرب بعد أن كان ابن عمه أبو بكر قد استخلفه عليه حين رجع إلى الصحراء لفض النزاع الذي وقع بين جدالة ولمتونة [49] . وكما سبق ذكر ذلك . لما توفي أبو بكر ضم يوسف الصحراء وأصبح أميرا وحيدا للمرابطين . ومعه تحولت حركة المرابطين إلى دولة [50] .

لم يكن هذا هو التطور الوحيد الذي حدث على طريقة تداول السلطة . داخل الدولة المرابطية . في عهد يوسف بن تاشفين . بل.إن يوسف بعد أن استمر في حكم المغرب والأندلس لمدة ثلاثين سنة . لم يكن ليهون عليه أن يترك أمر خلافته لنظر الأمراء المرابطين بعد وفاته . بل

---

47 - الجدير بالملاحظة أن الأمير يحيى بن عمر . كان له من الولد ثلاثة . محمد وعلي وعيسى . انظر ابن عذاري . ج 4 . ص 17.

48 - رغم نقش اسم إبراهيم بن أبي بكر على نقود ضربت في سجلماسة . فإن أبا بكر لم يجعل ابنه وليا لعهده . بل كان لكل أمير شبه استقلال ذاتي يمكنه من سك نقود باسمه . انظر أحمد حسن محمود . المرجع السابق . ص 343.

49 - ليس صحيحا ما يذكره أحمد حسن محمود من أن يوسف قد اختير من طرف الملثمين بسبب إحرازه النصر في معارك المغرب والأندلس . قيام الدولة المرابطية . ص 343. فحتى حين استبداده بالمغرب . على ابن عمه سنة 465 هـ . لم يكن قد أكمل فتحه كله . ذلك أنه لم يستول على مكناسة إلا سنة 466 هـ / 1073م وفاس سنة 467 هـ / 1074 م وتلمسان 468 هـ / 1075م . أما الأندلس فلم يفكر في العبور إليها إلا بعد أن استصرخه بعض ملوكها لنصرتهم بعد سنة 474 هـ / 1081م . انظر الحلل الموشية . ص 28 . 33 . ثم إن هناك نصوصا صريحة تؤكد استبداد يوسف على ابن عمه . انظر الحلل . ص 25 . 26 . 27 . 28 وروض القرطاس . ص 135 والبيان المغرب . ج 4. ص 23 . 24 . 25. وكذلك ابراهيم حركات الذي يقول إن " بيعة يوسف بن تاشفين تمت في شكل أقرب إلى الدكتاتورية منه إلى الديمقراطية " النظام السياسي والحربي . ص 53 .

50 - لعل أبرز مظاهر هذا التحول هو اختفاء مهمة " المرشد " كما سبق الحديث عن ذلك . وتركيز السلطة في يد الأمير المرابطي وتوريثها في أعقابه كما سنرى .

بادر سنة 496 هـ / 1102م إلى إعلان ابنه علي بن يوسف وليا لعهده [51] . واستمر الحال كذلك إلى أن توفي يوسف فأصبح علي أميرا للمسلمين وتلقب بلقب أبيه [52] .

وقد كانت تلك اللحظة التي اتخذ فيها يوسف ذلك القرار . إيذانا بتحول طريقة الوصول إلى السلطة العليا . داخل الدولة المرابطية . إلى شكل وراثي . ذلك أن الأمير عليا بن يوسف بعده . عمل على تنصيب ابنه أبي محمد سير وليا لعهده سنة 522 هـ / 1127م [53]. ولما توفي هذا الأخير نصب مكانه أخاه تاشفين بن علي [54] الذي تقول المصادر أن تنصيبه كان باختيار أشياخ المرابطين والخاصة والعامة [55] . وقد عمل تاشفين على تولية ابنه إبراهيم . الذي خلعه أشياخ المرابطين . بعد مقتل تاشفين . ونصبوا مكانه . عم الأول وأخ الثاني . إسحاق بن علي . على صغر سنه . والذي كانت نهايته على يد الموحدين حين دخولهم مراكش 541 هـ / 1146م [56] .

د ـ صراع الأمراء المرابطين حول السلطة :

هكذا فإن انتقال السلطة بين الأمراء داخل الحركة ثم الدولة المرابطية لم يكن يحدث دون صراع . ذلك أنه رغم عدم وضوح الظروف التي انتقلت فيها السلطة من قبيلته جدالة إلى لمتونة الصنهاجيتين . فمن الراجح أن صراعا قد نشب حولها . حسمه عبد الله بن ياسين . ولعل هذا الصراع بين گدالة ولمتونة استمر إلى أن أودى بحياة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني . حسب ما يرويه

---

51 - الحلل الموشية . ص 78 . انظر التبريرات التي يقدمها كل من إبراهيم حركات وأحمد حسين محمود لقرار يوسف بن تاشفين هذا . في كتابي : النظام السياسي والحربي . ص 72 . 73 وقيام دولة المرابطين . ص 344 . وانظر أيضا نص عقد البيعة لعلي بن يوسف عند صاحب الحلل الموشية . ص 79 . 80 .

52 - روض القرطاس . ص 137 .

53 - البيان المغرب . ج 4 . ص 78 .

54 - هناك خلاف حول تاريخ تنصيب تاشفين وليا للعهد . فابن الأثير والنويري . الذي ينقل عنه . يجعلانه في سنة 531 هـ وابن عذاري في سنة 533 هـ / 1138م . انظر الكامل في التاريخ . بيروت 1966. م 10 . ص 578 وتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 405 . والبيان . ج 4 . ص 98 .

55 - البيان المغرب . ج 4 . ص 97 . 98 .

56 - راجع تفاصيل هذه الأحداث . ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق وتعليق حسين مؤنس 1963 . ط1 . ج 1 ص 194 . 195 . روض القرطاس . ص 189 . الحلل . ص . 133 . 134 . 135 . الكامل في التاريخ . المجلد 10 . ص 580 . 584 . ابن خلدون . كتاب العبر . بيروت 1983. المجلد السادس . القسم الأول . ص 389 .

ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية [57] .

والصراع على السلطة أيضا هو الذي أدى إلى شق الحركة المرابطية إلى شطرين لمدة من الزمن . حين استبد الأمير يوسف بن تاشفين على ابن عمه أبي بكر بن عمر واستمر ذلك إلى أن توفي هذا الأخير . لكي تعود الوحدة وقد تحولت الحركة المرابطية إلى دولة .

كما أن الأمير أبا بكر بن علي بن يوسف قد عارض تنصيب أخيه الأمير سير بن علي وليا للعهد ورفض مبايعته . مما اضطر والدهما الأمير علي بن يوسف إلى نفي أبي بكر إلى الصحراء . وعند وفاة الأمير سير وترشيح الأمير تاشفين بن علي . عارض ذلك مرة أخرى فسجنه والده بالجزيرة الخضراء حيث بقي إلى أن توفي [58] .

ثم إن فترة أفول الدولة المرابطية لم تخل من صراع . فقد سبقت الإشارة إلى خروج إسحاق بن علي . بإيعاز من أشياخ المرابطين . على ابن أخيه إبراهيم بن تاشفين واستيلائه على السلطة إلى أن انتزعها منه الموحدون .

هكذا إذن لم يكن الخلفاء العباسيون بقادرين على التدخل في تنصيب أمراء الدولة المرابطية بل كان ذلك أمرا داخليا يخص هؤلاء الأمراء . والذي لم يكن يتم دائما بالتراضي وبطريقة سلمية . إلى أن سقطت دولتهم في المغرب والأندلس وبذلك " انقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه " [59]. فلم يذكروا على منبر من منابرها " على حد تعبير المراكشي [60] . فكيف تم ذلك ؟

---

57 - البيان المغرب . ج 4. ص 14 والحلل . ص 23 وإن كان ابن أبي زرع يذكر أنه قتل في الجهاد ضد السودان فقد انفرد بهذه الرواية . روض القرطاس . ص 128 .

58 - النظام السياسي والحربي . ص 82 .

59 - يقصد تاشفين بن علي وابنه ابراهيم .

60 - المعجب . ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . ط 7. البيضاء 1987 . ص 297 .

الفصل الثاني

الدعوة الموحدية والسلطة السياسية العليا

من المعلوم أن الفقيه المغربي الأصل ، محمد بن تومرت ، بعد عودته إلى المغرب من رحلة قام بها إلى المشرق ، هو الذي قام بالأعمال الأولى الممهدة لإسقاط سلطة المرابطين ، وذلك عن طريق تنظيم نواة حركة إصلاحية دينية سياسية ، ما فتئ أن أعلن نفسه إماما لها، مما عنى وجود سلطتين سياسيتين تتنازعان الشرعية على حكم المغرب والأندلس خلال فترة الانتقال .

وقد استمر هذا النزاع طوال هذه الفترة إلى أن انتهى بانتصار الحركة الجديدة التي أنشأها ونظر لها ابن تومرت. وإذا كان ابن تومرت لم يطل به العمر ، إلى أن يشهد على أرض الواقع ذلك التغيير الذي عرفه المغرب والأندلس ، على المستوى النظري ، الذي دعا له ، فإن الجماعة التي كونها، والتي عرفت باسم الموحدين ، تمكنت من تحقيق ذلك الشكل من السلطة السياسية التي اختلفت عن سابقتها المرابطية ، فكيف قام ابن تومرت بإحداث هذا التغيير في نظرية السلطة السياسية العليا في المغرب والأندلس خلال فترة الانتقال ؟

1ـ رحلة ابن تومرت المشرقية :

لا نعرف شيئا ذو أهمية عن صبا وشباب محمد ابن تومرت ، غير أنه بعد أن جاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم وأخذ قسطا من مبادئ العلوم الشرعية ، خاصة الفقه ، وبعد أن حصل جملة من الأدب وعلوم اللغة ، ذهب في رحلة إلى المشرق لعلها كانت من أجل زيادة الاستبحار في علوم عصره ، ثم أداء فريضة الحج [1] .

وقد اختلف المؤرخون القدامى حول زمن رحيل ابن تومرت إلى المشرق كثيرا ، وقد حدد الدكتور عبد المجيد النجار تاريخ ذلك في إحدى سنتين إما سنة 499 هـ / 1105م أو سنة 500 هـ

---

1 - عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت ، حياته وآراءه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1983، ط1 ص 60 .

/ 1106 م [2]. وإذا كان التدقيق في مثل هذه القضايا لا يهمنا كثيرا . إلا أننا سنشير باقتضاب إلى أنه رحل إلى الأندلس ثم إفريقية ومنها إلى مصر ومكة ثم الشام فالعراق .

وقد امتدت إقامته بالمشرق ما لا يقل عن عشر سنوات . أخذ خلالها الكثير من علوم عصره عن كبار المشايخ آنذاك. كأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والمبارك ابن عبد الجبار وأبي بكر الشاشي وأبي بكر الطرطوشي وأبي عبد الله الحضرمي [3] . قبل أن يقفل عائدا إلى موطنه بسوس في المغرب الأقصى .

2 ــ موقف ابن تومرت من السلطة المرابطية :

ذهب كثير من المؤرخين القدامى وبعض المحدثين . إلى أن ابن تومرت عاد من المشرق. وهو يحمل فكرة الإطاحة بسلطة المرابطين . وأنه ادعى المهدية هناك.

وقد فعل هؤلاء المؤرخون القدامى ذلك . إما عمدا لإثبات مهدية ابن تومرت والدعاية له ولزعماء حركته من بعده . ولعل أبرز ممثل لهذا التيار هو أبو بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيذق صاحب كتاب " أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" [4] وتابعه في ذلك المؤرخون الذين كتبوا في ظل الموحدين . أمثال ابن القطان في نظم الجمان . وإما بسبب نقل مؤرخين نقلا غير متفحص . أمثال ابن عذاري والمراكشي وابن أبي زرع وابن خلدون نفسه . الذي يقول عنه" وارتحل في طلب العلم إلى المشرق [...] ومر بالأندلس ودخل قرطبة [...] ثم أجاز إلى الاسكندرية وحج ودخل العراق ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار وأفاد علما واسعا. وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده. كما كان الكهان والحزاء يتحينون ظهور دولة يومئذ بالمغرب" [5] .

أما المحدثين فإن آخر كتاب صدر عن ابن تومرت ــ حسب علمنا ــ للدكتور عبد المجيد النجار

---

2 - بعد مناقشته للمصادر القديمة خرج منها بهذا الاستنتاج . نفس المرجع . ص 65 . ويعد كتابه هذا مرجعا ضروريا لكل من يهتم بابن تومرت ومن أي جانب .

3 - نفس المرجع من ص 66 إلى 84 .

4 - طبعة الرباط 1971. ولا زال هذا الكتاب في حاجة إلى دراسة تحليلية نقدية . للبيذق أيضا كتاب " المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب " حققه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . الرباط 1971 . لعل أهم ما جاء في هذا الكتاب بهذا الصدد . هو إيراده لقائمة تضم أسماء واحد وخمسين شخصا . وذلك نقلا عن مؤلف يدعى أبا القاسم المؤمن المصري . يدعي أنهم أصحاب المهدي بمصر . مما يوحي بأن ابن تومرت ادعى المهدية منذ عودته إلى المغرب عبر مصر . انظر ص 28 .

5 - العبر . المجلد 6 القسم الأول . ص 465. 466 .

ينحو نفس المنحى [6] .

ولعل تتبع سلوك ابن تومرت .بشيء من التدقيق . خلال رحلة عودته هذه ـ رغم أن المصادر لا تقدم معلومات واضحة عن كل أجزائها ـ قد يعين على تصحيح الأخطاء التي وقع فيها بعض هؤلاء المؤرخين . كما قد يوضح بدقة ظروف وزمن النقلة في موقف ابن تومرت من المرابطين. ومتى أصبح يدعو للإطاحة بسلطتهم .

أـ سلوك ابن تومرت خلال رحلة عودته إلى المغرب :

يبدو لنا أنه يمكن تقسيم رحلة عودة ابن تومرت إلى المغرب إلى شطرين : الأول يمتد من الانطلاقة إلى وصوله إلى رباط ملالة . والثاني منذ دخول ابن تومرت إلى الأراضي التي كانت تمتد عليها سلطة المرابطين. إلى أن طرد من مراكش .

ذلك أن رباط ملالة يشكل محطة هامة في رحلة عودة ابن تومرت. فقد استقر بها لمدة غير وجيزة. امتدت إلى أشهر عدة [7]. وبها التقى بتلميذه عبد المومن بن علي الذي تزعم حركة الموحدين من بعده. والذي تجمع أغلب المصادر على أن ابن تومرت أسر إليه بعزمه على القيام ضد المرابطين وتنبأ له بأنه سيكون خليفته [8] .

وهذا التقسيم يمكننا أيضا من فحص سلوك ابن تومرت هل كان متماثلا خلال شطري الرحلة . وهل ادعى الهداية ودعى إلى الإطاحة بالمرابطين منذ بداية عودته . أم حدث ذلك بعد خروجه

6 - المهدي بن تومرت . ص 94. 35. 111 . هناك بعض الباحثين المحدثين الذين اضطربوا كثيرا حول هذه النقطة. فروجي لوتورنو رغم أنه أكد في صفحات عدة أن ابن تومرت لم يتخذ موقفا سياسيا من المرابطين قبل وصوله إلى مراكش . راجع حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و 13 . ترجمة أمين الطيبي . ليبيا . تونس 1982. ص 14. 16. 17. 24 . لكنه حين تعرض لقصة لقاء ابن تومرت بعبد المومن بن علي . رجح رواية البيذق في الموضوع قائلا أنه " يبدو أن روايته أكثر الروايات صحة " ص 24 . وإذا ما تفحصنا هذه الرواية فسنجد ما ورد فيها على لسان ابن تومرت قوله " إنما الله إلاه واحد والرسول حق والمهدي حق " ص 26 . وأخبار المهدي ص 17 . ما يعني اعتراف لوتورنو . ضمنا. مع البيذق بأن ابن تومرت أعلن مهديته وهو ما يزال بملالة مكان لقائه بعبد المومن .

7 - المراكشي . المعجب . ص 266 و A. Huici MIRANDA , Historia Politica del Emperio Almohade , Tetouan 1956 , T. 1 p. 42 . كما حدث بملالة حادث لم توضحه المصادر جيدا ارتبط بوصول رجلين من درن (= جبال الأطلس الكبير) من تينمل إلى ملالة . كما يذكر البيذق . ودار حديث بينهما وبين ابن تومرت باللغة الأمازيغية لم تصلنا تفاصيله . وعلى إثر هذا اللقاء . قرر ابن تومرت الرحيل نحو المغرب الأقصى . انظر أخبار المهدي ص 17. وروجي لوتورنو . حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر . ص 28. 29 .

8 - أخبار المهدي . ص 16. 17. الكامل . الجلد 10 . ص 570. المعجب ص 265. 266. روض القرطاس . ص 173.

من ملالة ودخوله في مناطق نفوذ المرابطين. أم علينا أن نبحث عن نقطة تحول أخرى ؟

أ ــ 1ــ خلال الشطر الأول من الرحلة :

يذكر ابن أبي زرع أن تاريخ بداية عودة ابن تومرت إلى المغرب هو ربيع الأول من عام 510 هـ / 1116م [9] . ولعل نقطة انطلاقة العودة كانت مكة . ومنها ارتحل إلى الاسكندرية ثم طرابلس والمهدية والمنستير وتونس[10] وقسنطينة وبجاية فرباط ملالة . قبل أن يدخل التراب الذي كانت تمتد إليه سلطة المرابطين[11]. فهل ظهر على ابن تومرت طوال هذا الشطر من رحلة العودة . من خلال سلوكه. ما قد يوحي بأنه كان ينوي الخروج على المرابطين والإطاحة بسلطتهم ؟

باستقراء المصادر التي احتفظت بشذرات عن هذه الرحلة. نستنتج أن أفعال ابن تومرت توزعت بين طلب العلم . وتلقينه . وتصحيح الأحكام الشرعية . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما كان يراه . وبخاصية أخرى تمثلت في عدم مجازفة ابن تومرت بالمواجهة مع أصحاب السلطة والتصدي لذوي النفوذ .

ــ تلقي وتلقين المعرفة :

ففي الإسكندرية نجده قد " أقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه"يتتلمذ عليه [12]. ولا يستبعد أن يكون قد أخذ أيضا عن الفقيه المالكي محمد المازري بالمهدية [13]. بما يعني أن ابن تومرت لم يكتف بما أخذه عن علماء المشرق بل اغترف ما كان مع بعض مشايخ المغرب . وفي نفس الوقت كان يقوم بتلقين ما معه من علوم لغيره . فابن خلدون

9 - روض القرطاس . ص 173 .

10 - وصلتنا أخبار أكثر وفرة عن رحلة العودة هذه . ابتداء من تونس . ذلك أن الجزء الذي وصلنا من كتاب " أخبار المهدي " للبيذق . الذي صاحب ابن تومرت في عودته . يبدأ بوصف الرحلة انطلاقا من هذه المدينة .

11 - ذلك أن ملالة تقع في أحواز بجاية . وهذه الأخيرة كانت تابعة لبني حماد . حين مر بها ابن تومرت . في عهد الأمير العزيز بن منصور بن الناصر بن علاء الناس الحمادي (498 - 515 / 1104م ــ 1121م) . انظر ابن القطان. نظم الجمان. تحقيق محمود علي مكي. تطوان . دون تاريخ . ص 41.

12 - المعجب . ص 263 . نظم الجمان . ص 38. 39 .

13 - ذكر ابن القطان أنهما التقيا بالمهدية . المصدر السابق . ص 40 . كما ذكر الأستاذ حسني عبد الوهاب أن ابن تومرت تتلمذ على الإمام المازري . انظر كتابه الإمام المازري . تونس 1955. ص 52 .

يخبرنا عنه حين كان بطرابلس فيقول: " واحتل بطرابلس أول بلاد المغرب مفتيا بمذهبه كذلك [...] وأخذ نفسه بتدريس العلم " [14] ولما وصل المهدية " تسامع به أهل البلد فقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم" [15] وحين دخل تونس " كان طلبتها يأتون الإمام رضي الله عنه [16] يأخذون عنه العلم " [17] كما كان فقهاء المدينة أنفسهم " يأخذون عنه العلم أياما عديدة " [18] كما يذكر البيذق . وفي قسنطينة أيضا كان " الطلبة الذين بها يأتون المعصوم يقرأون عليه " [19] ولما نزل بجاية " أظهر بها تدريس العلم والوعظ " [20] .

ـ تصحيح الأحكام الشرعية :

أما بخصوص قيام ابن تومرت بتصحيح الأحكام الشرعية . فقد روى البيذق . وهو شاهد عيان . أنه حين كان بتونس صلى الظهر في أحد أيام الجمعة . وبعد ذلك صلى على الجنائز . وبقيت جنازة خلف الناس . فسأل عن صاحبها لمَ لم يصلوا عليه . فقيل له " هو يهودي وكان يصلي فقال لهم رضي الله عنه أفيكم من يشهد له بالصلاة ؟ فقال الناس نعم من كل جانب ومكان فقال لهم شهدتم له بالإيمان . ثم أمر من يقيم الصفوف وصلى عليه ونحن من وراءه . فلما صلى دعى الفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز "[21] ولما ضرب سارق في قسنطينة على سرقة اقترفها . تدخل ابن تومرت ليبين للذين عاقبوه بالضرب أن عليه قطع اليد . لكنه منعهم من تنفيذ ذلك . قائلا لهم بأن ذلك الضرب " يقوم مقام قطع اليد لجهلكم لأنه لا يجوز

---

14 - العبر . المجلد 6 القسم الاول . ص 466، 467 .

15 - وردت نفس العبارة عند كل من ابن الأثير والنويري . انظر الكامل . م 10، ص 570 . وتاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 396 .

16 - نلاحظ هنا أن البيذق يصف ابن تومرت بالإمام ويتلي هذا الوصف بالترضية عليه . وهو ما يزال في تونس . وذلك عمدا. لكن الصحيح أن ابن تومرت لم يكن قد أعلن نفسه إماما بعد . كما سنرى .

17 - أخبار المهدي . ص 11 . 12 .

18 - نفس المصدر والصفحة .

19 - المصدر السابق . ص 12.

20 - المعجب . ص 264 . وذكر البيذق أن ابن تومرت حين دخل بجاية " كان الفقهاء يأتونه " في شهر رمضان . وعدد أسماء خمسة منهم . لكنه لم يحدد هل كانوا يأخذون عنه أم كانوا يتدارسون ما معهم كأنداد . أخبار المهدي . ص 13.

21 - نفس المصدر . ص 11 .

جمع حدين في ذنب واحد " [22].

ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أما عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما كان يراه ابن تومرت . فنجده قد بدأ ممارسته وهو ما يزال بمكة نفسها . فقد أشار ابن العماد في كتابه شذرات الذهب إلى ذلك حيث قال : " بدأ أولا في الإنكار بمكة فآذوه . فقدم مصر ... " [23] وحين وصل الإسكندرية "رأى بها مناكر فغيرها وأغلظ في أمرها " [24] بل إنه حين كان على ظهر المركب الذي نقله من الإسكندرية إلى طرابلس[25] " رأى في المركب خمرا فأراقه [...] ثم حضر وقت الصلاة فأمرهم بالصلاة فلم يلتفتوه . فشدد عليهم فغضبوا وهموا بإلقائه من المركب" [26] وفي طرابلس أخذ نفسه بتدريس " العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع " [27] وحين وصل المهدية " كان إذا مر به منكر غيره وأزاله " [28] وفي بجاية كان ينهى الرجال عن لبس أثواب تشبه زي النساء لأنه حرام " [29] . وصادف وجوده بالمدينة حلول عيد الفطر . فاختلط الرجال بالنساء في المصلى " فلما رآهم الإمام رضي الله عنه دخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا حتى بددهم " [30] .

---

22 - نفس المصدر . ص 12.

23 - نقلا عن عبد المجيد النجار. المهدي بن تومرت . ص 86 .

24 - نظم الجمان . ص 38 .

25 - رجحت أن يكون هذا القسم من الرحلة . الذي قطعه ابن تومرت على ظهر السفينة . قد جمع بين الإسكندرية وطرابلس . اعتمادا على أن أول نقطة تحدثنا المصادر عن أخبار ابن تومرت بها . بعد الإسكندرية هي طرابلس . ثم إن ابن القطان يذكر أنه ركب البحر في سفينة من الإسكندرية " يريد بلاد المغرب " نظم الجمان . ص 39. وابن خلدون يضيف أن ابن تومرت " احتل بطرابلس أول بلاد المغرب ... " العبر . م 6 . ق1 ص . 466 . فالمغرب في عرف الجغرافيين و المؤرخين المسلمين القدماء كان يبدأ من حدود مصر الغربية .

26 - نظم الجمان . ص 39 .

27 - ابن خلدون . المصدر السابق . ص 467 .

28 - ابن الأثير . ص 570 . والنويري . ص 396. وصاحب الحلل الموشية الذي يقول " ولما وصل المهدية غير بها المنكر " ص 106. وابن القطان يقول أنه رأى بها " سوقا تباع فيه الخمر فكسر دنانها وأراقها وغير المنكر " نظم الجمان . ص 40

29 ـ أخبار المهدي. ص13. ونظم الجمان. ص91.

30 ـ أخبار المهدي. ص13.

ـ ابن تومرت والسلطات المحلية :

هكذا تبين لنا أن ابن تومرت . كان شغوفا بتلقي العلم . غير بخيل به على غيره . عاملا على إخضاع الواقع اليومي لمسلمي الغرب الإسلامي . لأحكام الشريعة.لكن رغم حرصه على ما سبق . كان حين تصادفه مواقف . يجد نفسه كشخص لا يملك سلطة مادية وغير قادر على تحمل تبعاتها . فإنه يؤثر التراجع .

ذلك ما حدث له في مكة . كما سبق . وهو نفس ما حدث له بالإسكندرية حين غير بها المنكر " فقامت عليه العامة" ما اضطره إلى الإنصراف نحو المغرب [31] . وعلى ظهر المركب حين أراق الخمر " صاح عليه صاحبها وسبه ووضع يده فيه . فاجتمع إليه أهل المركب ورغبوه حتى سكت" [32] فواضح من النص أن ابن تومرت لم يبد أية مقاومة . وأن الذين أنقذوه من تلك الورطة هم المسافرون على متن السفينة . وفي المهدية أثار عليه نقمة واليها . يحيى بن تميم . الذي بعث إليه الإمام المازري الذي قال له " أخاف عليك عاديته وعادية جنده " فغادرها إلى المنستير [33]. وحين غير المناكر ببجاية " فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وأ تمزوا به . فخرج منها خائفا ولحق بملالة . على فرسخ منها " [34] . ما يعني أن ابن تومرت كان شديد الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما كان يراه . لكنه لم يكن يجازف ويعرض نفسه للخطر .

أ ـ 2 ـ الإقامة بملالة :

هكذا إذن خرج ابن تومرت من بجاية خائفا على نفسه إلى ملالة . ولعل ما يلفت النظر في

---

31 ـ نظم الجمان . ص 38. 39.

32 ـ نفسه . ص 39 .

33 ـ نفسه . ص 40 .

34 ـ العبر . م 6. ق1. ص 467 . والسلطان الذي يذكره ابن خلدون هوالأمير العزيز بن منصور السابق ذكره . وقارن بين رواية ابن خلدون هذه . ورواية البيذق الذي يصور الحادث وكأن الأمير يتوسل إلى ابن تومرت أن يتوقف عن الأمر والنهي . أنظر أخبار المهدي . ص 13 . ورواية ابن القطان الذي يقول بأن الأمير بعث كاتبه . محمد بن فلفول . يلاطف ابن تومرت و " يراوده على ترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " . أنظر نظم الجمان . ص42. فواضح أن البيذق وابن القطان كتبا في ظل الموحدين وبما أنهما من مؤرخي البلاط و العصر الموحدي فلم يجرء أحد منهما على إظهار ابن تومرت بمظهر الخائف العاجز ما قد يقدح في " إمامته ومهديته وعصمته " . أما ابن خلدون الذي كتب في ظل بني مرين فقد تحرر من هذا العامل المذهبي/ الإديولوجي .

رحلة عودته هذه هو أنه أقام بملالة لمدة تجاوزت عدة شهور . كما تقول المصادر [35] فما هو سلوكه خلال إقامته بها . وهل كان ينوي الإستقرار بملالة ؟ ثم لماذا غادرها فجأة ؟

ـ إستقرار و سلوك ابن تومرت بملالة :

باستقراء المصادر التي بين أيدينا مرة أخرى . نستخلص أن سلوك ابن تومرت لم يتغير خلال إقامته بملالة . عما كان يقوم به خلال الشطر الأول من رحلة عودته .

فقد وجدناه حين حل بها مطرودا من بجاية . قد آواه وأجاره بنو ورياگل . الذين كانوا بها. فأقام بينهم يدرس العلم [36] وأقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان [37]. فعمر مجلسه [38] .

كما وجدناه يقوم بتغيير المنكر أيضا . كما كان يراه . حيث أهرق الخمر " فرمى فيه اليد عبيد سبع [39]. وقالوا له من أمرك بالحسبه . فقال الله ورسوله. ثم رجع إلى المسجد" [40] . بنفس سلوكه السابق . حيث أنه شديد الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن حين يواجه برد فعل . لا يبدي مقاومة بل ينسحب .

أما عن قضية استقرار ابن تومرت بملالة فيقول روجي لوتورنو " ونصرف إجمالا وكأنه يعتزم البقاء فيها لمدة طويلة " [41] كما أن رواية ابن خلدون . عن بناء بني ورياگل مسجدا له بها . يعني أنه كان ينوي الإقامة بملالة لمدة غير وجيزة يتفرغ فيها للتدريس .

ـ لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن :

إن أهم حدث وقع لابن تومرت بملالة . حسب المصادر القديمة . هو لقاؤه بعبد المومن بن علي

---

35 ـ المعجب . ص 266 .

36 ـ ابن خلدون الذي يضيف أن صاحب بجاية . طالبهم بتسليمه إليه " فأبوا لأنه كان لهم اعتزاز ومنعة " العبر. ص 467 . أما البيذق فيقول . أن بني عبد العزيز بنوا له مسجدا بها . أخبار المهدي .13 . لكن الراجح أن بني ورياگل كما ذكر ابن خلدون . هم الذين فعلوا ذلك . وأن آل العزيز هم الذين طردوه من بجاية .

37 ـ أخبار المهدي . ص 13 .

38 ـ نظم الجمان . ص 22 .

39 ـ لعله مالك تلك الخمرة .

40 ـ أخبار المهدي . ص 14 .

41 ـ حركة الموحدين . ص 24 .

الكومي . لكن لعل هذا الحدث ـ في رأينا ـ لم يكن بتلك الأهمية التي صوره بها المؤرخون القدامى . حين وقوعه . بل استمد تلك الأهمية لاحقا من الدور الذي لعبه عبد المؤمن فيما بعد في التمكين لحركة الموحدين ضد المرابطين .

فجل المؤرخين . باستثناء ابن القطان . يصورون ذلك اللقاء بشكل أسطوري وكأنه حدث نتيجة رغبة وعناية قوة عليا . ويقرنون هذا اللقاء بنبوءة ابن تومرت لعبد المؤمن بأنه سيصبح خليفة له [42] في قيادة الحركة الموحدية التي لم تكن قد تكونت بعد . كما سنرى . مما يعني ضمنا أن ابن تومرت . حسب تلك الروايات . قد كان ينوي الخروج على سلطة المرابطين.وهو ما يزال بملالة .

لكن حقيقة الأمر أن علاقة ابن تومرت بعبد المومن . على الأقل بملالة . لم تكن أكثر من علاقة الأستاذ بتلميذه . أي علاقة معرفية وليست سياسية . فقد روى ابن القطان . وهو مؤرخ بلاط موحدي . أن سبب لقائهما . هو أن طلبة رباط تلمسان بعد أن توفي أستاذهم عبد الواحد بن عمر التونسي . اتفقوا على أن يجلبوا مكانه ابن تومرت . فوجهوا إليه عبد المؤمن الذي كان واحدا منهم . ليقوم بتلك المهمة [43] . وهذا ما يؤكد الطابع المعرفي لنشاط ابن تومرت بملالة والذي لم يكن قد تحول بعد إلى سياسي .

ويخيل إلينا أن القول بمهدية ابن تومرت ونبوءته بخلافة عبد المؤمن له . وهما ما يزالان بملالة . إنما اختلق . بعد مدة غير قصيرة من لقائهما . وذلك من طرف مؤرخي البلاط الموحدي . خاصة البيذق منهم . من أجل تقوية مركز عبد المومن في الصراع الذي نشب حول خلافة ابن تومرت فيما بعد . كما سنرى .

لكن الاستثناء الوحيد الذي مثله ابن القطان . فيما يخص رواية الحدث . رغم أنه مؤرخ بلاط موحدي أيضا . إنما يجد تفسيره . في رأينا . في كون ابن القطان . عكس البيذق . قد كتب كتابه . بعد " الردة " عن عقيدة المهدية . التي وقعت في خلافة المأمون الموحدي . مما جعله يتحرر بعض الشيء من العامل المذهبي . الذي ارتبط بضغط الأحداث السياسية . التي رافقت نشأة الحركة الموحدية .

ـ لماذا رحل ابن تومرت فجأة عن ملالة ؟

---

42 ـ أنظر أخبار المهدي . ص 14. 15. 16. 17 . وروض القرطاس . ص173 . والحلل الموشية . ص 106. والكامل في التاريخ . م 10. ص 570 . وتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 397 .

43 ـ نظم الجمان . ص22 . 23 . و Historia Politica Del Emperio Almohade , T.1 pp. 24, 25, 26.

هكذا إذن كان مقام ابن تومرت بملالة متفرغا للمعرفة . إلى أن كان ذات يوم وصل فيه رجلان من جبال درن يريدان المشرق . كما سبق . ويدقق البيذق حين يقول أنهما قدما من تينمل . التي أصبحت فيما بعد قاعدة حركة الموحدين . وتحادث الرجلان مع ابن تومرت باللهجة الأمازيغية المصمودية . ذلك الحديث الذي لم تحتفظ لنا المصادر بمضمونه . غير أن البيذق يضيف أنه على إثر ذلك الحديث . قرر ابن تومرت مغادرة ملالة . في نفس المساء . متجها نحو المغرب [44] . فماذا عسى أن يكون ابن تومرت قد تلقى من أخبار من الرجلين جعلته يعجل بالرحيل ؟

روجي لوتورنو الذي تعرض للقضية . ولاحظ أن ابن تومرت حتى تلك الفترة لم تبد عليه أية مشاغل سياسية . والذي كان قد استقر بدون متاعب في ملالة . تساءل عما إذا كانت زيارة ذينك الرجلين . قد جعلت ابن تومرت يفكر في عمل سياسي ضد المرابطين في المغرب الأقصى ؟ ثم بعد هذا التساؤل قرر لوتورنو أن ابن تومرت . بدأ في اعتبار سلطته الدينية مساوية لسلطة المرابطين السياسية . مما دفعه للإصطدام . فيما بعد . بالأمير المرابطي علي بن يوسف نفسه بمراكش [45] .

لكن في غياب معرفتنا بمضمون الحديث الذي دار بين ابن تومرت والرجلين . وسبب رحيل ابن تومرت المفاجئ . يبقى ما ذهب إليه لوتورنو مجرد افتراض أو تأويل غير مبني على معطيات . فهل يمكن أن نتوصل إلى السبب الحقيقي لرحيل ابن تومرت عن ملالة ؟

يبدو لنا أن ابن القطان قد قدم لنا الجواب . عن غير قصد منه . وذلك في نص شارد وفي غاية الأهمية بالنسبة لهذه القضية . فحين كان يسرد نسب ابن تومرت . ذكر والده . واستطرد قائلا : " وعاش والده إلى أن لحقه ببجاية قافلا . **فأكد عليه في القفول شوقا إليه . فلزمه بره** . فقفل رضي الله تعالى عنه " [46] . ورغم أن ابن القطان ذكر أن والد ابن تومرت طلب منه العودة حين كان ببجاية . والبيذق يذكر أن الرجلان التقيا ابن تومرت بملالة . إلا أن هذا الاختلاف غير ذي أهمية كبرى . ذلك أن ملالة تقع على فرسخ من بجاية . كما ذكر ابن خلدون سابقا .

إذن ألا يمكن أن يكون هذان الرجلان . واللذان يحتمل أنهما كانا ذاهبان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . هما اللذان نقلا رغبة والد ابن تومرت إلى إبنه في القفول ؟ وأن هذا الخبر هو الذي جعل ابن تومرت يسرع عائدا إلى بلده شوقا إلى والده هو الآخر ؟ خاصة أننا نعلم أنه قضى في رحلته إلى المشرق . ما لا يقل عن عشر سنوات . مما ينفي أن يكون سبب رحيله المفاجئ عن ملالة . هو رغبته في الثورة على المرابطين .

---

44 ــ أخبار المهدي . ص 17 .

45 ــ حركة الموحدين . ص 27 . 28 . 29 . 30 .

46 ــ نظم الجمان . ص 35 .

قد يبدو الاعتراض التالي وجيها . والذي مفاده أن ابن تومرت لم يتجه مباشرة إلى قريته بقبيلة هرغة في جبال الأطلس الكبير (درن) . حيث والده . بل مر على كل من تلمسان وفاس ومكناس وسلا ومراكش . لكن تفسيرنا لذلك . يبدو في أن ابن تومرت . ربما وصله نعي والده وهو ما يزال في الطريق . لذلك أبطأ في العودة . فابن القطان لم يقطع بأنه أدرك والده على قيد الحياة بعد عودته . ثم إن المصادر الأخرى لا تورد ذكرا لوالده في الأحداث اللاحقة المتعلقة بابن تومرت والحركة الموحدية . في حين ذكرت أخته زينب وأخويه عيسى وعبد العزيز . كما سنرى . مما يبعث على الظن بأن والده قد توفي قبل وصول ابن تومرت إلى قريته و أهله .

ـ علاقة ابن تومرت بأصحابه الخمسة :

هناك اعتراض آخر . قد يبدو وجيها أيضا . مفاده أن ابن تومرت حين غادر ملالة كان بصحبته خمسة أشخاص آخرين . مما يوحي بأنه قد بدأ يكون نواة جماعة الموحدين .

لكن إذا دققنا في هويات هؤلاء الرجال الخمسة . وجدنا أولهم البيذق وهو الخادم الخاص لابن تومرت . ويبدو أنه رافقه في رحلته تلك ليقوم بخدمته . ذلك مايبرر وجوده معه . لأنه لم يكن من تلامذته بدليل ثقافته الهزيلة . التي عكسها أسلوب كتابه . الذي يقرب من اللهجة العامية. ولعل هذا التخريج ينسجم مع ما ذكره أحد الباحثين عن الانتماء الإجتماعي لابن تومرت . حيث قال أنه كان من عائلة " أرستقراطية " وأن أباه كان شيخا لقبيلته [47] . والثاني والثالث هما الحاج يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمن . هكذا ذكر البيذق الشخص الثالث [48] في موضعين من كتابه. باسمه الشخصي فقط . ولعل لهذا دلالة وهي أن هذا الشخص . لم يلعب دورا مهما في حركة الموحدين فيما بعد . لذلك لم تحتفظ ذاكرة البيذق باسمه الكامل . عندما حرر كتابه .

هؤلاء الثلاثة . نعرف من خلال كتاب " أخبار المهدي" أنهم كانوا برفقته منذ أن كان بمدينة تونس [49]. بل الأكيد أنهم رافقوه انطلاقا من مكة . ذلك أن اللقب الذي حمله كل من الثاني والثالث . يدل على أنهما حاجان مغربيان جمعتهما بابن تومرت طريق العودة إلى الوطن الواحد . فلما وصل الجميع إلى المغرب الأقصى . انفصل يوسف وعبد الرحمان عن ابن تومرت . بدليل أننا لا

47 ـ أنظر شارل أندري جوليان . تاريخ إفريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة . ط 2. تونس 1983ص 123 .

48 ـ أخبار المهدي . ص 12. 22 .

49 ـ نفسه . ص 12.

نعثر لهما على دور مهم . في نشأة وتطور الدعوة الموحدية . خاصة عدم ورود إسميهما في قائمة " العشـــرة " أو " أهل الجـمـاعـــة " الذين قيـل أنهم كـانوا أول من بايـع ابن تومـرت عندمـا أعلن إمامته [50] . رغم أن البيذق ذكر أنهمـا كانا ضمن جماعة متكونة من سبـعة نفر شاركوا بمدينة فاس في إحدى عمليات تغيير المنكر . حسب ابن تومرت . بكسر آلات الموسيقى بدكاكين المدينة[51]. إلا أننا لا نجـد لهمـا ذكرا بعـد ذلك في الأحداث اللا حـقة . خـاصة حـينما بدأ ابن تومـرت يصطدم بالسلطة المرابطية .

أما الـرابع فهـو عبـد الـواحد الشـرقي . وهوأحد تلامـذة ابن تومرت . و قـد انضم إلى حلقـته الدراسية . في المسجد الذي بناه بنو ورياگل له بملالة ليدرس به العلم [52] والخامس هو عبد المؤمن بن علي الذي لقـيه بملالة . كمـا سبق . وبما أن عبـد المؤمن كان يهتـم بعلوم الاعتقـادات أي أصول الدين . فقد وجد ضـالته في ابن تومرت فرافقه ليـأخذ عنه.. ومرافقة الطالب لشيـخه للأخذ عنه . كانت ظاهرة عادية خلال " العصر الوسيط " الإسلامي [53] .

لكن علينا أن لا نتعجل الأمور بإصدار حكم في القـضية . فلازال أمامنا الشطر الثاني من رحلة ابن تومـرت . علينا أن نتـعرف علـى سلوكه خـلالهـا . لعله يقدم لنـا الجواب عن نقطة تحـول موقف ابن تومرت من سلطة المرابطين .

أ ـ3ـ الشطر الثاني من الرحلة :

باسـتقـراء المصـادر وقراءتهـا قـراءة نقدية . يمـكن أن نستنتج أن سـلوك ابن تومرت . خـلال الشطر الثاني من رحـلة عودته إلى المغرب . لم يتـغير عن سـابقه . حتى بعـد أن طرد من مراكـش .

---

50 أنظر القائمة في " المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب " . ص30 . 31. 32 .

51 ـ أخبار المهدي . ص 23.

52 ـ يقول البيـذق " وهذا المسجد مبني عند دار يرزيجن بن عمـر المكنا أبا محمد . الذي سمـاه المعصوم رضي الله عنه. عبد الواحد ... " ص 14. ولعل تغيير الإسم هذا حدث لاحقا . بعد أن أعلن ابن تومرت إمامته . كما فعل مع أبي حفص عمر الهنتاتي الذي كان يدعى فاسكات بن يحيى . ص31. وكأن هذا العمل استعادة واعية من ابن تومرت لسيـــرة الرسول محمد ﷺ الذي غير أسماء بعض صحابته .

53 ـ ذلك ما حـدث مثلا لابن خلدون الذي لقي أسـتاذه عمـر بن إبراهيم الأبلي بتونس ولحق به للأخـذ عنه بفاس. أنظر محمد عابد الجابري . فكر ابن خلدون . العصبية والدولة . ط2. الدار البيضاء 1982 ص 57 .

وذلك رغم كل المبالغات التي أوردتها بعض المصادر القديمة [54] .

لذلك ، لن نقوم باقتطاف نصوص للتدليل على ذلك ، كما فعلنا مع الشطر الأول من الرحلة ، بل سنكتفي بالإشارة إلى مظانها فقط .

وهكذا وجدنا ابن تومرت يهتم بالجانب المعرفي ، حيث أقام بتلمسان يدرس العلم للطلبة ، مثل ما فعل في كل من وجدة وعين الرقي وفاس ومكناس وسلا [55] .

كما قام بتصحيح الأحكام الشرعية ، مثال ذلك ما قام به بأگرسيف ، حين علم أن رجلا صلب وهو حي [56] .

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما كان يراه ، فلم يتوقف عن ممارسته ، في كل من تلمسان وأگرسيف و صاء و دشر قلال و فاس و مكناس و سلا ، حتى أنه تعرض بمكناس ، للضرب من أجل سلوكه هذا ، يقول ابن خلدون " ونهى بها عن بعض المناكر فأوقع به الشرار من الغوغاء وأوجعوه ضربا " [57] .

ونفس السلوك السابق أيضا سلكه ابن تومرت ، حين كان يواجه برد فعل عند ممارسته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكان يؤثر السلامة على التحدي ، ذلك أنه لما سمع اللهو وصراخ الرجال والنساء بدشر قلال ، أمر البيذق والحاج الدكالي أن يأمرا سكانه بالمعروف وينهيانهم عن المنكر ، ولما أجابهما أهل الدشر قائلين " معروفنا عندنا ومعروفكم عندكم سيرا وإلا نمثل بكما وبفقيهكما " [58] ما كان من ابن تومرت إلا أن قال لأصحابه " سيروا بنا لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم " [59]

ـ عمارة المساجد والتعامل مع السلطة المرابطية :

لكن الشيئ الجديد الذي طرأ على سلوك ابن تومرت ، خلال هذا الشطر من الرحلة ، هو أولا : إشرافه على بناء وعمارة بعض المساجد ، في كل من الأخماس وكساسان ومرور وتينملت بني

54 ـ مثال ذلك صاحب روض القرطاس الذي يقول أنه " أخذ يستنقص المرابطين [...] ملوك المغرب ويدعو إلى خلع طاعتهم " . ص 173و هذا قبل أن يصل إلى مدينة فاس .

55 ـ المعجب ، 269 وأخبار المهدي ، ص20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 25 ، 26 .

56 ـ أخبار المهدي ، ص 21 .

57 ـ نفس المصدر ، ص20 ، 21 ، 22 ، 23 ، والعبر ، م 6 ، ق1 ، ص 467 ، 468 .

58 ـ أخبار المهدي ، ص 22 .

59 ـ نفس المصدر و الصفحة .

بزناسن . مما يدل على أن نشاطه لم يصبح سياسيا بعد [60] . ثانيا : اتصاله بممثلي السلطة التنفيذية والقضائية المرابطية . ونزوله عندهم في بعض الأحيان . وتوسطه للناس عندهم في أحيان أخرى . ففي وجدة نزل عند واليها ابن سامغين وقاضيها محمد بن فارة . وتوسط لسكان أكرسيف لدى الوالي يحيى بن فانو في غرامة كانت عليهم فرفعت . وفي سلا كان يأخذ العلم عنه واليها المرابطي ابن قيلو وعدد من الأعيان والقضاة [61] . مما يدل على أنه كان يعترف بشرعية السلطة المرابطية . حتى وصوله إلى مدينة سلا . وأنه لم يكن قد فكر في خلع طاعتهم بعد . فهل جد جديد على موقف ابن تومرت بمراكش ؟

ب ـ ابن تومرت بمراكش :

المصادر تقول أن ابن تومرت قد شرع في العمل من أجل إسقاط السلطة المرابطية . منذ أن وصل إلى مراكش . وإن كانت بعضها تجعله . يؤخر إعلان إمامته ودعواه المهدية . إلا أنها تتحدث عنه في مراكش بكثير من الخلط في ترتيب الأحداث .

ويظهر أن سبب ذلك هو أن جل تلك المصادر . أخذت عن أولى سابقة لها . كتبت من وجهة نظر موحدية وعمدت إلى تشويش الأحداث . كما حدث لابن أبي زرع . الذي كتب في العصر المريني . والذي يقول عن الموضوع " فارتحل إلى مراكش دار مملكة المرابطين . لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها . فسار إليها إلى أن وصلها [...] ومعه عبد المومن بن علي في خدمته مشيعا لإمامته" [62] .

ونفس الخلط وقع للباحثين المحدثين . فقد ذكر لوتورنو . على سبيل المثال . أن ابن تومرت حين دخل مراكش . اصطدم متعمدا برجال السلطة المرابطية وبالأمير علي بن يوسف نفسه [63]. مما يعني أنه عزم على الخروج عن سلطة المرابطين منذ أن وصل إلى مراكش . فهل حدث ذلك حقيقة ؟

لعل أهم شئ سجلناه على سلوك ابن تومرت . حتى ذلك الحين . هو إصراره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لذلك نتوقع أن يستمر في ممارسة ذلك السلوك بمراكش .

لكن ليس بالجرأة التي يصوره بها بعض المؤرخين . كالبيذق الذي يقول أنه حين دخل مراكش

---

60 ـ نفس المصدر . ص 18، 19 .

61ـ أخبار المهدي . ص 21 . 22 . 23 .

62 ـ روض القرطاس . ص 173، 174.

63 ـ حركة الموحدين . ص 30، 31.

والتقى بأمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بالمسجد قال له :" الخلافة [64] لله وليست لك يا علي بن يوسف" [65] . وقد تكون رواية صاحب الحلل أقرب لأن تقبل . ذلك أنها تقول أن ابن تومرت قال للأمير المرابطي " غير المنكر ببلادك لأنك أنت المسؤول عن رعيتك" [66]. وهي رواية تنسجم مع ما عرفناه عن ابن تومرت من أنه كان يتحاشى الإصطدام بأناس عاديين . ليسوا ذوي سلطة . فما بالك بممثل أكبر سلطة سياسية آنذاك في الغرب الإسلامي ؟

ولعل أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر هذا . قد ترتب عنه أمران : أولهما " أن حسنت ظنون الناس فيه " كما يقول ابن الأثير [67] . بمعنى أنه بدأ يكسب عطف الجماهير . وثانيهما أنه أثار انتباه السلطات الرسمية إليه . لأنه كان يمارس سلوكه . كما يقول ابن أبي زرع " من غير إذن من أمير المسلمين ولا مؤامرة من أحد من القضاة والوزراء" [68] .

ب ـ1ـ موقف أمير وفقهاء البلاط المرابطي من ابن تومرت :

يبدو أن الأمير عليا بن يوسف أراد أن يثني ابن تومرت عن سلوكه/نشاطه . حين أحضره وسأله . كما يقول المؤلف المجهول " إن كانت لك حاجة فتقضى ؟ فقال ليس لي حاجة وما قصدي إلا تغيير المنكرات " [69] . ولعل هذا موقف عاد من فقيه يرى أن العلم والعمل شيئان متلازمان . فما كان من الأمير المرابطي إلا أن دعى لمناظرة بين فقهاء بلاطه وابن تومرت [70].

ـ مناظرة مراكش :

تجمع المصادر على أن ابن تومرت قد تفوق على فقهاء البلاط المرابطي في تلك المناظرة . وتعزو ذلك إلى أنه كان ملما بعلوم الاعتقادات أي أصول الدين . بينما الذين حضروا المناظرة منهم

64ـ سبق أن عرفنا أن المرابطين اتخذوا لقب " أمير المسلمين وناصر الدين " ولم يتلقبوا بالخليفة . مما يدل على أن مثل هذه الأخطاء التي ارتكبها البيذق تؤكد أن هذه الروايات مبالغ فيها . وأنها كتبت فيما بعد لتمجيد ابن تومرت بعد أن نجحت الحركة الموحدية . وهي تؤكد أيضا تحرير البيذق لكتابه بعد قيام الخلافة الموحدية .

65 ـ أخبار المهدي . ص 27 .

66 ـ ص 100.

67 ـ الكامل في التاريخ . م10 . ص 570 .

68 ـ روض القرطاس . ص174. وهنا تكمن خطورة الخلاف حول تصور ممارسة مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جانب السلطة من جهة ومن جانب ممارسيه من جهة أخرى .

69 ـ الحلل . ص100.

70 ـ روض القرطاس . ص 174. 175والمعجب . ص271 . 272 . والعبر . ص 468 .

كانوا أصحاب حديث وفروع . يقول صاحب روض القرطاس :" كان المهدي أوحد عصره في علم الكلام وعلوم الاعتقاد حافظا للحديث والفقه [...] وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء أصحاب حديث وفروع ليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل " [71] . ويقول صاحب المعجب " وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية وكان أهل المغرب ــ على ما ذكرنا ــ ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه " [72] .

لكن هذا الحكم الأخير غير صحيح . في رأينا . لأن المغرب في عصر المرابطين لم يكن خلوا من تدارس علم أصول الدين . والمرابطون قربوا إليهم " مثقفين " نبغوا في هذا الفرع من المعرفة . مثل أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي الذي كان إماما في أصول الدين [73] . كما أن صاحب المعجب نفسه . يعود فيقول عن مالك بن وهيب . الذي كان من فقهاء البلاط المرابطي . و شارك في تلك المناظرة . أنه " كان قد شارك في جميع العلوم [...] ولمالك بن وهيب هذا تحقيق بكثير من أجزاء الفلسفة " [74] . إذن فهو ملم ليس بعلم الأصول فحسب بل بالفلسفة أيضا .

لكن الذي يهمنا هنا أكثر هو ما تمخض عن تلك المناظرة . ذلك أن أمير المسلمين عليا بن يوسف ــ بإيعاز من بعض فقهاء بلاطه ــ قد هم بسجن [75] ابن تومرت . لولا أن توسط له أميران مرابطيان . هما ينتان بن عمر وسير بن وريبل . فأمر أمير المسلمين بطرده من مراكش [76]. ويبالغ البيذق حين يقول أن الفقيه مالكا بن وهيب نصح أمير المسلمين قائلا له :" ثقفه يا أمير المسلمين. لأن هذا هو صاحب الدرهم المركن . إجعل عليه كبلا . كي لا تسمع له طبلا . لهذه صفة صاحب الدرهم المركن " [77]. لكن واضح أن هذه الرواية اختلقت فيما بعد . في خلافة عبد المؤمن بن علي . الذي ضرب فعلا دراهم مربعة الشكل . أما ابن تومرت فلم يثبت أنه ضرب دراهم قط .[78] .

---

71 ــ ص 173. 174.

72ــ ص 270.

73ــ راجع مقدمة محقق كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة . ص 20. 21.

74ــ ص 271. 272 .

75ــ ذلك ما يقوله البيذق . ص27. 28. وابن خلكان في وفيات الأعيان . نقلا عن مصححي المعجب . هامش 1. ص 272. 273 . بينما يقول كل من المراكشي وابن الأثير والنويري . أنه هم بقتله . وقد أخذت برواية البيذق لأنه شاهد عيان . أنظر المعجب . ص 272 والكامل . م10. ص571 وتاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط. ص 398.

76ــ أخبار المهدي . ص 28 .

77ــ المصدر السابق . ص 28.27.

78 ـ عن الدراهم الموحدية . أنظر هوبكنز . النظم الإسلامية في المغرب الإسلامي في القرون الوسطى . تعريب أمين توفيق الطيبي . ليبيا / تونس 1980 . ص 173 و Alfred. BEL , Contribution a l'étude des dirhems de l'époque almohade , HESPERIS , 1933 , T. 16 , p. 8 .

غير أن موقف بعض فقهاء البلاط المرابطي هذا ، هو الذي لا يجد له تفسيرا . فهل رأوا في ابن تومرت الفقيه الأصولي ، الذي لا يفرق بين النظر والعمل ، خطرا عليهم لأن ما دعا إلى تغييره كانوا هم سكوت عنه ؟

لقد وجه ابن تومرت إليهم هذه التهمة صراحة ، فيما بعد ، حيث قال في إحدى رسائله إلى أصحابه ما يلي :" ... غروهم(أي الفقهاء غروا المرابطين) ولبسوا عليهم ، ليتحيلوا بذلك على ما بأيديهم ، ليصونوا بذلك دنياهم ، فغرتهم الدنيا حتى جحدوا ما استيقنت أنفسهم من الحق ، لينالوا بذلك الحظ العاجل ويجمعوا به الحرام ... " [79] .

أم أنهم رأوا في دعوة ابن تومرت إلى تعميم نشر الأشعرية بين العامة ، ومن ثم الدعوة إلى إعمال العقل في العقيدة ، قد تؤدي إلى التفرقة ، في وقت كانت فيه البلاد أحوج ما تكون إلى الوحدة وتماسك الجبهة الداخلية ، من أجل صد الخطر الخارجي المتمثل في هجمات الممالك المسيحية على الأندلس الإسلامية ؟

قد يكون ذلك صحيحا ، خاصة أننا نعرف أن الفترة الزمنية التي وصل فيها ابن تومرت إلى مراكش ، كانت حرجة على المرابطين ، سواء على الجبهة الخارجية أو الداخلية ، حيث عرفت مدا مسيحيا في الأندلس المرابطية ، بالإضافة إلى وقوع هبات إجتماعية داخلية ، فعلى سبيل المثال سقطت سرقسطة في يد ألفونسو المحارب الأرجوني سنة 512 هـ / 1118م ، وانهزم المرابطون هزيمة " منكرة " في معركة كتندة بالأندلس أيضا سنة 514 هـ / 1120م ، كما قامت انتفاضة إجتماعية في قرطبة [80] ضد المرابطين سنة 515 هـ / 1121م .

على أي ليست لدينا معطيات تمكننا من تقديم أجوبة يقينية قطعية على الأسئلة السابقة ، لكن الثابت هو أن موقف بعض هؤلاء الفقهاء ، قد جعل ابن تومرت يحقد عليهم ويتخذ منهم موقفا أكثر عداءا من موقفه من المرابطين أنفسهم .يتجلى ذلك الموقف في الرسالة السابقة حيث يقول " ... فهذه الطوائف الثلاثة ، الذين شمروا وتجرأوا لهدم الدين وإماتته ، أعني أهل التجسيم الملثمين (= يقصد المرابطين) والبرابر المفسدين (لا ندري من يقصد) والمكارين الملبسين من الطلبة (= يقصد الفقهاء) وهم شر الثلاثة ، تسموا باسم العلم ونسبوا أنفسهم

---

79 ــ أحمد عزاوي ، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية ، دراسة وتحقيق ، رسالة دبلوم الدراسات العليا ، مرقونة ، قسم 2 ، ص 5 .

80ــ راجع محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط 1، القاهرة 1964، قسم 1 ص 84، 101، 103 .

إلى السنة وتزينوا بالفقه والدين ... " [81] ففقهاء البلاط في رأيه أكثر شرا من الطائفتين الأخريين .

ثم إنه يكاد يقول أن خروجه على سلطة المرابطين . فيما بعد . إنما كان السبب فيه . هو موقف هؤلاء الفقهاء منه . وذلك في معرض رده على التهم التي وجهوها إليه حين يقول " ... فجميع ما قالوه تحريف وتشنيع [...] فمعاذ الله أن نكفر مسلما كما قالوه [...] أو نخرج عن إجماع المسلمين أو نخالف أئمة [82] المسلمين" [83] .

ـ مناظرة أغمات

على كل خرج ابن تومرت مطرودا من مراكش في نفس اليوم [84] . فقضى ثلاثة أيام بأغمات وايلان . ثم انتقل إلى أغمات وريكة . فأقام بها يدرس الطلبة . إلى أن وقعت في يوم من الأيام مناظرة بينه وبين أحد فقهاء أغمات يدعى عبد الحق بن إبراهيم .

ولعل ما دار في تلك المناظرة لم يبق محصورا في حلقة الدرس بالمسجد . بل تسرب إلى عموم سكان أغمات " وقامت أغمات فريقين : مؤمن وكافر " على حد تعبير البيذق [85]. ولعل تلك الفرقة التي بدأ ابن تومرت يحدثها بين المغاربة مست العقيدة . فابن خلدون يقول عنه " كان

---

81 ـ أحمد عزاوي . المرجع السابق . ص 5 .

82 ـ تحتمل هذه اللفظة معنيان : إما علماء الدين أو الحكام . وإن كان الثاني فالمقصود هو أمير المسلمين المرابطي.

83 ـ ابن القطان . نظم الجمان . ص11 . هذا النص جزء من الرسالة السابقة لابن تومرت . وردت في نظم الجمان. لكن الدكتور محمود علي مكي محقق الكتاب لم ينتبه إليها . فجعلها فقرة من الكتاب.تحت عنوان جانبي هو : " مآخذ المرابطين على الموحدين " مع أنه لاحظ أن الفقرة التي قبلها مباشرة مضطربة . راجع ص11. هامش 4.

كما أ ن الأستاذ أحمد عزاوي محقق الرسالةالسابقة . والذي عاد إلى نظم الجمان بالتأكيد . لم ينتبه إلى أن هذه الفقرة قطعة من تلك الرسالة .

لكننا على يقين من أن هذه القطعة . والتي تتكون من حوالي 26 سطرا . وتمتد على الصفحات 10و11و 12من نظم الجمان . هي جزء من الرسالة التي نشرها الأستاذ عزاوي . ذلك أن الأسطر الثلاثة الأولى من قطعة النظم وردت هي نفسها في التي حققها الأستاذ عزاوي (ص 5) وسقطت الأسطر 23 الأخرى بعد عبارة " ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها " (ص 5) . وقد لاحظ الأستاذ عزاوي أن في القطعة خللا ما . فسجل في الهامش ما يلي : " يبدو أن هذه الجملة تنقصها كلمة " (ص 5) . لكن الحقيقة أنه ينقصها 23 سطرا مما وصلنا في نظم الجمان فقط . بل ربما تنقصها أسطر أخرى . ذلك أن محقق نظم الجمان . عندما انتهى السطر 26 من قطعة النظم أثبت في الهامش ما يلي " ينقطع النص هنا وقد سقطت من هذا الموضع ورقة أو أكثر " ص 12.

84 ـ العبر . مج 6. قسم1. ص 468.

85 ـ أخبار المهدي . ص 29. 30.

ينتحل مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم (= الفقهاء) جمودهم على إمراره كما جاء " [86] وفي رواية عبد الواحد المراكشي أن ابن تومرت " نفاه أمير المسلمين لإفساده عقول الناس " [87] . ولعل نفس السبب أيضا هو الذي جعل والي أغمات المرابطي يطرده من المدينة " وغربه إلى سوس الأقصى " [88] فاتجه نحو قرية إيگلوان .

في تلك الأثناء يبدو أن خبر الأحداث التي تسبب فيها ابن تومرت بأغمات . قد وصل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بمراكش . فبعث في طلبه كتيبة من سلاح الفرسان . أدركنه عند دخوله القرية . وكانت تنوي إلقاء القبض عليه وإعادته إلى مراكش [89] . فما الذي حدث هذه المرة ؟

ج ـ حادثة إيگلوان :

لعل ما حدث في إيگلوان يشكل انعطافة خطيرة في سلوك ابن تومرت . وفي موقفه من شرعية سلطة المرابطين . فحتى تلك الآونة . كنا نعرف ابن تومرت . فقيها مصرا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستوى العملي . وأصوليا داعيا إلى الإيمان بالأشعرية على المستوى العقدي النظري . وبين هذا وذاك كان داهية يعرف كيف يتخلص من المآزق التي يقع فيها . حين يصطدم بأفراد ذوي نفوذ أو بسلطة سياسية . فما الذي حدث في إيگلوان مرة أخرى ؟

حين وصلت كتيبة فرسان علي بن يوسف تطلبه . قام إسماعيل بن سلالي إيگيگ (الهزرجي) [90] . أحد الطلبة الذين انظموا إلى حلقة ابن تومرت الدراسية بأغمات . ودعا مائتين من رجال قبيلته هزرجة لحماية ابن تومرت . فتمكنوا من الخروج به من إيگلوان إلى إيسمناي . في تراب

86ـ المصدر السابق . ص468. وراجع أيضا نص صاحب المعجب السابق في نفس الموضوع .

87 ـ المعجب . ص 342 .

88 ـ الحلل الموشية .101 . يسكت البيذق عن عملية الطرد حتى لا يحط من قدر إمامه . حيث يقول . بعد أن ذكر مناظرة أغمات " وانصرف عنها بالسلامة " أخبار المهدي . ص 30 .

89ـ العبر . ص 469 .

90ـ أخبار المهدي . ص 30 . وقد لعب إسماعيل دورا هاما . فيما بعد . في التمكين للدعوة الموحدية .

هزرجة . دون أن تتمكن الفرقة العسكرية المرابطية من إلقاء القبض عليه [91] .

إذن لأول مرة . خلال رحلة عودة ابن تومرت إلى قريته . نجده مطلوبا بصورة جدية . من طرف سلطة سياسية عسكرية قوية . ولأول مرة أيضا نجده يتوفر على حماية من تلك السلطة . فماذا كان موقف ابن تومرت ؟

ج ـ1ـ تغير موقف ابن تومرت من المرابطين :

يقول ابن القطان . نقلا عن ابن الراعي . أن ابن تومرت " خلع مبايعة علي بن يوسف . عن أعناق تابعيه وأصحابه . وأعلن الجميع بخلعه . وكان بعضهم يبرح به في المساجد " [92] و رغم أنه يقول أن ذلك حدث . بعد مناظرة أغمات . إلا أن الراجح أن خلع ابن تومرت لطاعة علي . لم تحدث إلا بعد واقعة إيگلوان . وإلا لما اكتفى والي أغمات بطرد ابن تومرت من المدينة . كما سبق .

ويحدثنا البيذق الذي رافق ابن تومرت . أنه مر على ستة مواقع أو قرى صغيرة . ثم بدأ بعد ذلك " يعظ " القبائل . أي يدعوهم للخروج على سلطة المرابطين . فمنها من استجابت له ومنها من لم تفعل . إلى أن وصل إلى قريته إيگيلي أو إيجيليز بقبيلة هرغة " فنزل داره وذلك في عام أربعة عشر وخمسمائة " [93] والملاحظ أن البيذق . لأول مرة في كتابه . يعطينا تاريخا لحدث من الأحداث . وكأنه منذ تلك اللحظة بدأ يشعر أنه يعايش رجالا يصنعون التاريخ . كما أنه يدل على أن تطورا تاريخيا خطيرا حدث في موقف ابن تومرت . نقش زمن وقوعه في ذاكرة البيذق .

ج ـ2ـ زمن وظروف تغير موقف ابن تومرت :

---

91 ـ ابن خلدون . ص 468 وأخبار المهدي . ص31. يقول البيذق " فلما وصلها (= إيگلوان) وصل رسول علي بن يوسف أن يؤتى به . فقال له إسماعيل إيگيك : أقم يا فقيه هنا في موضعك . حتى أصل إليك . فسار ثم أقبل إلينا بمئتي درقة من بني عمه وحملنا الإمام معنا إلى إيسمناي متاع هزرجة " ص 31. ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من هذا النص . هو أن ابن تومرت . حتى تلك اللحظة . لم يكن قد خلع سلطة المرابطين ولا أعلن إمامته ولا مهديته . بدليل أن تلميذه إسماعيل يناديه " يا فقيه " فقط . ومع أن البيذق ينعته بالإمام . في نفس النص . إلا أنه من السهل التمييز بين ما وقع تاريخيا بالفعل وهو ما نقله البيذق بأسلوب مباشر . وبين ما أراد إيصاله إلينا . ولم يحدث بالفعل . وهوما كتبه بأسلوب غير مباشر . ولكي نحل هذه الإزدواجية في نعت ابن تومرت داخل نفس النص يكفي أن نتذكر أن البيذق حرر كتابه بعد تلك الأحداث بوقت طويل نسبيا . بعد أن شاع تلقيب ابن تومرت بالإمام .

92 ـ نظم الجمان . ص 29 .

93ـ أخبار المهدي . ص 31. 32.

إذن يمكن اعتبار سنة 514 هـ / 1120م نقطة التحول في موقف ابن تومرت من شرعية السلطة المرابطية . فبالإضافة إلى رغبته في " إصلاح العادات القديمة المخالفة للشريعة "[94] ورغبته في نشر عقيدة الأشعرية . والتي اصطدمت برفض السلطات المرابطية وفقهائها . لا بد أن ابن تومرت عند دخوله المجال الجغرافي السياسي للأميرية المرابطية قد عاين واقعا . جعله ينظر بعدم الرضى إلى سلطة المرابطين .

فعن المظالم أو الشطط في استعمال السلطة من طرف بعض ممثليها المحليين . عرفنا أنه شخصيا . توسط من أجل رفع غرامة في نعامة عن جميع سكان أكرسيف . أما عن الأوضاع الأمنية . فقد سرقت منه دابته . التي تبرعت بها عليه والدة أحد تلامذته ليحمل عليها كتبه . وقد حدثت السرقة عند خروجه من سلا . والنظام الضرائبي أيضا كان يبعث على عدم الرضى . فحين أراد ابن تومرت عبور نهر أم الربيع طلب منه أداء ضريبة العبور [95] . أما عن الأوضاع السياسية والإجتماعية . فقد تزامن دخول ابن تومرت . مثلا إلى مدينة فاس . مع قيام ثورة بغمارة. تم قمعها وعلقت رؤوس ثلاثة من زعمائها على أحد أبواب المدينة [96] . بالإضافة إلى أحداث الأندلس المزعجة وأصداء الفشل الذي كان المرابطون قد بدأوا يواجهونه في صراعهم مع الإمارات المسيحية .

كل تلك العوامل . انضافت إلى خوف ابن تومرت من بطش السلطات المرابطية به . بعد أن أصبح مطلوبا من قبلها . فجعلته يعلن خروجه على سلطتهم . فما نوع هذا الخروج ؟

3 ـ ابن تومرت والإمامة المهدية

بعض المصادر القديمة تقرن خروج ابن تومرت على سلطة المرابطين . بادعائه المهدية أو المهدوية . فابن الأثير وابن خلدون وصاحب الحلل الموشية . يجعلون ذلك سنة 514 هـ / 1120م وابن أبي زرع يجعلها في سنة 515 هـ / 1121م بينما يضطرب ابن عذاري بين سنتي 516 / 1122م و 518 هـ / 1124م [97] . ونفس المنحى ينحوه الأستاذ هويسي ميراندا . الذي عرف بتدقيقه في مثل هذه القضايا . فجعلها سنة 514 هـ / 1120م والذي يعد كتابه Hitoria politca del emperio almohade أهم كتاب إلى اليوم . تناول هذا الموضوع بمنهج وصفي توثيقي .

94 ـ Historia politica ,T . 1, p . 58

95 ـ أخبار المهدي . ص 26 .

96 ـ نفسه . ص 24.

97 ـ الكامل . م 10. ص 569 والحلل . ص 99 والعبر . م 6. ق1. ص387 وروض القرطاس . ص 176. 262 و البيان المغرب . ج 4 . ص 68.

فميراندا يرى أن ابن تومرت بمجرد ما غادر أغمات . انتحل نظرية المهدية التي مكنته من الإنتصار في صراعه مع المرابطين . كما أنه على غير عادته . لم يسجل نقطة التحول في موقف ابن تومرت من المرابطين وظروفها . أي حادثة إيكلوان [98] .

لكن يبدو لنا أن ابن تومرت . إنما خرج في البداية على سلطة المرابطين كفقيه ثائر فقط . ودعي بالإمام . ثم حين أعلن مهديته . فيما بعد . لقب بالمهدي يقول ابن خلدون " ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام" [99] . فما هي الظروف التي جعلت ابن تومرت يدعي المهدية ؟ ومتى حدث ذلك ؟

أ ـ أسباب إعلان ابن تومرت المهدية :

لما لم ينجح الأمير علي بن يوسف في القبض على ابن تومرت . حاول اغتياله . لأول مرة . بواسطة عامله على السوس . حين كان بين عشيرته في قبيلة هرغة . لكنه لم يفلح في ذلك[100] بعد ذلك بدأ في إرسال قواته لمحاربة ابن تومرت في محاولة للقضاء على دعوته التي بدأت تنتشر بين القبائل الجبلية المجاورة لهرغة . فكانت الحملات الأولى التي وجهت للمنطقة التي استجابت لدعوة ابن تومرت . والتي ذكرها البيذق كلها بمبادرة مرابطية [101] .

ولما فشلت تلك الحملات الأولى . يبدو أن المرابطين حاولوا أن يتفاوضوا مع ابن تومرت ليثنوه عن المضي بعيدا في ثورته . ونرجح أنهم كاتبوه فأجابهم . ويظهر من الرسالة الأولى التي بعثها لهم أنه فقيه ثائر يصر على الإصلاح فقط . ولم يكن قد أعلن مهديته بعد . فمما جاء في تلك الرسالة " ... وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة . فإن أديتموها كنتم في عافية وإلا فسنستعين بالله على قتلكم حتى نمحو آثاركم ... " [102] . ولما لم تصل تلك المفاوضات بين

---

98 ـ وفي مكان آخر يقول أن ذلك تم في سنة 515 هـ . أنظر Historia politica ,T . 1, p . 58

99 ـ المصدر السابق . ص 470 .

100ـ ابن خلدون . المصدر السابق . ص 469 .

101 ـ أخبار المهدي . ص 35. 36 و 63 istoria politica ,T . 1, p

102 ـ أحمد عزاوي . ق 2 . ص2 . وصلتنا رسائل أخرى . تكشف عن تطور موقف ابن تومرت . ورغم أنها غير مؤرخة جميعها . فلا شك أنها لاحقة لهذه الرسالة . نستنتج ذلك من بعض ما جاء فيها . منها رسالة إلى أصحابه يحثهم فيها على محاربة المرابطين . وثانية يدعي فيها النسب القرشي . ولا يسمي فيها أتباعه الموحدين بل المسلمين فقط . ثم ثالثة يبدو أنها لاحقة لسابقتها يدعو فيها أصحابه بالموحدين . نشر هذه الرسائل ليفي بروفنسال في بداية كتاب أخبار المهدي من ص 2 إلى ص 13. طبعة باريس 1928 .

الطرفين إلى نتيجة . أستئنفت الحملات المرابطية بشكل أكثر عنفا وقوة . في محاولة لسحق تمرد ابن تومرت وجماعته . خلال سنوات 515 / 1121م و 516 / 1122م و 517 هـ/ 1123م [103] .

كما ضرب المرابطون حصارا عسكريا واقتصاديا . على المناطق الجبلية المحيطة بإيجيليز . لمنع قوات ابن تومرت الفتية من توسيع دائرة نفوذها . وذلك ببناء مجموعة من الحصون في سفوح تلك الجبال [104] ويصور ابن الأثير إحكام المرالطين لذلك الحصار الإقتصادي على جماعة الموحدين حيث يقول " منعوا عنهم الميرة . فقلت عند أصحاب المهدي الأقوات . حتى صار الخبز معدوما عندهم " ويبدو أن الحصار ضيق الخناق كثيرا على ابن تومرت وجماعته . يضيف ابن الأثير " وكان (= ابن تومرت) يطبخ لهم كل يوم من الحساء ما يكفيهم . فكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها . فما علق عليها قنع به ذلك اليوم " [105] .

يبدو أن الخطر العسكري الذي واجهته جماعة ابن تومرت . خلال تلك السنوات الأولى من خروجها على سلطة المرابطين . وذلك الحصار الإقتصادي الشديد . قد جعلا ابن تومرت يفكر في التخلي عن ثورته . حتى أنه " قال لأصحابه إن هؤلاء (= المرابطون) يريدونني . وأخاف عليكم منهم فالرأي أن أخرج إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم " [106]. ما يعني أنه حتى تلك اللحظة . لم يكن أكثر من فقيه منشق على سلطة المرابطين . من داخل نظرية السلطة السياسية السنية . فلو كان قد ادعى المهدية لما أمكنه أن يقترح على أصحابه التراجع عن الثورة . لأن ذلك يعني قطعا الطعن في مهديته لأن " المهدي " في نظرية السلطة السياسية الشيعية " مؤيد ومعصوم " ولا بد أنه منتصر على خصومه .

ولعل ابن تومرت بعد أن اشتد الحصار عليه وعلى الجماعة القليلة العدد من تلاميذه . والقبائل الجبلية التي استجابت لدعوته إلى الثورة على المرابطين . قد بدأ يفكر في طريقة يستطيع بها :

أولا : أن يضمن استمرار ولاء القبائل التي تبعته حتى ذلك الحين .

ثانيا : إضفاء مزيد من الشرعية على حركته .

خاصة أن المرابطين . بموازاة مع تلك الحرب العسكرية وذلك الحصار الإقتصادي . قد شنوا

---

103 ـ Historia politia , T1 , pp 65 , 66 , 67 , 68 .

104 ـ الحلل الموشية . ص 113 .

105 ـ الكامل في التاريخ . م10. ص 573 . 574 .

106 ـ نفس المصدر . ص 272 والنويري . ص 398 . 399 .

على ابن تومرت وجماعته حربا إعلامية دعائية سياسية . حيث اتهموهم بكونهم خوارج [107] . ولعل تلك الحرب الإعلامية هي التي دفعت ابن تومرت . إلى تسمية أتباعه بالموحدين . لدفع تهمة الخارجية عنهم . مما يدل على أن أفكار ابن تومرت كانت تتطور حسب الوقائع والأحداث .

ولم تكن تلك الطريقة التي فكر فيها ابن تومرت غير دعواه المهدية . لكن كيف ومتى تم ذلك ؟

ب ــ ابن تومرت و المهدية :

كما سبق . فإن المصادر القديمة والمراجع الحديثة تقرن خروج ابن تومرت على المرابطين . بدعواه المهدية . ومنها كتاب عبد المجيد النجار . الذي قام صاحبه بمناقشة أرقام التواريخ التي قدمتها المصادر القديمة . وخلص منها إلى أن ابن تومرت ادعى المهدية سنة 515 هـ/ 1121م [108] أي أن ذلك تم وابن تومرت ما يزال بإيجيليز . لكن يبدو لنا أن الأحداث لم تقع كذلك . بل يظهر أن ابن تومرت . حين كان بإيجيليز . قد مهد لذلك الحدث فقط .

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في ذلك التمهيد الذي قام به ابن تومرت . قبل إعلان مهديته . هو استعادته الواعية لسيرة الرسول محمد ﷺ . فقد ذكر البيذق أنه قضى عدة أيام داخل غار . ثم لما عاد منه أخذ العهد على أصحابه بمواصلة الصراع مع المرابطين . حين أمر بتحضير طعام ووضع الملح فيه بيده " وقال هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة " [109] حسب البيذق الذي يضيف أنه بعد ذلك هاجر إلى " تينمل فبايعوه بها تحت شجرة الخروب " [110] . فكأن اعتكافه في الغار يرمز إلى تردد الرسول ﷺ على غار حراء قبل أن يأتيه الوحي . وأخذه العهد على أصحابه يرمز إلى بيعة العقبة . وهجرته من إيجيليز إلى تينمل ترمز إلى الهجرة من مكة إلى المدينة .

ولعل أهمية نص البيذق الأخير . رغم أنه لا يذكر تاريخ الحدث . هو تقريره أن بيعة ابن تومرت بالمهدية كان بتينمل . إذ لا سبيل إلى الشك في توطين هذا الحدث في المكان . لأن البيذق كان شاهد عيان . مرافقا لابن تومرت . بل كان سابع شخص بايع ابن تومرت بالمهدية . وإذا أضفنا

---

107 ــ أخبار المهدي . ص 38 .
108 ــ المهدي ابن تومرت . ص 114 و 245 .
109ــ أخبار المهدي . ص 33 .
110ــ نفسه . ص 34 .

إلى ذلك ما ذكره ابن القطان في أخبار سنة 515 هـ / 1121م من أن ابن تومرت " أقام بجبل إيجيليز ثلاثة أعوام . يدرس العلم ويهاجر إليه السعداء ويعلم المهاجرين ويخاطب القبائل "[111] ثم قوله في مكان آخر أن مدة إقامته " إماما بنفسه تسع سنين . بإيجيليز ثلاثا وبتينمل ستا "[112] وقمنا بعملية حسابية بسيطة . نستنتج أن ابن تومرت هاجر إلى تينمل سنة 518 هـ / 1124م. فتكون تلك السنة إذن هي التي ادعى فيها المهدية . وذلك مايقرره ابن عذاري صراحة حين يقول " وفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة . تسمى ابن تومرت السوسي بالمهدي "[113] .

إذن لعلها أول مرة ـ حسب علمنا ـ يتم فيها التمييز بين مرحلتين متداخلتين . من خروج ابن تومرت على سلطة المرابطين : الأولى تمتد من 514 / 1120 إلى 518 هـ / 1124م . وكان ابن تومرت خلالها فقيها ثائرا على سلطة المرابطين . لكن في إطار نظرية السلطة السياسية السنية. والثانية تمتد من 519 / 1125 إلى 524 هـ / 1129م سنة وفاة ابن تومرت . وقد كان خلالها إماما مهديا . مما يعني أنه طعم فكره السياسي بعناصر من نظرية السلطة السياسية الشيعية . فما نوع مهدية ابن تومرت ؟

ج ـ طبيعة مهدية ابن تومرت

المهدية فكرة ظهرت في الديانات المصرية القديمة وفي الثقافة الصينية والهندية وفي الأساطير الفارسية وفي الديانات الشرقية كاليهودية والمسيحية . وجوهرها أن مخلصا منتظرا . سيعود إلى الأرض لإنقاذ الإنسان من ظلم أخيه الإنسان[114] . و عرفت فكرة المهدية في العالم الإسلامي . وتبنتها فرق إسلامية . كانت أبرزها فرق الشيعة .

نعت الدكتور سامي النشار ابن تومرت ب" الغنوصي القائم "[115] . ربما لدعواه المهدية . كما أن ابن خلدون آخذه على ذلك حين قال " ولم يحفظ عنه فلتة في البدعة . إلا ما كان من وفاقه

111 ـ نظم الجمان . ص 23 .

112 ـ نفسه . ص 74 .

113 ـ البيان المغرب . تحقيق ومراجعة إحسان عباس . ط 2 . بيروت1980. ج 4 . ص 68

114 ـ عبد المجيد النجار . المرجع السابق . ص 240 .

115 ـ أنظر مقدمة تحقيقه لكتاب المرادي . السياسة ... . ص 6 .

الإمامية من الشيعة . في القول بالإمام المعصوم " [116] .

غير أنه يبدو أن الظروف الصعبة التي عاشها ابن تومرت . منذ أصبح مطلوبا من طرف المرابطين . الذين حاولوا القبض عليه . ولما لم يفلحوا في ذلك حاولوا اغتياله . للمرة الأولى وهو بإيجيليز . والثانية بعد أن انتقل إلى تينمل [117]. ولما لم ينجحوا أيضا ضربوا ذلك الحصار العسكري والإقتصادي وشنوا تلك الحملة الإعلامية ضده وجماعته . نقول تلك الظروف . جعلت بعض أتباع ابن تومرت يحاولون إعادة مد الجسور مع المرابطين . فابن الأثير يقول " فاجتمع أعيان أهل تينمل وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين " [118] . والراجح أن كل هذا الضغط . جعل ابن تومرت يحاول تثبيت ولاء أتباعه للحركة الموحدية . وتبديد الشعور بالبأس من نجاح الثورة . الذي بدأ يجتاح الموحدين . والعمل على استقطاب مزيد من الأتباع وذلك عن طريق ادعاء المهدية .

تلك المهدية لم تكن شيعية . كما ذهب إلى ذلك الأستاذ عبد الله علي علام . في كتابه الدعوة الموحدية [119]. بل هي أقرب إلى المهدية السنية . إذ تقوم على فكرة إنقاذ الأمة الإسلامية من المفاسد والشر . كما أنها لم تكن جديدة على المغاربة . ففكرة المهدوية أو المهدي المنتظر . كانت دائما ثابتا أساسيا من ثوابت المخيلة الإسلامية [120] .

وقد أكد هذه الحقيقة الباحثون [121] الذين درسوا فكر ابن تومرت . فبعد قراءات متفحصة للمباحث السياسية . في كتابه أعز ما يطلب . خاصة ما كتبه عن الإمامة والجهاد[122]. قرروا أن دعوى ابن تومرت المهدية إنما كانت لأغراض سياسية . أي ليتمكن من مواصلة الصراع مع المرابطين. ففكره لم يتضمن أية تصورات أو منطلقات غنوصية شيعية [123] . فرغم أنه كتب عن الإمامة .

---

116 ــ العبر . مجلد 6. قسم1. ص 471 . 472 .

117 ــ سبقت الإشارة إلى الأولى . وانظر الثانية في أخبار المهدي . ص 35 . 36 .

118ــ الكامل في التاريخ . مجلد 10 . ص 574 .

119 ــ ط1. القاهرة 1964 ص . 292. 293. 294 . 295 . 296 .

120 ــ الأستاذ عبد الواحد العسري . مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب . مجلة كلية آداب تطوان . ع1. 1986 ص 94 .

121 ــ أكتفي بذكر ألفرد بل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي . ترجمة عبد الرحمان بدوي . ط 2. بيروت 1981. من ص 250 إلى 279. وعبد المجيد النجار . المهدي بن تومرت . خاصة الفصل الثالث . وسالم يفوت . ابن حزم الأندلسي والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس . ط1. الدار البيضاء 1986 من ص 433 إلى 455 . ومقال الأستاذ العسري السابق .

122 ــ أنظر ابن تومرت . أعز ما يطلب . نشرة لوسياني . الجزائر 1903 من ص 245 إلى 254 .

123 ــ عبد الواحد العسري . المقال السابق . ص 93 .

إلا أنها كانت نشازا في مذهبه العقلي . ثم إن ما كتبه عن الإمامة و المهدية . كما يقول الدكتور عبد المجيد النجار " لم تشمل على تنظير لهذه الفكرة.يوضح معالمها ويبين عناصرها ويكشف عن أصولها العقدية والشرعية . بل تناولها في جانبها العملي فحسب " [124] .

ورغم توظيف ابن تومرت لفكرة المهدية سياسيا . إلا أن ما يؤكد لا شيعية الإمامة . كما تحدث عنها في كتابه أعز ما يطلب . هو ترتيبه للخلفاء الراشدين ترتيبا حسب تسلسلهم التاريخي . عكس معظم فرق الشيعة ــ باستثناء الزيدية ــ فهو يعترف بإمامة أبي بكر وعمر . ورغم أنه سكت عن عثمان وعلي . إلا أنه اعتبر مدة خلافة النبوة ثلاثين سنة . أي أنها انتهت مع وصول الأمويين إلى السلطة [125] .

وتلك الضرورة السياسية أيضا هي التي جعلت ابن تومرت . يوظف فكرة العصمة . التي وإن مال بها إلى التطرف شيئا ما . إلا أنه لم ينته بها إلى عصمة الشيعة . التي اعتقدت أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من الرذائل والفواحش . أما ابن تومرت فيرى أن الإمام لا يكون معصوما إلا من الباطل والظلم . ولا يمكن تفهم طبيعة تلك العصمة عند ابن تومرت . إلا باستحضار المخاطب المعني بذالك . أي المرابطون [126]. وأيضا باستحضار الظروف الصعبة والعصيبة التي كان يجتازها وجماعته الفتية .

وقد استتبع ادعاء ابن تومرت الإمامة المهدية والعصمة . ضرورة إدعائه النسب القرشي. ذلك أن الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن المهدي المنتظر . لابد أن يكون من آل البيت[127]. لذلك وجدنا ابن تومرت يصطنع لنفسه نسبا في آل البيت . وقد ورد ذلك صراحة في إحدى رسائله إلى المرابطين حيث تبدأ كما يلي : " من محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي إلى الفئة الباغية [...] جماعة الملثمين الزراجنة الساكنين بالسوس دمرهم الله ..." [128] . لكن لم يفت المؤرخين القدامى أنفسهم . أن يسجلوا زيف ادعاء ابن تومرت ذلك النسب . فيقول ابن أبي زرع

---

124 ــ عبد المجيد النجار . المرجع السابق . ص 239

125 ــ أعز ما يطلب . ص 248 . 249 .

126 ــ سالم يفوت . المرجع السابق . ص 453.

127 ــ عبد المجيد النجار . ص 240 .

128 ــ ليفي بروفنصال . كتاب أخبار المهدي بن تومرت . باريس 1928 . ق 1 . رسائل للإمام المهدي والخليفة عبد المؤمن . ص 11. 12. وردت أيضا في نفس المرجع رسائل أخرى يسمي نفسه فيها محمد بن عبد الله فقط . ص11. 13.

نقلا عن ابن مطروح القيسي . " وقيل هو دعي في هذا النسب الشريف" [129]. وابن خلدون نفسه الذي كان من بين المؤرخين القدامى الذين دافعوا بحرارة عن ابن تومرت [130]. لم يستطع أن يخفي أيضا زيف هذا النسب . حيث يقول عنه " أصله من هرغة من بطون المصامدة [...] وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في آل البيت"[131]. ولعل لفظ " زعم " الذي استعمله ابن خلدون هنا . يفيد تحفظه وعدم موافقته هؤلاء المؤرخين .

ولعل تلك الإجراءات مكنت ابن تومرت . من الحصول على سلطات استثنائية . تفوق سلطات شيوخ باقي القبائل التي انظمت لحركته . وبذلك تمكن من تنفيذ إجراءات كثيرا ما نظر إليها الباحثون المحدثون نظرة أخلاقية وأصدروا عليها أحكاما قيمية . دون البحث عن دوافعها .

مثال ذلك " التمييز " الذي قام به سنة 519 هـ/ 1125م [132]. ومعناه تصفية العناصر المشكوك في ولائها للدعوة الموحدية . وقد تعرض أحد أصحاب ابن تومرت نفسه للتصفية .بسبب معارضته لذلك التمييز [133]. كما يذكر البيذق أن قبائل بأكملها ذهبت ضحيته [134] .

ولعل سبب تنفيذ ذلك التمييز . هو أن بعض القبائل التي انظمت للدعوة الموحدية . حاولت مراجعة موقفها من الخروج على سلطة المرابطين . ذلك أن البيذق يذكر ذلك التمييز . بعد الموقعة التاسعة بين المرابطين والموحدين . والتي يقول عنها " اشتد علينا الوطيس " [135]. ولعل هذه العبارة تعني هزيمة عسكرية تكبدها الموحدون . جعلت بعض تلك القبائل تحاول إعادة النظر في انتمائها للحركة الموحدية . مما اضطر ابن تومرت لتصفية العناصر الداعية إلى ذلك .

ثم إن تنظيم الموحدين في شكل " طبقات " [136]. كان يرمي إلى نفس الغرض . أي تغيير ولاء الأفراد الضيق للقبيلة . إلى ولاء للإمام المهدي والدعوة الموحدية . وذلك باستبدال التنظيم القبلي القديم . بذلك التنظيم الذي طوره ابن تومرت . وإن لم يبتدعه من فراغ .

---

129 ــ روض القرطاس . ص 172 .

130 ــ أنظر ما كتبه عنه في العبر . مج 6. قسم 1. ص 466 .

131 ــ نفسه . ص 464 .

132 ــ النويري . المصدر السابق . ص 401 .

133 ــ نظم الجمان . ص 76 .

134 ــ أخبار المهدي . ص 39 .

135 ــ نفسه . ص 38. 39 .

136 ــ أنظر الفصل السابع من كتاب . هوبكنز . النظم الإسلامية في المغرب .

4 ـ ابن تومرت والسلطة السياسية العليا :

رغم ما يمكن أن يقال عن ظروف دعوى ابن تومرت مهديته . وطبيعة تلك المهدية . ومصداقية تلك الدعوى لدى ابن تومرت نفسه . بمعنى إيمانه أو عدمه بتلك الدعوى . فإن ما يجب تسجيله هو أن ابن تومرت . بمجرد أن أعلن إمامته المهدية . كان قد أحدث تغييرا في نظرية السلطة السياسية العليا في المغرب والأندلس . وبذلك أصبحت هناك سلطتان اثنتان . مرابطية وموحدية . تتنازعان السيادة عليهما . وتختلف كل منهما عن الأخرى . ولو نظريا . من حيث المنطلق الذي تصدر عنه .

وبما أنه سبق لنا أن تعرفنا على بعض الجوانب التطبيقية في النظرية الأولى . عند حديثنا عن السلطة السلطة السياسية عند المرابطين . فيجدر بنا أن نتعرف على عناصر تطبيقية في هذه النظرية الثانية خاصة ما يتعلق بسلطة الإمام . مقارنة مع غيره من حكام المسلمين . وقضية أيلولة أو تداول السلطة . بعد وفاة الإمام . علما بأن النظرية الشيعية التي استلهمها ابن تومرت . بشكل أو بآخر . تذهب إلى أن السلطة تورث في صلب الإمام في أعقابه . عن طريق الوصية .

فيما يتعلق بسلطة الإمام المهدي بن تومرت . من الناحية النظرية . لأنه لم يمارس سلطة فعلية على كل المغرب والأندلس . بل توفي ونفوذه لم يتجاوز الجبال المحيطة بتينمل . بعد أن هزم أصحابه في معركة البحيرة سنة 524 هـ / 1129م . فإنه كان يعتبر نفسه كإمام مهدي الشخص الوحيد في عصره . الذي تعتبر سلطته شرعية في العالم الإسلامي . أما غيره من الحكام فيجب أن يخضعوا له . أي أنه لم يعترف لا بشرعية سلطة المرابطين ولا العباسيين ولا الفاطميين أنفسهم .

نستنتج ذلك مما كتبه عن الإمامة . في كتابه أعز ما يطلب . ففيما يتعلق بالسلطة السياسية العليا في الإسلام . فهو لم يعترف إلا بعصر النبوة والخلافة الراشدة . التي امتدت ثلاثين سنة [137] . أما ما بعدها فهو في رأيه " أفراق وأهواء ونزاع واختلاف [...] تذهب (= فيها) الأئمة وتظهر المبتدعة [...] وذهب الحق وارتفع العدل " [138]. واستمرالأمر كذلك كما يضيف " في الإستيلاء والغلبة إلى زمان المؤيد المنصور القائم بالحق " [139]. ورغم أن ابن تومرت لم يذكر اسمه

137 ـ أعز ما يطلب . ص247 . 248 . 249 .

138 ـ نفسه . ص 250 .

139 ـ نفس المصدر والصفحة .

صراحة . كإمام مهدي في كتابه . إلا أنه مارس ذلك في حياته اليومية السياسية واعتبر " طاعته (= المهدي) طاعة الله ورسوله [...] في السر والعلانية وفي الظاهر والباطن وفي أمور الدين والدنيا " [140] .

لهذا . وبعد أن انتقل إلى تينمل وأعلن مهديته . ضاعف من جهوده من أجل تحقيق تلك السلطة . التي أصبح يرى نفسه أحق بها من غيره . وهكذا لما اجتمع له حوالي عشرة آلاف مقاتل. اتخذ المبادرة العسكرية ضد المرابطين . عكس معاركه الأولى التي كانت دفاعية بالأساس . وبدأ ينقل ميدان العمليات العسكرية إلى مناطق نفوذهم[141]. بين سنوات 518 / 1124م و 523 هـ/ 1128م . وحققت قواته انتصارات . شجعته على التطلع إلى إسقاط مراكش عاصمة المرابطين رأسا . وهكذا بعث لحصارها جيشا . تقول المصادر أنه تكون من أربعين ألف مقاتل بين فارس وراجل. لكن الجيش انهزم . وقتل قائده عبد الله بن محسن البشير الونشريسي . وأربعة أعضاء من هيئة العشرة أو أهل الجماعة . في " طبقات " الموحدين . وعرفت تلك المعركة بمعركة البحيرة [142]

وهكذا تراجعت فلول قوات الموحدين مذعورة إلى تينمل . وتعقبتها أربع فرق عسكرية مرابطية . محاولة اقتحام تينمل . لكن جماعة الموحدين كانت تتوفق في الدفاع عنها . وذلك بقطع المسالك الجبلية الضيقة التي كانت تؤدي إليها . وبإقامة أبراج للمراقبة مزودة بطبول تنذر الموحدين بالخطر المرابطي[143]. وأقام المهدي ابن تومرت هكذا . يحصن تينمل مدة تزيد قليلا عن ثلاثة أشهر . إلى أن توفي في شهر رمضان من نفس سنة 524 هـ / 1129م [144] . فهل آلت زعامة الحركة الموحدية إلى عقب للإمام المهدي . كما تقتضي ذلك نظرية السلطة السياسية العليا الشيعية . التي اقتبس ابن تومرت منها أفكار الإمامة والمهدية والعصمة ؟

---

140 ـ نفسه . ص 252 . 253 .

141ـ أنظر عن تلك العمليات العسكرية . روض القرطاس . ص 177، 178 . وأخبار المهدي . ص 39 و Historia politica . T . 1 . pp . 71, 72 . 75 , 79 . 80 .

142ـ عن معركة البحيرة . أنظر الحلل الموشية . ص 115، 116 . وأخبار المهدي . ص 39، 40 و . Historia politica . T . 1 . pp . 78 - 84 . وعن أسماء أعضاء مجلس العشرة الأربعة : سليمان بن مخلوف الحضري الكاتب الخاص لابن تومرت وأبوعمران موسى بن تمارا الكدميوي الذي كان أمين الجماعة وأبو يحيى بن يكيت وأبو عبد الله محمد بن سليمان الذي كان إمام الصلاة . أنظر المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب . ص 30، 31 .

143 ـ أخبار المهدي .ص 40، 41 .

144 ـ أنظر مناقشة تواريخ وفاة ابن تومرت كما أوردها المؤرخون القدامى عند . Historia politica . T . 1 . p . 8

الخلافة الموحدية والسلطة السياسية العليا

1ـ عبد المومن وخلافة ابن تومرت

معلوم تاريخيا أن قيادة الحركة الموحدية ، بعد ابن تومرت ، قد خرجت من عقبه ، وآلت إلى عبد المؤمن بن علي ، أحد تلامذته ، وذلك لسبب أول بسيط ، هو أن الإمام المهدي بن تومرت ، كما يقول ابن القطان كان : " لا ولد له رضي الله تعالى عنه ولا زوجة ولا سرية ، لأنه رضي الله تعالى عنه كان حصورا " [1] وربما أيضا لسبب ثان هو ، أن ابن تومرت حتى ولو كان له عقب ، فالمرجح أنه لم يكن ليعينه خلفا له ، رغم أنه اقتبس فكرة الإمامة المهدية ـ لضرورة سياسية عملية ـ كما لاحظ ذلك ابن خلدون ، لأنه كان يحرص في سلوكه على الإقتداء بسيرة الرسول ﷺ [2] ، كما رأينا . ولعل ما يزكي هذا الزعم هو أن ابن تومرت كان له ثلاثة إخوة ذكورا هم : أحمد شقيقه و عيسى وعبد العزيز لوالدته [3]. وإذا كانت المصادر لا تحدثنا لاحقا عن أي نشاط سياسي أو غير سياسي لأخيه أحمد [4] في أحداث الحركة الموحدية ، بينما وصلتنا بعض أخبار عيسى وعبد العزيز ، كما

---

1 ـ نظم الجمان ، ص 75 ، وفي مكان آخر يقول أنه : " حصور لا يأتي النساء " ص 38 .

2 ـ من غريب الصدف أن النبي محمدا ﷺ وابن تومرت ، كلاهما توفي ولم يخلف عقبا ، فالنبي تزوج عدة مرات وأنجب ذكورا لكنهم توفوا في حياته .

3 ـ ذلك أن ابن القطان يقول " إخوته رضي الله عنه عيسى وعبد العزيز ، لأب وأحمد الكفيف وأخته شقيقته زينب وأخته الأخرى لأب " نظم الجمان ، ص 74 .

4 ـ قد يكون ذلك بسبب إعاقته البصرية ، أو قد يكون توفي في حياة أخيه محمد بن تومرت ، أو قد تكون تمت تصفيته ، فيما بعد من طرف أحد أجنحة الحركة الموحدية ـ التي لم تكن تعرف تجانسا تاما ، كما سنرى ـ ربما لأنه كان أكثر المرشحين لخلافة ابن تومرت ، قربا منه من حيث النسب ، وإذا صح هذا الإفتراض ، فإن الجناح الذي يغلب الإحتمال أنه قد ينفذ ذلك ، هو جناح عبد المومن ، أولا : لأن هذا الجناح كان يخشى تركيز السلطة في إحدى قبائل مصمودة ، وثانيا : لأن المصادر الموحدية الأولى كتبت في ظل سلطة عبد المومن وخلفائه الأوائل ، وهي تضرب صمتا رهيبا على أخ ابن تومرت هذا ، ولعل المرتين الوحيدتين اللتين ذكر فيهما ، هي التي وردت هنا ، عند ابن القطان و عند البيذق في المقتبس ، ص 26 .

سنرى . فإن من المؤكد أن ابن تومرت لم يوص لأحد من الثلاثة بخلافته [5] . فكيف انتقلت قيادة الحركة الموحدية إلى عبد المومن بن علي ؟

أ ـ عبد المومن ووصية ابن تومرت :

أغلب المصادر التي تناولت خلافة عبد المومن لابن تومرت . تذكر أن ذلك تم بوصية من ابن تومرت . فالمراكشي يقول أن ابن تومرت قبل وفاته بأيام يسيرة . استدعى أهل الجماعة أو أعضاء هيئة " العشرة " وأعضاء هيئة " الخمسين" وقدم لهم وصيته . التي مما جاء فيها " وقد اخترنا لكم . رجلا منكم . وجعلناه أميرا عليكم . هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله . من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه . واختبرنا سريرته وعلانيته . فرأيناه في ذلك كله ثبتا في دينه متبصرا في أمره . وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه . وهذا المشار إليه هو عبد المومن . فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه . فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركة وخير كثير . والأمر لله يقلده من شاء من عباده " [6] ثم أضاف المراكشي " فبايع القوم عبد المومن [...] فهذا سبب إمرة عبد المومن رحمه الله " [7] .

ولعل تفسير هذه الظاهرة يكمن في أن المصادر الموحدية الأولى كتبت في خلافة عبد

---

5 ـ كما أن النبي ﷺ لم يوص لابن عمه . مما يدل على أن ابن تومرت . لم يومن بالنظرية السياسية الشيعية في الوصية . بل اقتبس فكرة الإمامة والمهدية والعصمة . ليتمكن من الحصول على سلطات استثنائية داخل قبائل حركته . وليتمكن نظريا من الطعن في سلطة المرابطين .

6 ـ المعجب . ص 287 . وابن أبي زرع ذكر أن ابن تومرت لما مرض مرض موته . قدم عبد المومن بن علي للصلاة . ولما أيقن بالموت دعاه وأوصاه وأعطاه كتاب " الجفر" ولعل هذه إشارة إلى تعيين ابن تومرت عبد المومن خليفة له . لكن ابن أبي زرع لا يقطع في ذلك . بل يعود في مكان آخر ليقول أن بني عبد المومن هم الذين زعموا أن ابن تومرت استخلف عبد المومن بعده . وكأن ابن أبي زرع شك في الوصية . راجع روض القرطاس . ص 179، 180، 181، 183، 184. أما ابن خلدون فيقرر صراحة أن ابن تومرت لما هلك " قام بأمرهم (= الموحدين) عبد المومن بن علي الكومي . كبير صحابته . بعهده إليه " راجع العبر . نفس الجلد والقسم . ص 388. وفي مكان آخر قال " لما هلك المهدي [...] عهد بأمره لكبير صحابته عبد المومن بن علي الكومي " ص 472. وابن الأثير والنويري يصرحان بذلك أيضا . راجع الكامل . نفس الجلد . ص 578 . وتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 404 . أما ابن القطان فحين تحدث عن وفاة ابن تومرت . قرنها ببيعة عبد المومن السرية . لكنه لم يذكر أن ذلك تم بوصية من ابن تومرت . نظم الجمان . ص 133 . غير أنه عاد في أماكن متعددة ليقرر أن ابن تومرت صرح بخلافة عبد المومن له . ص 133، 141، 142، 143 .

7 ـ المعجب . نفس الصفحة .

المومن ، ودافعت عن وجهة نظره ، حيث أنه كان يواجه منافسة شديدة على قيادة الحركة الموحدية ، كما سنرى ، لذلك عملت على اختلاق الوصية . أما المصادر المتأخرة فقد نقلت عن الأولى .

ولقد تضاربت جميع تلك المصادر ، حول السبب الذي جعل ابن تومرت يوصي لعبد المومن ـ كما تدّعي ـ فمنها من جعل ابن تومرت يتنبأ بخلافة عبد المومن له ، وهما مايزالان بملالة . وقد سبق أن قررنا أن ابن تومرت حين كان بملالة لم يكن يفكر في عمل سياسي ضد المرابطين . فالبيذق الذي روى عدة أساطير حول ذلك اللقاء يقول في إحداها " فبينما هو (= ابن تومرت) ذات يوم قاعد (خارج مسجد ملالة) إذ سمعناه يقول « الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره. وأقبل نحو المسجد ، وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر[8] وما النصر إلى من عند الله العزيز ، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره " [9] والمراكشي أيضا يقول أن ابن تومرت " نزل بضيعة يقال لها ملالة على فرسخ من بجاية ، وبها لقيه عبد المومن بن علي ، وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق في طلب العلم ، فلما رآه محمد بن تومرت عرفه بالعلامات التي كانت عنده ..." [10] .

لكن النقد الداخلي لهذه الروايات يكشف عن تهافتها ، فالبيذق يتحدث عن نصر الموحدين وابن تومرت لم يكن بعد قد بدأ في العمل السياسي ضد المرابطين ، كما أنه يصفه بالمعصوم ويلقب عبد المومن بالخليفة ويذكر جماعة الموحدين ، وكل هذا يحدث في ملالة ، كما أنه يشترك مع المراكشي في محاولة الإيهام بأن ابن تومرت كان على معرفة بعلوم سرية ، فواضح أن هذه الروايات اختلقت بعديا ، لتأييد موقف عبد المومن ضد معارضيه من الموحدين ، خاصة أن التهديد بالويل ينصب على من ينكر أحقية عبد المومن في خلافة ابن تومرت .

---

8 ـ وهناك رواية أخرى لعلها أكثر دلالة على الدعاية المكشوفة التي قام بها البيذق لصالح عبد المومن حيث يقول: " فبات (= عبد المومن) عندنا (بملالة) ، فلما جن الليل ناداني المعصوم ، يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له ، وقال لي : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده ، وأنا يومئذ ماسك السراج ، أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المومن بن علي ، سراج الموحدين ، فبكا الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال يا فقيه ماكنت في شيء من هذا إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي ، فقال له المعصوم إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ، ثم دفع له الكتاب وقال طوبى لأقوام كنت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم " . ولعل هذا الدور الذي لعبه البيذق لصالح عبد المومن هو الذي جعله يلقب بالبيذق ، والراجح أن من نبزه بهذا اللقب هم خصوم عبد المومن السياسيون من داخل الحركة الموحدية ، الذين خبروا عن قرب تملق البيذق لخليفته .

9 ـ أخبار المهدي ، ص 14 ، وعن أساطير أخرى راجع ، ص 15 ـ 20 ، 22 .

10 ـ المعجب ، ص 264 ، 265 .

ومن تلك الروايات ما جعل سبب توصية ابن تومرت لعبد المومن هو أنه كان " كبير صحابة" ابن تومرت على حد تعبير ابن خلدون [11] . فهل كان عبد المومن حقيقة كبير صحابة ابن تومرت ؟

ب ــ بين البشير وعبد المومن :

ليس صحيحا ما ذكره ابن خلدون . فعبد المومن وإن كان ثاني تلميذ انضم إلى حلقة درس ابن تومرت بملالة . بعد عبد الواحد الشرقي (الذي كان يدعى يزريجن بن عمر) . إلا أنه كان أقل منزلة عند ابن تومرت . من تلميذه الثالث ــ من حيث ترتيب انضمامه إلى حلقة درس ابن تومرت ــ وهو عبد الله بن محسن الونشريسي . المكنى بالبشير .

ذلك أن ابن تومرت كان يعهد للبشير بالمهمات الخطيرة داخل صفوف حركة الموحدين . فهو الذي قام بتنفيذ ما عرف بعمليتي التمييز داخل الحركة سنتي 519 هـ / 1125م و 523 هـ / 1128م . وهو الذي قاد القوات الموحدية في العديد من المعارك مع المرابطين . وعلى رأسها معركة البحيرة بضواحي مدينة مراكش . والتي قتل فيها [12] .

ورغم أن البيذق مارس تعتيما إخباريا على دور البشير . في الحركة الموحدية . فمثلا حين تحدث عن معركة البحيرة . ذكر فقط أن الموحدين كافة خرجوا إلى المعركة [13] . لكنه لم يذكر أن البشير هو الذي كان قائد الجيش الموحدي فيها . ولا أن عبد المومن كان تحت إمرته [14] . إلا أن بعض الباحثين المحدثين تنبهوا لهذه القضية . ولعل ما قاله لوتورنو عن عبد المومن من أن " بدايته كانت

11 ــ العبر . نفس المجلد والقسم . ص 388. 467. 472 .

12 ــ روض القرطاس . ص 177.

13 ــ أخبار المهدي . ص 39. 40 .

14 ــ يتضح سكوت البيذق المقصود على دور البشير في أحداث تاريخ الحركة الموحدية . من خلال المقارنة بين روايته لحادثة لقاء عبد المومن بابن تومرت . التي خصص لها عدة صفحات مشحونة بالأساطير (راجع الصفحات 14 ــ 17) والنص المقتضب جدا الذي روى فيه لقاء البشير بابن تومرت . حيث قال " ثم منها (= مليانة) نحو وانشريس . فنزلنا بالحضرة . فوجدنا بها عبد الله بن محسن المكنى بالبشير . ثم منها نحو تينملت مناع بني يزناسن " ص 19 .

متواضعة " [15] يندرج في هذا السياق. كما أن هويسي ميراندا . حين تحدث عن لقاء ابن تومرت بالبشير في وانشريس . أضاف أنه كان " سيصبح قائده ومستشاره المفضل . وحسب كل الاحتمالات خليفته . لولا موته أو اغتياله في معركة البحيرة . الذي جعل عبد المومن ينتقل إلى الرتبة الأولى . والذي سكت عنه المؤرخون المتأخرون وغضوا الطرف عن دوره لكي يركزوا أكثر على الأساطير المصورة لشخصية الخليفة الأول المحظوظ " [16]. وعند حديث ميراندا عن تمييز سنة 519هـ / 1125م الذي أشرف عليه البشير . وصفه بأنه أصبح عماد الحركة الموحدية " إذ أسند له ابن تومرت سلطة واسعة وجعله نائبا له ويمكن القول بأنه أصبح مفتشه العام " [17] .

ب ـ مرحلة زعامة الخمسة

نعود مرة أخرى إلى مشكلة وصية ابن تومرت لعبد المومن . لنقرر أننا لا نعدم مصادر حادت عن ذلك الإجماع حول تلك الوصية . فهذا صاحب الحلل الموشية يقول . فقط . أن ابن تومرت لما توفي " كتم أصحابه وفاته ولم يعلموا بذلك أحدا إلى أن أقاموا بعده عبد المومن بن علي" [18] بمعنى أن وصول عبد المومن إلى مركز القرار الأعلى في الحركة الموحدية كان بمبادرة من " أصحاب " ابن تومرت وليس بوصية منه .

ولعل ما يثبت زيف نص الوصية السابق ذكرها . المنسوبة لابن تومرت . والتي انفرد المراكشي بإيرادها . أن البيذق الذي لم يكن يترك فرصة إلا واغتنمها من أجل تأييد وتثبيت سلطة

---

15 ـ حركة الموحدين في المغرب . ص 59 . وقد لاحظ لوتورنو في مكان آخر علو مكانة البشير عند ابن تومرت فقال أنه " أول رفاقه وأشدهم ولاء له " . ص 46 . وإذا قرنت " أول " هذه على أنها من حيث ترتيب لقائه بابن تومرت فالصحيح أنها غير ذلك . لأن البشير كان ـ كما قلنا سابقا ـ ثالث تلميذ انضم إلى حلقة درس ابن تومرت . بعد عبد الواحد الشرقي وعبد المومن بن علي . راجع أخبار المهدي . ص 14. 16. 19 .

16 ـ Historia politica ,T .1.p . 46 . وإذا كنا نوافق الأستاذ ميراندا على تقييمه لمكانة كل من البشير وعبد المومن داخل الحركة الموحدية . إلا أننا لا نوافقه على القول باغتيال البشير في معركة البحيرة ـ ولعله يلمح إلى احتمال أن يكون عبد المومن هو الذي قام بذلك ـ لأن الموحدين حتى معركة البحيرة كانوا جماعة صغيرة . تواجه خطرا حقيقيا من طرف المرابطين . رغم أنهم تجرأوا على مهاجمة مراكش . كما أن صفوف الحركة كانت ما تزال متماسكة . بحيث لم تكن قد ظهرت مشاكل حول قيادة الحركة في حياة ابن تومرت . لذلك لم يكن . في رأينا . هناك أي مبرر لاغتيال البشير من طرف الموحدين .

17 ـ Ibid.P 75.

18 ـ الحلل . ص 117 .

عبد المومن . قد ذكر فعلا أن ابن تومرت . حين وجد في نفسه مرضا " أمر الموحدين أن يجتمعوا . فحضروا كلهم . ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ... "[19]. لكنه لم يتحدث عن وصية لعبد المومن . ورواية البيذق أدعي للقبول . لأنه كان شاهد عيان . بينما المراكشي كتب كتابه وهو في المشرق . ولا يحتمل أن تكون ذاكرته قد احتفظت بنص الوصية . بل هي مختلقة . إذن إذا بطلت الوصية . فكيف أصبح عبد المومن خليفة لابن تومرت ؟

بعد وفاة ابن تومرت سنة 524 هـ / 1129م دفن سرا في بيته أو في مسجد تينمل . ولعل بعض أصحابه استشعروا الخطر الذي كان يحيط بالحركة في ذلك الوقت . فقد كانت حديثة عهد بهزيمة البحيرة . التي لم تتخلص بعد من آثارها . فإذا بها تفقد إمامها المهدي . الذي من بين ما كان يبشر به أتباعه هو القضاء على " الدجالين " أي المرابطين . فإذا به يتوفى قبل أن ينجز وعده . لذلك ـ يبدو لنا ـ أن بعض أصحابه فكروا في إخفاء خبر موته على مجموع الموحدين . حتى لا ينفرط عقد الحركة الموحدية . فعمدوا إلى إيهام الناس بأنه مريض . وتصنعوا استشارته وتلقي أوامره [20] .

والأشخاص الذين كانوا على علم بوفاة ابن تومرت هم خمسة فقط : عبد المومن بن علي واسماعيل إيگيك وعمر بن عبد الله أزناگ . وهم من أهل العشرة . وأبو محمد واسنار . من أهل الدار . وزينب أخت ابن تومرت[21] . وقد لاحظ الأستاذ ميراندا . بذكاء. أن أبا حفص عمر الهنتاتي لم يكن ضمن هذه الجماعة [22] .

ويذكر البيذق أن الأمر استمر على حاله كذلك . ثلاث سنوات [23] أي إلى سنة 527 هـ / 1132م . ويؤكد ابن أبي زرع . نقلا عن ابن صاحب الصلاة هذه الرواية . ثم يضيف أن الموحدين دبروا أمرهم " بسياسة ظاهرة من عبد المومن" [24] أما صاحب الحلل فيقول " تفاوض بقية أصحابه (= ابن تومرت) وهم أربعة . فيما يكون إمامهم بعده . فوقع اتفاقهم على عبد المومن " [25] .

إذن لقد كان تسيير شؤون الحركة الموحدية خلال هذه المدة جماعيا . مع تفويض القيادة

19 ـ أخبار المهدي . 41، 42 .
20 - Historia politica ,T .1 , p . 88
21 ـ أخبار المهدي . ص 42 .
22 ـ المرجع السابق . ص 88 .
23 ـ المصدر السابق . نفس الصفحة .
24 ـ روض القرطاس . ص 184.
25 ـ ص 143.

لعبد المومن . فقد ذكر ابن خلدون أن أصحابه " كانوا يدخلون بيته ويجلسون حول قبره ويتفاوضون في شؤونهم . بمحضر أخته زينب . ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه. ويتولاه عبد المومن بتسليمهم" [26] وقد استمر ذلك إلى حدود سنة 527 هـ / 1132م حين تمت البيعة الرسمية لعبد المومن . وذلك بعد أن عقد صلحا مع المرابطين كما يبدو [27] .

د ـ بيعة عبد المؤمن

اختلفت المصادر حول أسباب تولية عبد المومن . وحول الأشخاص الذين بادروا بمبايعته . فصاحب الحلل يرى أن السبب في ذلك أن أصحاب ابن تومرت فعلوا ذلك " لما كانوا يشاهدون من تعظيم المهدي له بمحضر أصحابه وجميع الموحدين" [28] وصاحب روض القرطاس يرى أن السبب في ذلك هو أنه بعد وفاة ابن تومرت " تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده . وكانوا قبائل شتى وأحبت كل قبيلة من قبائل الموحدين أن يكون الخليفة منها وأن لا يلي عليها أحد من غيرها. فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا . فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا بينهم وخافوا النفاق وأن تفسد كلمتهم وينفرق جمعهم . فاتفقوا على خلافة عبد المومن لكونه غريبا بينهم ليس منهم " [29] . لكن أهم ما يجب تسجيله هنا هو أن هذه الروايات تنفي القول بالوصية .

ثم إنه يمكن أن يضاف إلى هذه الأسباب . سبب آخر جدير بالذكر . ألا وهو علم عبد المومن. ذلك أن الثورة الموحدية هي ثورة مذهبية بالأساس . فكما سبق ذكر ذلك . كان العلم هو العلاقة التي ربطت بينه وبين ابن تومرت . والمصادر تنوه بعلم عبد المومن هذا . فابن أبي زرع يقول أنه كان " عالما بالجدل فقيها في علم الأصول حافظا لحديث النبي ﷺ متقن الرواية مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية إماما في النحو واللغة والأدب والقراءات ذاكرا للتاريخ وأيام الناس" [30] ويكفي أن نذكر أن عبد المومن هو الذي جمع تأليف ابن تومرت في الكتاب الذي وصلنا باسم " أعز ما يطلب" .

---

26 ـ العبر . نفس الجلد والقسم . ص 472 .

27 ـ أخبار المهدي . ص 45 .

28 ـ ص 143.

29 ـ روض القرطاس . ص 184 .

30 ـ نفسه . ص 203 . والبيذق يقول عنه " كان يقرأ على الإمام المعصوم رضي الله عنه . وكان أفهم الطلبة " أخبار المهدي . ص 17.

أما عن الأشخاص الذين بادروا إلى مبايعته . فقد ذكر المراكشي أنهم . ثلاثة من أهل الجماعة أو هيئة العشرة . وهم عمر أزناگ وعمر الهنتاتي وعبد الله بن سليمان . ثم أضاف " ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين" [31]. أما ابن خلدون فقال : " وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المومن وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص" [32]. في حين ذكر البيذق . وهو شاهد عيان . أن الذين بادروا إلى ذلك هم أبو إبراهيم وعمر أزناگ وعبد الرحمان بن زكو ومحمد بن محمد . حيث قالوا لعبد المومن " امدد يدك نبايعك البيعة التي عقدناها مع المهدي . فمد يده. ثم بايعوه . ثم تبعهم سائر الناس" [33] . ولعل تضارب روايات هؤلاء المؤرخين . رغم أنهم يجمعون على أن سائر الموحدين قد بايعوا عبد المومن . قد تعكس عدم الإجماع على بيعته . ومع ذلك فقد تسمى عبد المومن . منذ ذلك الحين أي منذ سنة 528 هـ / 1133م بأمير المومنين [34]. رغم أن سلطته الفعلية لم تكن تتجاوز جبال الأطلس الكبير الغربي . بحيث لم يكن قد أسقط السلطة المرابطية بعد .

وهكذا نلاحظ أن الحركة الموحدية في بدايتها . رغم أنها اقتبست فكرة الإمامة من نظرية السلطة السياسية الشيعية . في شخص الإمام المهدي . إلا أنها فيما يتعلق بتداول السلطة لم تطبق تلك النظرية . فقد خرجت السلطة من عقب الإمام . بل أكثر من ذلك . انتقلت السلطة من قبيلة هرغة المصمودية إلى قبيلة كومية الزناتية . في شخص عبد المومن . فهل تم انتقال السلطة بتوافق بين جميع الموحدين ؟

2ـ عبد المؤمن والمعارضة الموحدية :

ما يوكد أن مبايعة عبد المومن لقيادة الحركة الموحدية . لم يتم تطبيقا لوصية من ابن تومرت . بل بمبادرة من بعض أصحاب ابن تومرت دون البعض الآخر . هو أن الحركة الموحدية بدأت . مباشرة بعد إعلان البيعة الرسمية لعبد المومن . بالإنشقاق إلى أجنحة متناحرة حول السلطة والثروة .

---

31 ـ المعجب . ص 284 . 285 .

32 ـ العبر . نفس المجلد والقسم . ص 472 .

33 ـ أخبار المهدي . ص 45 .

34 ـ روض القرطاس . ص 187. 262 .

أ ـ أجنحة الحركة الموحدية :

يمكن تصنيف هذه الأجنحة إلى ثلاثة :

الجناح الأول . وكان يضم عبد المومن وبعض أعضاء هيئة العشرة . الذين بقوا على قيد الحياة . بعد معركة البحيرة [35]. خاصة أبو إبراهيم عمر أزناگ وإسماعيل بن يسلال إيگيگ (الهزرجي) وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي .

والجناح الثاني ضم بعض قرابة ابن تومرت . خاصة أخواه عبد العزيز وعيسى وقريبهما يصلاسن بن المعز . ويمكن تسمية هذا الجناح بجناح أهل الدار .

أما الجناح الثالث فكان يضم زعامات موحدية . كانت ذات مناصب مهمة في تنظيمات الموحدين مثل عبد الله بن يعلى الزناتي المعروف بابن ملوية . من أهل العشرة . وأبي بكر بن توندوت. من أبناء أهل الخمسين . وزعيم قبيلة هسكورة . ويمكن تسميته بجناح أهل العشرة والخمسين .

والحقيقة أنه يصعب تتبع أخبار هذه الأجنحة بتفصيل . نظرا لقلة المادة التاريخية من جانب . ولأن أحد هذه الأجنحة لم يكن متجانسا وأعني به الجناح الثالث . فقد أطلقنا عليه اسم جناح مع بعض التحفظ . لذلك لن نتتبع نشاطه كجناح متميز . بل سنكتفي بالإشارة إلى انتفاضتيه فقط . مع التركيز على الصراع بين الجناح الأول بزعامة عبد المومن والثاني بزعامة أخوي ابن تومرت .

ب ـ صراع الأجنحة حول السلطة والثروة :

ب ـ1ـ بين جناح عبد المؤمن وأهل العشرة

بعد بيعة عبد المومن العلنية . غادر تينمل متوجها إلى قلعة تازگورت بدرعة للإستيلاء

---

35 ـ فقد قتل في هذه المعركة خمسة من أعضاء هيئة العشرة أو أهل الجماعة . وهم : أبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضري المعروف بابن البقال . كاتب ابن تومرت . وأبو عمران موسى بن تمارى الكدميوي . أمين الجماعة . وأبو يحيى بن يكيت . وأبو عبد الله محمد بن سليمان . إمام الصلاة . وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريسي . راجع . البيذق . المقتبس . ص 30. 31.

عليها . لكن بمجرد أن خرج من تينمل . انتهز ابن ملوية الفرصة . واتجه نحو أمير المسلمين علي بن يوسف . واتفق معه على مهاجمة تينمل . فأمده الأمير بقوة مرابطية وصل بها إلى تراب قبيلة كنفيسة . إلا أن أحد زعمائها . وهو عبد الله بن وسدرن . باتفاق مع الشيخ أبي سعيد يخلف . تمكنا من قتله وحملت جثته إلى تينمل حيث صلبت [36] .

ولعل دافع ابن ملوية . للخروج على عبد المومن والانضمام للمرابطين . هو أنه كان يرى نفسه أحق بخلافة ابن تومرت في قيادة الموحدين من عبد المومن . فهو كما عرفنا كان من أهل العشرة . ومن بين كبار قواد الموحدين . وعبد المومن نفسه يعترف أنه كان مرؤوسا له ويسمع أوامره. أو على الأقل كان ندا له . في معركة البحيرة [37] .

ب ـ 2 ـ صراع الأجنحة حول الثروة

مع أن عبد المومن استمر خليفة على الموحدين . بعد هذا التمرد الأول . إلا أننا . إذا دققنا في سلطته . فسنجدها غير مطلقة . لدرجة أنه كثيرا ما تعرض لانتقادات أشخاص . حتى من داخل الجناح الذي كان يتزعمه نفسه . مما يوحي بأن سلطته لم تكن تفوق سلطة أي شيخ من شيوخ قبائل الحركة الموحدية .

وكثيرا ما كانت معارضة هؤلاء لأسباب مادية . فيبدو أن عبد المومن . بدأ يؤثر نفسه بسبايا المعارك . و يتصرف في الغنائم كما شاء . ويسند مناصب لأقربائه [38] . مما جعل أحد الموحدين ـ وهو محمد بن أبي بكر بن يگيت ـ يقتل أخ الخليفة عبد المومن . وقد علق البيذق على هذا الحادث قائلا : " ومن ذلك اليوم قسمت المروس بالبنود " [39]. والراجح أن هذه الحادثة . قد جعلت عبد المومن يعدل عن سلوكه السابق . حيث وجدناه بعد ذلك يجري القرعة مع أبي إبراهيم

---

36 ـ أخبار المهدي . ص 121.

37 ـ روى ابن القطان على لسان عبد المومن ما يلي : " لما ضيقوا (= المرابطون) علينا واضطررنا إلى الدفاع . كان معي عبد الله بن يعلى بن ملوية . فانقسمنا قسمين أنا في قسم وهو في قسم . والملثمون قد ألحوا في اتباعنا. فقال لي عبد الله بن يعلى : كن أنت وأصحابك في اليمين واضرب فيهم . ففعلنا ذلك . فانهزم الملثمون في الحين إلى باب مراكش " نظم الجمان . ص 121 .

38 ـ أخبار المهدي . ص 50، 51، 55 .

39 ـ نفسه . ص 55.

إسماعيل حول إحدى السبايا [40] .

والظاهر أن الصراع داخل الحركة الموحدية ، لأسباب مادية ، قد تجلى في حادثة أخرى ، وهي أن الموحدين عند فتحهم لمدينة مراكش ، و لما أرادوا قتل أبا بكر بن تيزمت ، مستشار علي بن يوسف، لجأ إلى حيلة حيث أخبر عبد المومن بأن لديه قدران من ذهب يريد تسليمهما له قبل أن يقتل ، يقول البيذق " فاختار أمير المومنين اثنين من كل قبيلة ، فسار الرجل مع اثني عشر من الأمناء"[41] ما يدل على أن صراعا خفيا كان يدور بين صفوف الموحدين ، على أساس مادي ، والمؤكد أن هذا الصراع قد اشتد بعد أن تم القضاء النهائي على المرابطين في المغرب بسقوط مراكش سنة 541 هـ / 1146م وانتهاء المرحلة الرومانسية من تاريخ الحركة الموحدية .

ب ـ 3 ـ بين جناح عبد المومن وأهل الدار :

فعلا بدأ الصراع بين الجناح الذي تزعمه عبد المومن في الحركة الموحدية وبين جناح أقارب ابن تومرت ، حول السلطة ، بعد إسقاط مراكش ، واتخذ لبوسا ماديا ، فبعد فتح الموحدين تلمسان أمر عبد المومن ، بأن لا تباع نساء بعض المرابطين ، الذين انضموا إلى الحركة الموحدية مؤخرا ، لكن أخوي ابن تومرت عيسى وعبد العزيز " أخذا منهما ابنتين كرها على الخليفة " كما جاء عند ابن عذاري[42] ، ولما فتحت إشبيلية سنة 541 هـ / 1146م يقول ابن عذاري ـ ولعله ينقل عن مؤرخ أندلسي ـ أنه " تمهدت للموحدين شؤونها ودامت الحال شهورا على خير وبركات إلى أن وصل (= إليها) عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي ومعهما يصلاسن ابن عمهما " [43] ، ويبدو أنهم أساؤوا معاملة الإشبيليين إلى درجة أن ابن عذاري يقول أنهم قاموا ب " قتل الناس وإباحة الدماء وأخذ الأموال " [44] ويبدو أن سلوكهم هذا قد جعل سكان إشبيلية وبعض مدن جنوب غرب الأندلس المجاورة لها ، كلبلة وشلب وبطليوس وقادس يحاولون إعادة ربط الاتصال ببقايا المرابطين في الأندلس، يقول ابن خلدون أن قرابة المهدي " اعتزموا على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة ، فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم وبعث إلى طلياطة وحصن القصر ووصل يده

40 ـ نفسه ، ص 56 .

41 ـ نفسه ، ص 66.

42 ـ نفسه ، ص 36 .

43 ـ نفسه ، ص 38 .

44ـ نفسه ، ص 38 ، وابن خلدون ، العبر ، نفس المجلد والقسم ، ص 478 .

بالملثمين الذين كانوا بالعدوة ، وارتد ابن قسي في مدينة شلب ، وعلي بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس ، ومحمد بن علي الحجام بمدينة بطليوس" [45] و استمرت هذه الإضطرابات بالأندلس من سنة 542 / 1147 إلى 544 هـ / 1149م ، ثم بعد ذلك عاد كل من عبد العزيز وعيسى ويصلاسن إلى مراكش [46] .

رغم أننا نقبل هذه الروايات بكثير من التحفظ ، لأنها وإن وصلتنا بواسطة ابن عذاري وابن خلدون ، وقد كتبا خلال العصر المريني ، إلا أنها عكست وجهة نظر سلطة عبد المومن الرسمية ، بواسطة مؤرخي البلاط الموحدي ، لكن مع ذلك لا يمكننا أن نخفي أن تلك السلوكات التي قام بها أقارب ابن تومرت ، إنما تعكس استهتارهم بسلطة عبد المومن ، واعتبار أنفسهم أولى منه بتلك السلطة ، لأنهم قرابة المهدي .

كما أن عبد المومن كان يشعر بخطرهم على مركزه ، لذلك مهد للقضاء عليهم ، بحملة إعلامية قبل أن يختم لهم بالمصير الذي سنعرفه فيما بعد ، وفي هذا الإطار ، يذكر ابن عذاري ، أن من دوافع كتابة عبد المومن لرسالته المشهورة " الجامعة لأنواع من الأوامر " ، هو سلوك أقارب ابن تومرت بالأندلس ، وفيها يظهر عبد المومن رغبته في القضاء على الظلم والغش والمفاسد ، وقد وجهت نسخة من هذه الرسالة إلى الأندلس ، وهي مؤرخة ب 16 ربيع الأول سنة 543 هـ / 1148م [47] .

هكذا كان كل جناح يتربص الدوائر بالآخر ، محاولا القضاء على خصمه ، عبد المومن يحاول تثبيت السلطة في شخصه وأقارب ابن تومرت يحاولون استردادها منه ، فكان لابد أن يدخل الجناحان في صدام مباشر ، خاصة بعد أن أتم الموحدون إخضاع المغرب وجزء كبير من الأندلس وبدأوا في التطلع إلى المغرب الأوسط ، فكيف حدث هذا الصراع ؟

ب ـ 3 ـ 1ـ بين يصلاسن وصهر عبد المومن

في سنة 546 هـ / 1151م قاد عبد المومن جيشا نحو المغرب الأوسط لفتحه ، فدخل

---

45 ـ البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 38، 39 ، والعبر ، ص 487 .

46ـ البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 38 ، 39 ، والعبر ، ص 487 .

47 ـ راجع نص الرسالة عند ابن القطان ، نظم الجمان ، ص 150ـ 167 ، وأحمد عزاوي ، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية ، القسم الثاني ، ص 14ـ 21 .

مدينة الجزائر صلحا . واستمر زحفه إلى أن دخل إلى بجاية وانتزعها من بني حماد في سنة 547 هـ / 1152م فأقام بها حوالي شهرين ثم عاد إلى مراكش [48] .

ولما استولى عبد المومن على إمارة بني حماد . استشعرت القبائل العربية . من بني هلال والأثبج وعدي وزغب ــ التي كانت مضاربها تنتشر من طرابلس الغرب إلى المغرب ــ خطر الموحدين على مجالها . فقالت " إن جاورنا عبد المومن أجلانا من المغرب وليس الرأي إلا إلقاء الجد معه وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن " [49] . فلما بلغ عبد المومن خبرهم بعث إليهم جيشا أولا . بقيادة صهره عبد الله بن وانودين . ويصلاسن بن المعز قريب ابن تومرت .

ولما التقى الجيشان " تنازع عبد الله مع يصلاسن فقال له يصلاسن ما حمتك إلا الذي أعطاك الخليفة خادمة . وهرب عنه يصلاسن وأفرده . فأخذه العرب أخذ يد . فقام سفيه منهم فقتله " [50] .

وهكذا انهزم الجيش الموحدي الأول . فبعث عبد المومن إليهم جيشا آخر . كثير العدد . تختلف المصادر حول قيادته[51]. فتمكن هذا الجيش من هزم العرب . الذين تركوا في الميدان كما يقول ابن الأثير " جميع ما لَهُم من أهل ومال و أثاث ونعم . فأخذ الموحدون جميع ذلك" [52] وعاد الجيش الموحدي بتلك الغنائم . فقسم عبد المومن الأموال على الموحدين " وترك النساء والأولاد تحت الإحتياط " [53] .

هكذا نلاحظ مرة أخرى استهتار أقارب ابن تومرت بسلطة عبد المومن . فيصلاسن أهان صهره وأنبه على تحالفه مع عبد المومن . كما يرى رجي لوتورنو [54] . بل إنه تركه يواجه مصيره المحتوم .

---

48 ــ روض القرطاس . ص 192، 193، 194 .

49 ــ ابن الأثير . نفس المصدر والجلد . ص 185.

50 ــ أخبار المهدي . ص 74 .

51 ــ يذكر ابن الأثير والنويري . أن هذا الجيش الثاني كان يزيد عدد أفراده على 30000 فارس . وهو رقم مبالغ فيه . أما قواده فيقول ابن الأثير أنهما عبد الله بن عمر الهنتاتي و سعد الله بن يحيى . في حين يقول النويري أنهم أبو سعيد يخلف وعبد العزيز وعيسى أولاد بني أمغار . راجع . الكامل . نفس الجلد . ص 186 . وتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 418 .

52 ــ الكامل . ص 186.

53 ــ النويري . المصدر السابق . ص 418 .

54 ــ Roger LETOURNEAU, Du mouvement Almohade à La dynastie Muminide , Mélange d'histoire et d'Archéologie de L'occident Musulman, T . 1, Alger, pp . 111-112.

يقول لوتورنو أنه أثناء مسير الجيش الموحدي الثاني . نحو عرب إفريقية . فشلت محاولة لاغتيال الخليفة عبد المومن . كانت من تدبير أخوي ابن تومرت [55] . وأحال على الرسالة الحادية عشرة من " مجموع الرسائل الموحدية " ليؤكد زعمه [56] . وربما كان يتابع . في هذا الخطإ ناشر هذه الرسالة . ليفي بروفنصال . في تعليقه عليها باللغة الفرنسية . والذي يتحدث عن مؤامرة ضد النظام Commplot contre le régime وليس عن مؤامرة على حياة الخليفة Complot contre la vie du calife كما وردت عند لوتورنو [57] . لكن بالعودة إلى نص الرسالة العربي . والتي كتبت بعد هذه الأحداث . أي بعد مقتل أخوي ابن تومرت ــ عند فشل محاولتهم الثانية للإستيلاء على السلطة كما سنرى ــ وهي عبارة عن منشور دعائي رسمي وزعه عبد المومن لشرح وتبرير ظروف قضائه على أخوي ابن تومرت ــ نقول بالعودة إلى الرسالة لا نجدها تصرح . بأن محاولة أخوي ابن تومرت الإستيلاء على السلطة قد جرت عند مسير الجيش الموحدي الثاني إلى عرب إفريقية . بل الراجح أنها تشير فقط . إلى ما حدث بين يصلاسن بن المعز وصهر عبد المومن عبد الله بن وانودين. فهي تقول " وكان لهم في الشقي فلان [58] عمدة كبرى وعدة [...] وأقام في السجن إلى أن كان الإياب إلى هذه الأقطار " [59] .

ب ــ 3 ــ2 ــ محاولة أخوي ابن تومرت الأولى للإستيلاء على السلطة

الراجح أن المحاولة الأولى لاستيلاء أخوي ابن تومرت على السلطة . لم تكن إلا رد فعل منهما على قتل عبد المومن يصلاسن . ذلك أن البيذق قال . بعد أن تحدث عما وقع بين يصلاسن وعبد الله بن وانودين . أن الخليفة " غضب غضبا شديدا [...] وأمر بعبد الله بن سليمان وقال له . في السر . تحيل كيف تأخذ يصلاسن في البحر [...] فلما توسط في البحر كبله وجاء به إلى سبتة وسجنه

---

55 ــ قارن مع ما قاله النويري . من أن أخوي ابن تومرت كانا من قواد الجيش الثاني . المصدر السابق . ص 186 .

56ــ ليفي بروفنصال . مجموع رسائل موحدية . الرباط . 1941. ص 38ــ 47 .

57 ــ . E . LEVI -PROVENCAL , Un Receuil de Lettres Officielles Almohades , Hesperis, T . 28 , p .32

58 ــ الراجح أنه يصلاسن لأنه ذكر بصيغة المفرد. وللأسف أن النساخ عمدوا إلى حذف أسماء الأعلام البشرية والجغرافية وتواريخ الأحداث . من كثير من مجاميع الرسائل . لأنهم لم يكونوا يهتمون إلا بالجانب الفني الأدبي من الرسائل .

59 ــ مجموع رسائل موحدية . ص 42 .

فيها " [60] .

وهذا ما يتفق مع ما ذكرته الرسالة السابقة . من أن " فلان " أقام في السجن . ويؤكد هويثي ميراندا أن عبد المومن . اهتم بأخذ الثأر لصهره . الذي أهين من طرف يصلاسن . فعمل على القبض عليه وسجنه ثم أعدمه[61] .

ومما يؤكد ذلك أن البيذق . وهو شاهد عيان . قد قدم الحديث عن مقتل يصلاسن . ثم قال " وفي عام ثمانية وأربعين . خالفت علينا هرغة وأهل تينمل . فقتلهم الخليفة رضي الله عنه . وهجر بني أمغار ودفعهم إلى فاس وأسكنهم فيها " [62] ولم يذكر معهم يصلاسن . الذي كان قد أعدم . مما يدل على أن هذه المحاولة الأولى . للإستيلاء على السلطة من طرف أخوي المهدي . كانت رد فعل على إعدام قريبهما يصلاسن .

فقرابة ابن تومرت بدأوا يشعرون أن عبد المومن أخذ يتجه نحو تركيز السلطة في يده . بتصفية بعضهم . وبوفاة أغلب أصحاب ابن تومرت من " أهل العشرة " . ذلك أنه قبل معركة بجاية . لم يعد على قيد الحياة . سوى عمر الهنتاتي وإسماعيل إيگيگ [63] .

هكذا يبدو لنا أن الأحداث قد وقعت . وليس كما ذهب إلى ذلك . كل من روجي لونورنو وهويثي ميراندا . من أن هذه المحاولة الأولى . تمت أثناء سير الجيش الموحدي الثاني نحو غرب إفريقية [64] .

إذن وضع عبد المومن أخوا ابن تومرت تحت الإقامة الإجبارية . وبدأ يوطد سلطته . بعد أن تعرض لمحاولة تجريده منها . وذلك عن طريق البحث عن حلفاء جدد يقوي بهم مركزه في صراعه مع " آل أمغار " و " أهل الخمسين" . بل إنه لم يعد يفكر . فقط . في الإبقاء على السلطة في شخصه . وإنما بدأ يحاول توريثها في عقبه . مما يؤذن بتحول وتدشين مرحلة جديدة من تاريخ الحركة الموحدية . فكيف تم ذلك ؟

ب ـ 3 ـ 3 ـ اتجاه عبد المؤمن نحو السلطة الوراثية والمحاولة الثانية

---

60 ـ أخبار المهدي . ص 75.

61 ـ Historia politica , T. 1 , p . 167 .

62 ـ المصدر السابق . ص 76 .

63 ـ Historia politica , T . 1 , p . 161.

64 ـ IBID, pp . 167, 168, et Du mouvement Almohade à La dynastie Muminide, p . 112

سبق أن تحدثنا عن أن عبد المومن ، لما هزم العرب، لم يأذن في توزيع سباياهم على جنوده ، وهو لم يفعل ذلك حبا في العرب ، ولكن ليتمكن من استمالتهم إلى صفه في صراعه مع الجناحين الآخرين ، وليستعين بهم كحلفاء جدد يمكنهم مساعدته في تحقيق مشروعه الرامي إلى جعل الخلافة وراثية في أعقابه .

أمر عبد المومن ابنه محمد أن يراسل شيوخ العرب ، يخبرهم بأن " نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة " [65] ويطلب منهم الحضور إلى العاصمة ليتسلموهم ، ولما وصلهم كتاب محمد بن عبد المومن سارعوا إلى مراكش ، فرد عليهم عبد المومن أبناءهم ونساءهم وأعطاهم هبات مالية ، لكن حين انتقل عبد المومن إلى سلا ، ليشيع كبراء العرب هؤلاء ، عند عودتهم إلى بلادهم، يضيف ابن عذاري أنه كان " في نفسه أن يربط العهد الميمون الطاهر المصون ، فلما وصل سلا ، انعقدت البيعة لابنه محمد " [66] .

هكذا ، إذن ، تعمد عبد المومن ، أن يستعين بالعرب كحلفاء جدد من أجل تثبيت السلطة في عقبه ، رغم أنه يدعي ، في الرسالة التي بعثها إلى طلبة سبتة وطنجة ، أن ذلك تم بمبادرة من أشياخ الموحدين والقبائل العربية والقبائل الصنهاجية ، وأنهم سبق لهم أن راسلوه بخصوص هذا الموضوع ، تمت له البيعة ، وكان أول من بايعه الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي [67] .

وصل خبر ما كان يحدث في سلا إلى أخوي ابن تومرت اللذين ، كانا تحت الإقامة الإجبارية بفاس ، فقررا التحرك بسرعة لاسترجاع سلطة أخيهما ، ولعلهما أدركا أنهما إذا تأخرا ، فسوف تخرج منهما إلى الأبد ، لذلك عملا على اغتنام فرصة ، غياب عبد المومن وكبار موظفيه عن مراكش ، لحضور حفل تنصيب ابنه محمد وليا للعهد ، فتحركا نحو مراكش ، خفية ، فلما وصلاها إتصلا ببعض أتباعهما بها [68] واتفقوا على السيطرة على المدينة .

لكن والي مراكش ، من قبل عبد المومن ، الشيخ أبو حفص عمر بن تفراجين ، امتنع عن تسليمهم مفاتيحها ، فقتلوه ، ويضيف ابن عذاري أنهم كانوا قد " تواعدوا مع أصحابهم أن يجتمعوا في جامع علي ، فأخلفوهم وأفردوهم " [69] ولسنا ندري سبب خذلان أتباع الثائرَيْن من

---

65 ـ ابن الأثير ، الكامل ، نفس المجلد ، ص 86 .

66 ـ البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 43 .

67 ـ انظر نص الرسالة في مجموع رسائل موحدية ، ص 57، 58 .

68 ـ مجموع رسائل موحدية ، ص 45 ، وأخبار المهدي ، ص 50 .

69 ـ البيان ، قسم الموحدين ، ص 50 .

طرف أصحابهما . غير أن المصادر تتحدث عن أن سكان المدينة استطاعوا القضاء عليهم . ومن ثم قتل أخوا ابن تومرت عبد العزيز وعيسى وعبيدهم [70] .

ولما وصل كاتب عبد المومن . أبو جعفر بن عطية . الذي بعثه الخليفة إلى المدينة، للقضاء على محاولة أخوي المهدي الثانية هذه للإستيلاء على السلطة . وجد كل شيء قد انتهى . لكن بعد أن اكتشف المراسلات التي كانت بين أخوي ابن تومرت وأصحابهم . عمل على تتبع الأخيرين .

وحين وصل الخليفة إلى العاصمة عمل على مطاردتهم وإلقاء القبض عليهم . وبلغ عدد الذين شملتهم هذه الحملة التطهيرية . حسب رواية البيذق " ثلاثمئة . كان فيهم خمسة رجال من أعيان الحضر " [71] . وتصور إحدى الرسائل الرسمية عنف رد فعل عبد المومن على هذه المحاولة . ورغبته في استئصال شأفة أية معارضة . في أن بعض الأشخاص الذين قتلوا عقب المحاولة الفاشلة كان " على جانب الظن والإتهام " [72]. وقد وقعت هذه الأحداث كلها سنة 549 هـ / 1154م . كما يقرر ذلك البيذق [73] .

ب ـ 3 ـ بين عبد المؤمن وأهل الخمسين

يبدو أن بعض الزعامات القبلية . من داخل الحركة الموحدية . قد اغتاضت هي الأخرى . من من محاولة عبد المومن استمالة القبائل العربية . لتقوية سلطته، ولدعمه في تحويل الخلافة وراثية في ذريته . فقامت ضده، مثال ذلك . ما فعله أحد أفراد عائلة توندوت . من قبيلة هسكورة . السابقون إلى الإنخراط في الدعوة الموحدية . وهو أيضا ابن أحد أعضاء " هيئة الخمسين" المسمى أبو بكر بن توندوت [74] . لا نعرف الشيء الكثير عن ثورته . غير ما يمكن استنتاجه . من إحدى الرسائل التي وجهت إليه . من طرف ابن عبد الحميد كاتب عبد المومن . بإيحاء من هذا الأخير .

---

70 ـ أخبار المهدي . ص 78، والبيان الموحدي . ص 51 . والعبر . ص 492 .

71 ـ أخبار المهدي . ص 79 .

72 ـ مجموع رسائل موحدية . ص 47 .

73 ـ المصدر السابق والصفحة .

74 ـ أحمد عزاوي . مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية . القسم الأول . ص 47 . المقتبس من كتاب الأنساب . ص 35 .

يحاول من خلالها ، استمالته للعودة إلى صف الخليفة ، عارضا عليه العفو الخليفي [75] . ولم نسمع عنه شيئا بعد ذلك عن هذا الموضوع ، بحيث لاندري هل عاد ابن توندوت إلى صف الموحدين ، أم تم القضاء على تمرده ، غير أننا نعرف أن قبيلة هسكورة ، كانت من بين القبائل التي اتصلت بعبد المومن ، سنة 552 هـ / 1157م ، خلال جولته ببلاد السوس والمصامدة ، معلنة " توبتها " عن الخروج على سلطته ، فمما جاء في الرسالة " ولما نزلنا ، على مرحلة من آنسا ـ عمرها الله ـ وافى وفد جزولة وهسكورة وقبائل الكست ، من شيوخهم وأعيانهم وأهل الحل والعقد منهم [...] ومسحت أيدي المنة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق ... فوصلوا تائبين نادمين ..." [76] .

هكذا إذن تم لعبد المومن القضاء على حركات المعارضة الخطيرة ، من داخل الحركة الموحدية ، لكنه لم يكتف بهذا ، بل سعى إلى ضمان تركيز السلة في يده ، وتوريثها في أبنائه من بعده ، وذلك باتخاذه سلسلة من الإجراءات الإدارية التالية .

3 ـ عبد المومن و توطيد الخلافة الوراثية

في سنة 550 هـ / 1155م ، جمع عبد المومن صغار الطلبة ، الذين كانوا يعرفون بالحفاظ ، من كل من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان ، و كانوا قد اختيروا من أبناء أسر معروفة ، ضمهم إلى من انتخبهم من أبناء قبائل الموحدين ، فبلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف فرد ، كما يذكر صاحب الحلل الموشية [77] . أنشأ عبد المومن لهؤلاء التلاميذ ، ما يمكن أن يسمى بتعبير عصرنا ، مدرسة لتخريج الأطر الإدارية ، فبالإضافة إلى قراءة متون ابن تومرت ، كانوا يمارسون أنواعا من الرياضة ، فقد كان عبد المومن يؤهلهم لتولي الوظائف الإدارية في البلاد ، ولاشك أنه كان يربيهم تربية إيديولوجية ، تجعلهم خالصي الولاء لشخصه وسلطته. ، فقد قال صاحب الحلل ، أنه قصد من وراء تكوينهم هذا " سرعة الحفظ والتربية على ما يريد " [78]. وقد كان من بين هؤلاء الحفاظ ، ثلاثة عشر من أبناء الخليفة ، تكونوا على نفس الطريقة .

مرة أخرى وفي إطار سياسة عبد المومن ، الرامية إلى تركيز السلطة في يده ، ومنع أية فرصة

75ـ راجع نص الرسالة ، عند أحمد عزاوي ، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية ، القسم الثاني ، ص 25 ، 26

76 ـ مجموع رسائل موحدية ، ص 88 .

77 ـ ص 150.

78 ـ نفس المصدر والصفحة السابقين .

لانفصال أية جهة من جهات مجال نفوذه أو خروجها عن مراقبته . عمل على إسناد حكم الأقاليم التي كانت تحت سلطته . إلى أبنائه . ورغم أن بعض المصادر الرسمية . تذكر أن سكان تلك الأقاليم هم الذين طلبوا منه ذلك . مثل القبائل العربية بإفريقية وقبائل المغرب الأوسط وتلمسان [79]. لكن النويري . المؤرخ المشرقي الذي كتب وهو متحرر من " الرقابة " الموحدية فقد قال أن عبد المومن . سلك في الوصول إلى ذلك " من حسن السياسة وجميل التدبير طريقا عجيبا " [80]. ولعل هذا الطريق العجيب هو أنه تحايل في الوصول إلى ذ لك .

وفعلا تم له ما أراد . فعين أبناءه على الأقاليم . فكان أبو محمد عبد الله على بجاية وأحوازها . وأبو السعيد عثمان على سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء . وأبو الربيع سليمان على تادلة . وأبو زيد على السوس . وقد تمت هذه التعيينات في سنة 551 هـ / 1156م .

وبهذه الإجراءات تحولت الحركة الموحدية إلى دولة لا يختلف نظامها السياسي عن النظام السياسي لسابقتها الدولة المرابطية في شيء . حيث أصبح نظام ولاية العهد وراثيا . بإعلان أكبر أبناء عبد المومن . محمد . وليا للعهد . ومبايعته بذلك. رغم أنه لم يتمكن من خلافة والده بعد وفاته . بحيث انتقلت الخلافة إلى أخيه يوسف .

هكذا يتضح أن فترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين في المغرب والأندلس . لم تأت بجديد من حيث الممارسة . رغم ما يظهر من اختلاف على المستوى النظري بين النظام السياسي المرابطي المبني على ولاية العهد وتوريث السلطة . وبين النظام السياسي الموحدي المرتكز على سلطة الإمام التي تورث في الأعقاب . حسب المصدر الشيعي الذي اقتبس منه ابن تومرت . لكن المفارقة هي أن ولاية العهد وتوريث السلطة عند الموحدين لم يكن تطبيقا للنظرية بل تكريسا للواقع . وبذلك عاد المغاربة إلى ما كانوا عليه خلال العصر المرابطي في الممارسة السياسية الفعلية .

وبذلك انتقل المغرب والأندلس من شكل نظام أميرية المسلمين . التي امتدت سيادتها الترابية عليهما وعلى جزء من غرب المغرب الأوسط . وأعلنت الولاء الإسمي للخلفاء العباسيين في بغداد . إلى خلافة للمؤمنين في المغرب الإسلامي كله . ولم تخف رغبتها في مد سيادتها على باقي شرق العالم الإسلامي . وبذلك " انقطعت الدعوة العباسية بالمغرب لبني العباس"[81].

---

79 ـ أنظر الرسالة رقم 14. من مجموع رسائل موحدية . ص 92 . 93 . وابن عذاري الذي يقول أن الموحدين هم الذين رغبوا في تولية أبناء عبد المومن على الأقاليم . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 49 . 50 .

80 ـ تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 419 .

81 ـ المعجب . ص 297 .

من ولاية صوفية إلى إمامة سياسية

في سنة 539 هـ / 1144م ومباشرة بعد مقتل الأمير المرابطي تاشفين بن علي . اندلعت في غرب الأندلس ثورة مسلحة . كانت من تدبير طائفة من المتصوفة . عرفت باسم ثورة المريدين . وقد استهدفت القضاء على بقايا النفوذ المرابطي في الأندلس . وهكذا أخذت تقارعهم إلى أن انهارت سلطتهم في المغرب . بسقوط مراكش في أيدي الموحدين سنة 541 هـ / 1146م . بعد ذلك دخل زعماء هذه الثورة في علاقة مع الموحدين . تارة تكتسي طابع التحالف وأخرى التنافر والاصطدام المسلح . إلى أن تمكن الموحدون من فرض سيطرتهم على المناطق التي قامت فيها هذه الثورة .

وبعد سقوط مراكش بقليل في أيدي الموحدين . قامت ثورة أخرى في المغرب الأقصى . انطلاقا من منطقة ماسة النائية . ويبدو أن زعيم هذه الثورة كان ذا منحى صوفي . هذه الثورة أقلقت الموحدين لفترة إلى أن تمكنوا من القضاء عليها في النهاية .

ولعل فهم هاتين الثورتين . ووضعهما في إطارهما التاريخي الصحيح . يستوجب الإجابة على بعض الأسئلة . من مثل : كيف انتقل التصوف من ممارسة دينية روحية تكاد تكون فردية . إلى طموح جماعي للوصول إلى السلطة ؟ وما هي أسباب وأطوار هذا التحول ؟ بيد أن الذي يجب التأكيد عليه منذ البداية . هو أن الهدف هنا . ليس البحث عن جذور التصوف سواء في الأندلس أو المغرب . بل تلمس بعض نقاط التحول خلال المدة قيد الدراسة .

للإجابة على هذه الأسئلة لابد من العودة قليلا إلى الوراء . إلى نقطة تتحدد خارج الإطار الزمني الذي اصطلح هذا البحث على تسميته بفترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين . أقول لابد من العودة إلى الوراء . وبالتدقيق إلى سنة 503 هـ / 1109م . ذلك أن هذه السنة عرفت . في الأندلس والمغرب . وقوع حادث ذو دلالة . لعلها تمكننا من فهم كيف تطورت الأمور . إلى أن أصبح التصوف يحمل السيف من أجل الوصول إلى السلطة .

الفصل الرابع

إحراق " الإحياء " وعلاقته بتنامي تيار التصوف

في هذه السنة تم إحراق كتاب " إحياء علوم الدين " لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي . وتحدثنا المصادر عن أن هذا الإحراق بدأ في قرطبة بالأندلس . ونفذ أيضا في المغرب وذلك في إمارة علي بن يوسف المرابطي . الذي أخذ بفتوى فقهاء قرطبة . وعلى رأسهم القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين . فأمر بإحراق الكتاب بقرطبة . وكتب إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه . حيثما وجد . وصودرت نسخه من أصحابها لتلقى نفس المصير [1] .

لكن ما يهمنا ليس سرد تفاصيل عملية الإحراق . بل الأهم هو طرح السؤال حول سبب الإحراق ؟

1ـ قضية الإحراق في المصادر

بالعودة إلى المصادر القديمة . نجد أن بعضها يورد هذه الحادثة دون أن يعللها . كابن القطان في " نظم الجمان " [2] وابن عذاري في " البيان المغرب " [3].

ونجد البعض الآخر كصاحب الحلل الموشية يقول . أن الفقهاء تكلموا في كتاب الإحياء و " أنكروا فيه أشياء " [4] . لكنه لا يحدد طبيعة هذه الأشياء التي أنكرها الفقهاء . وكذلك فعل ابن الزيات في " التشوف " حيث أثبت لنا رواية على لسان الصوفي ابن حرزهم يقول فيها : " اعتكفت على قراءة إحياء علوم الدين للغزالي . في بيت مدة عام . فجردت المسائل التي تنتقد

1 - ابن القطان . نظم الجمان . تحقيق محمود علي مكي المطبعة المهدية . تطوان . دون تاريخ . ص 14 .

2 - نفس المصدر والصفحة .

3 - ابن عذاري . البيان المغرب . تحقيق ومراجعة إحسان عباس دار الثقافة . بيروت 1980. ط 2 . ج 4 . ص 59 .

4 - مجهول . الحلل الموشية . تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء . 1979. ط1. ص 104 .

عليه وعزمت على حرق الكتاب . فلما نمت رأيت قائلا يقول : جردوه واضربوه حد الفرية ! فضربت ثمانين سوطا . فلما استيقظت . جعلت أقلب ظهري . فوجدت به ألما شديدا من ذلك الضرب . فتبت إلى الله تعالى مما اعتقدت . ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة " [5]. وكما هو واضح - وبغض النظر عن طابع الكرامة في هذه الرواية - فلم نتعرف من خلالها على أكثر من أن هناك مسائل انتقدت على كتاب الإحياء .

وأخيرا نجد البعض يقدم تعليلا . لكن ليس هناك اتفاق على سبب بعينه . فأصحاب كتاب بيوتات فاس الكبرى يقولون عن كتاب الإحياء إن الفقهاء تكلموا فيه " لما فيه من الأحاديث الموضوعة " [6] بينما نجد المراكشي في " المعجب " يحاول أن يربط بين " محاربة " الفقهاء لعلم الكلام وقضية إحراق الإحياء . حيث يقول " وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين (علي بن يوسف) تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه . وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يُكتَب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه . وتوَعَّد من وُجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المؤمنين بإحراقها . وتقدم بالوعيد الشديد . من سفك الدم واستئصال المال . إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك " [7].

ومع أن المراكشي يتحدث عن إحراق كتب الغزالي بصيغة الجمع . إلا أن الثابت هو أن " الإحياء " فقط هو الذي أحرق . ثم إن الأهم الذي يمكن استخلاصه من هذه الرواية . هو محاولة المراكشي تعليل حادثة الإحراق . بسبب منحى الكتاب الكلامي .

2 ـ قضية الإحراق في المراجع

هذا فيما يتعلق بالقدماء . أما إذا انتقلنا إلى المحدثين . فيمكن أن نلخص ما توصل إليه الأستاذ محمد اليعقوبي البدراوي . بخصوص سبب الإحراق في ثلاث نقاط : أولا : ميل كتاب الإحياء

---

5 - ابن الزيات . التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي . تحقيق أحمد التوفيق . منشورات كلية آداب الرباط . ط1. 1984 ص 169. وانظر ترجمة ابن حرزهم عند ابن القاضي المكناسي . جذوة الاقتباس . دار المنصور . الرباط 1974: القسم الثاني . ص464 . 465 . 466 .

6 - اسماعيل بن الاحمر وآخرون . بيوتات فاس الكبرى . دار المنصور . الرباط . 1978. ص 33 .

7 - المعجب في تلخيص أخبار الاندلس والمغرب . ص 255.

إلى التصوف في حين أن الإسلام كان في حاجة إلى الجهاد في الشرق والغرب . ثانيا : أن مفهوم الفقيه في الإحياء هو " الفقيه الزاهد في دنياه " بينما فقيه الغرب الإسلامي لم يكن يعرف هذه " الروح الانهزامية " . ثالثا : ورود أحاديث ضعيفة وموضوعة في الكتاب [8] . أما الدكتور أحمد حسن محمود فيرى أن الإحراق تم بسبب أن فقهاء المرابطين اعتبروا الغزالي من أهل الرأي . كما نقموا عليه موقفه من الفقهاء الذين اهتموا بالفروع دون الأصول [9]. ولعله من الواضح أنه هنا في استنتاجه هذا كان موجها بنص المراكشي السابق . وقد تابع أحمد حسن محمود في هذا الرأي الدكتور محمود إسماعيل . الذي يرى أيضا أن الفقهاء أرغموا المرابطين على إحراق كتاب الغزالي لأنهم حكموا عليه بأنه من أهل الرأي رغم " اتجاهاته المحافظة " [10]. في حين ذهب الأستاذ عبد الله العروي . إلى أن الإحراق يدخل في حرب المالكية على الشافعية [11]. لكنه عاد مرة أخرى ليقول أن الإحراق تم بسبب لمنحى كتاب الغزالي الكلامي والصوفي [12] .

هذا باختصار ما قيل حول سبب الإحراق من خلال مصادر ومراجع . لكن أفلا يحسن بنا قبل أن ندلي برأي في القضية أن نستنطق كتاب الإحياء نفسه ؟

3ـ قضية الإحراق من خلال " الإحياء "

بالعودة إلى كتاب الإحياء يخيل إلينا أن الجزء الذي يمكن أن يقدمنا إلى الأمام . بصدد حل هذه القضية . هو كتاب " الحلال والحرام " من إحياء علوم الدين . ذلك أن هذا الكتاب هو من أهم أجزاء الإحياء من الناحية الفقهية [13]. والذين أفتوا بالإحراق هم بعض فقهاء الأندلس . أما علي بن يوسف فكان السلطة التي أمرت بالتنفيذ . فما الذي يكون قد أقلق هؤلاء الفقهاء في " الحلال والحرام " ؟

---

8 - محمد اليعقوبي البدراوي . احراق " كتاب الاحياء " في الغرب الاسلامي . مجلة المناهل . تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية . الرباط . ع 9 . ص 312 . 323 .

9 - أحمد حسن محود . قيام دولة المرابطين . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . 1957. ص 446 .

10 - محمود اسماعيل . مقالات في الفكر والتاريخ . دار الرشاد الحديثة . ط1 . البيضاء 1979 . منظور سوسيولوجي للحركة المرابطية.. ص 66 .94 .

11- L'histoire du Maghreb, un essai de synthese . MASPERO Paris . 1976 . pp . 155 .

12- Ibid , p . 160 .

13 - راجع المقدمة التي كتبها الدكتور رضوان السيد لهذا الجزء من الإحياء . أبو حامد الغزالي كتاب الحلال والحرام من إحياء علوم الدين . تقديم رضوان السيد . ط1 . بيروت 1983 . ص 5 .

لعل الأبواب الرابع والخامس والسادس ، تقدم بعض ملامح الجواب . فالغزالي يناقش فيها قضية " إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم " ومسألة " الدخول على السلاطين ومخالطتهم " وأخيرا " كيفية خروج التائب عن المظالم المالية " .

3 ـ أ ـ السلطة الشرعية من منظور الغزالي

وقبل أن نعرض لموقف الغزالي من أعطيات السلاطين ، يحسن بنا أن نتعرف على موقفه وتصوره لسلطة حكام العالم الإسلامي في عصره ، من حيث شرعيتها أو عدمها . فهو يرى أن " الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنه " [14] إذن فالسلطة الشرعية العليا في نظره ، في عصره ، هي التي تمثلها الخلافة العباسية . ومع ذلك فهو يعترف بسلطة الحكام الآخرين في العالم الإسلامي ، لكن شريطة أن يكونوا مطيعين للخليفة العباسي حيث يقول : " ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الإسم " [15]. أما غير هؤلاء فهم ، في رأيه ، ظلمة ، ولعله كان يقصد الفاطميين بالأساس .

لكن الذي يهمنا بالدرجة الأولى هو موقف الغزالي من المرابطين . فقد كان موقفه منهم واضحا من حيث مساندته لهم ، بحيث كانت هناك مراسلات بينه وبين الأمير يوسف بن تاشفين. أفتى الغزالي في إحداها بشرعية حكمه وسانده ، حتى قيل أنه كان ينوي السفر إليه . كما أن الخليفة العباسي المستظهر بعث بتقليده إلى يوسف [16] . إذن ليس هناك ما يثير حفيظة الفقهاء المالكية في الأندلس والمغرب حول هذه القضية .

3 ـ ب ـ موقف الغزالي من أعطيات السلاطين

هذا عن موقف الغزالي المبدئي من السلاطين ، أما بخصوص القضية الأولى المتعلقة بإدراراتهم ، فهو وإن جوز أخذ مالهم شريطة أن يتحقق حله ، وأن يكون الشخص الآخذ في حاجة

---

14 - نفسه ، ص 135 .

15 - نفس المصدر والصفحة .

16 - انظر نص رسالة الغزالي والتقليد ، عند عصمت دندش ، دراسة حول رسائل ابن العربي ، مجلة المناهل ، ع 9، ص 149، 191.

إليه أو خشي أن ينزل به ضرر إذا رفضه . بيد أنه قرر أن " أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار . والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز " [17] وهو حينما افترض أن يعطي سلطان ما . لشخص مالا . فإن مصدر ذلك المال لن يكون إلا من ثمانية أوجه . هي : الجزية أو المواريث أو الاوقاف أو الموات الذي أحياه السلطان أو ملك اشتراه أو خراج المسلمين أو أموال تجار يتعامل معهم السلطان أو مال ما أسماه بالخزانة . وباستثناء الثلاثة الأوائل . فإن الخمسة الباقين . إما حرام عنده أو " تورث شبهة " [18] .

ومعلوم أن الذين يحصلون على أعطيات السلاطين هم المقربون منهم . وقد كان هؤلاء المفتون مقربين من الأمراء المرابطين . والغزالي نفسه حين افترض من يمكن أن يمنح أعطيات . نص على الفقيه حيث قال : " فإذا كتب (= السلطان) لفقيه أو غيره إدرارا أو صلة أو خلعة على جهة . فلا يخلو من ثمانية أحوال ... " [19] . فهل يمكن أن يكون هذا من بين المسائل التي أثارت هؤلاء الفقهاء في الغرب الإسلامي ضد كتاب الإحياء ؟ خاصة إذا ما استحضرنا في أذهاننا أن الدولة المرابطية قامت على أكتاف المالكية منهم . وأن بعض هؤلاء الفقهاء كانوا يأخذون أعطيات أمير المسلمين . بل تم إشراكهم في الخمس [20] . لعل هذه قضية شخصية تمس الفقيه وحده . فهل هناك أسباب أخرى تهم الفقهاء و أصحاب السلطة وعامة المسلمين والإسلام ككل في الغرب الاسلامي ؟

3 ـ ج ـ موقف الغزالي من الضرائب على المسلمين

عندما كان الغزالي يحدد مصادر دخل السلطان حصرها في قسمين : الأول : مأخوذ من الكفار . وهو الغنيمة والفيء والجزية . وهو حلال كله . والثاني : مأخوذ من المسلمين ولا يحل منه إلا صنفان : أولا . المواريث وسائر الأمور والممتلكات الضائعة التي لا يعرف لها مالك . ثانيا . الأوقاف التي لا متولي لها . والصدقات . لكن هذه الأخيرة يقول عنها " فليست توجد في هذا الزمان " [21] أما ما عدا هذه . فالباقي كله حرام من " الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع

17 - الغزالي . الحلال والحرام . ص 125 .

18 ـ نفس المصدر والصفحة .

19 ـ نفسه . ص 123.

20 - عز الدين أحمد موسى . النشاط الاقتصادي . ص 152 .

21 - الغزالي . ص 123 .

الرشوة " [22] . إذن قد يكون هذا الموقف أخطر من موقف الغزالي من أعطيات السلاطين . فهو يحدد ما يمكن أن يأخذه السلطان من مال المسلمين في المواريث والأوقاف والضائع والصدقات . أما غير ذلك فلا يجوز . فما وجه الخطورة في هذا الموقف ؟

معلوم أن المرابطين كانوا في حرب مستمرة مع الممالك المسيحية في شمال الأندلس . وأن هذه الحرب كانت في حاجة إلى موارد لتغذيتها . فمع أنها كانت في البداية لصالح المرابطين . خاصة في عهد يوسف بن تاشفين . حيث كانت تدر غنائم وأفياء قد تعوض مصاريفها . إلا أن الحاجة كانت تتزايد لموارد توجه نحو المجهود الحربي . فلم " تعد الضرائب الشرعية تف بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس " [23] وقد بدأ هذا التطور في أواخر إمارة يوسف بن تاشفين . الذي أراد أن يفرض " المعونة " على الناس فعارضه ابن الفراء . قاضي ألمرية الزاهد [24] .

إذن فالمشكلة المالية للدولة المرابطية . بدأت أواخر عهد يوسف . واشتدت في عهد علي بن يوسف الذي فرض الضرائب أوائل حكمه . ومعلوم أن حادثة الإحراق وقعت سنة 503 هـ / 1109م . أي في السنة الثالثة من حكم علي بن يوسف .

فهل كان هذا التعارض بين رأي الغزالي في تحريم جميع أنواع الضرائب على المسلمين . وبين حاجة المرابطين إليها . من أجل تغطية العجز المالي لتمويل الحرب . وبالتالي حفظ بيضة الإسلام في الجناح الغربي من العالم الإسلامي . كان من أسباب موقف بعض الفقهاء المالكية . منظري السياسة المرابطية . من كتاب الإحياء ؟ قد يكون ذلك خاصة أن بعض الفقهاء أخذوا يتبنون أراء الغزالي مثل ابن الفراء وابن تومرت [25] .

3 ـ د ـ موقف الغزالي من التعامل مع السلطة

أما فيما يتعلق بمسألة الدخول على السلاطين ومخالطتهم . فإن الغزالي . في كتاب الإحياء . كان أكثر حسما ووضوحا فيها من قضية الإدرارات . فهو يحرم غشيان أبواب السلاطين .

---

22 - نفس المصدر ونفس الصفحة .

23 - عز الدين أحمد موسى . ص 165 .

24 - يخيل إلينا أن ابن الفراء حين عارض يوسف بن تاشفين . فقد كان يصدر عن نفس موقف الغزالي . أو ربما كان متأثرا به . خاصة إذا علمنا أن المصادر تنعت ابن الفراء بالزهد والورع . انظر عنه ابن خلكان . وفيات الاعيان . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ج7. ص 118. 119 .

25 - عز الدين موسى . ص 165. 166 .

ولو تذرع العالم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إلا في النوائب العظمى . وهو يحرم أيضا معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمهم . لأن مالهم مصدره السلطان . وهو أيضا حرام [26] .

فماذا سيكون موقف فقهاء الدولة المرابطية ؟ وهل يمكن أن تكون فتوى أبي عبد الله محمد بن حمدين . الفقيه القاضي . بإحراق الإحياء وتكفير الغزالي رد فعل على موقف الأخير ؟

أما الباب الذي يتناول فيه " كيفية خروج التائب عن المظالم المالية " فهو يربط بين هذه " النوبة " وبين التخلي عن هذا المال . سواء من طرف السلطان أو شخص كان يعمل لدى السلطان. ويرى وجوب التصدق به [27] .

4 ـ الإحياء وتيار التصوف

ولعل اللافت للنظر . هو أننا وجدنا المتصوفة . في الأندلس والمغرب . يطبقون تعاليم الغزالي هذه تطبيقا صارما . فيما يخص أخذ مال السلاطين ومخالطتهم . وكذلك الخروج عن المال إذا شكوا أنه حرام . فهذا شيخ صوفي " وفد مرة على السلطان فبعث إليه بجملة من مال . فلم يخرج إلى أغمات من مراكش حتى فرقه على المساكين . فقيل له لو أمسكت منه لنفسك ! فقال لا حاجة لي به " [28] . وهذا متصوف آخر لم يكن يريد أن يمتلك شيئا فقيل له في ذلك فقال : " أخاف أن أكتسب ملكا فأحتاج إلى مصانعة العمال " [29] .

أما فيما يخص الخروج عن المال . فالأمثلة على ذلك كثيرة . فهذا متصوف آخر " كان من العمال ثم تاب إلى الله تعالى فرد المظالم إلى أهلها " [30] ونفس الشيء فعله ابن قسي زعيم ثورة المريدين في الأندلس الذي " نشأ مشتغلا بالأعمال الخزنية . ثم تزهد بزعمه وباع ماله وتصدق بثمنه " [31] وابن وزير ثاني أبرز زعماء هذه الثورة الذي " تميز بالمعارف الأدبية والفقهية وولي خطة

26 – الغزالي . ص 139، 159 .

27 – نفسه . 109، 110، 111.

28 – ابن الزيات . التشوف . ص 106 . هذا المتصوف هو أبو الحجاج . أصله من سرقسطة سكن مراكش وبها توفي سنة 520 هـ . أي أن هذه الحادثة وقعت له مع علي بن يوسف . وانظر أيضا موقف أحد المتصوفة من مال الأمير تاشفين حيث ينعت ماله ب " الخبيث " . نفس المصدر . ص 111 . والأمثلة على ذلك كثيرة .

29 – نفسه . ص 270 .

30 – ابن الزيات . ص 236 .

31 – ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق وتعليق حسين مؤنس . ط 1. 1963. ج2 . عن ابن قسي انظر . ص197 وعن ابن وزير . ص 203 .

الشوري ببلده . ثم تزهد وانزوى . ورابط على ساحل البحر في رباط الريحانة وتصدق بماله " [32].

وهذا يبين أن متصوفة الأندلس والمغرب . وإن كانوا على اطلاع على كتب التصوف السابقة على الغزالي . كالرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي . إلا أن الإحياء كان معتمدهم . حتى قال أحد الباحثين المحدثين أنه كان " لمتصوفة العصرين المرابطي والموحدي مرشدا ومنهاجا " [33] .

الآن يمكن أن نستنتج أن تعليل إحراق كتاب الإحياء . بسبب ما ورد فيه من أحاديث موضوعة . لا يثبت أمام النقد . خاصة إذا علمنا أن الغزالي . يكاد يكون في كتابه إحياء علوم الدين . مقتصرا على نقل مادة كتابي الرعاية للمحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي . حتى قال ابن تيمية عنه " إن كتاب الإحياء للغزالي يغني عنه كتاب الرعاية للحارث المحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي " [34] . كذلك يستبعد أن يكون الإحراق قد تم بسبب الصراع بين المالكية والشافعية . فلم يكن في المغرب والأندلس كبير نفوذ للمذهب الشافعي . فالذين صدر منهم رد فعل ضد الإحراق . هم متصوفة أو فقهاء مالكيون متشبعون بالتصوف . كما يستبعد أن يكون الإحراق قد تم بسبب منحى الكتاب الكلامي . فلو كان الأمر كذلك لتم إحراق كتاب المستصفى أو غيره وليس الإحياء . بل واضح أن هذا الكتاب الأخير يغلب عليه المنحى الصوفي . فالسبكي يقول :" ولا يخفى أن طريقة الغزالي التصوف والتعمق في الحقائق ومحبة إشارات القوم " [35]. وما يؤكد هذا الزعم هو موقف المتصوفة في الأندلس والمغرب من قضية الإحراق . فمنهم من أفتى ببطلان الأيمان التي كان على الناس أن يقسموها لتأكيد عدم توفرهم على نسخ من الإحياء عندما اشتدت حملة مصادرة نسخه من أصحابها . فمنهم من " انتصر لأبي حامد رحمه الله " وراسل الأمير علي بن يوسف في أمر الكتاب [36]. وقد استمر رد فعل المتصوفة قويا ضد الإحراق إلى فترة

---

32 - نفسه .

33 - عز الدين أحمد موسى . 348 . وابن الزيات . ص 96. 179. 214 . يقول أيضا في مقدمة كتابه " وجردت هذا الكتاب من علوم التصوف [...] فإن إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي رضي الله عنه هو المنتهي في ذلك " ص 36 .

34 - نقلا عن محمد عابد الجابري . تكوين العقل العربي . دار الطليعة . ط1. بيروت 1984. ص 279 . 280 . وانظر أيضا عبد الوهاب السبكي . طبقات الشافعية الكبرى . ط2. بيروت . بدون تاريخ . ج 4 . ص 127 .

35 - طبقات الشافعية . ص 124.

36 - ابن الزيات . التشوف . ص 96 . وكذلك ص 145 وإن كانت الرواية الاخيرة تحمل طابع الكرامة .

متأخرة عن زمن الاحراق تتجاوز القرن [37] .

خلاصة القول أنه يمكن أن يرجع سبب إحراق كتاب الإحياء . إلى موقف الغزالي من الضرائب غير الشرعية على المسلمين . والذي كان يتناقض مع مصالح الدولة المرابطية المحتاجة إلى موارد من أجل حماية الأندلس من غارات الإمارات المسيحية . كما يمكن أن يرجع إلى منحى الكتاب الصوفي ذي النفحات الباطنية [38]. حيث أن بعض المتصوفة بدأوا يتبنون آراءه . وبدأوا يعارضون سياسة المرابطين مثال ذلك موقف ابن الفراء من يوسف بن تاشفين . إذن " لا يستبعد أن يكون إحراق المرابطين لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ذا صلة بحرب المرابطين على المتصوفة " [39] .

ولعل أهم ما يمكن أن يستنتج من حادثة الإحراق هذه . هي أنها تدل على أن تيار التصوف كان قد تبلور في الأندلس والمغرب . وسيظل يتنامى إلى أن ينفجر في شكل ثورات مسلحة . كثورة أحد المتصوفة [40] بسبتة عام 520 هـ / 1126م . وثورة المريدين في الأندلس 539 هـ / 1144م بزعامة ابن قسي[41] . وثورة ابن هود في المغرب سنة 541 هـ / 1146م [42] .

---

37 - وقد حق للاستاذ أحمد التوفيق أن يتساءل في مقدمة تحقيقه لكتاب التشوف . عن ماذا كان يقصد ابن الزيات عندما ذكر " أن الفقهاء قد ظهر عوارهم بصدد قضية الإحياء " والجواب هو أن ابن الزيات كان يصدر عن موقف متصوف لم ينس فعل الفقهاء بالإحياء رغم أنه صنف كتابه سنة 617 هـ . والإحراق حدث سنة 503 هـ . انظر ابن الزيات . التشوف . ص 14 .

38 - يقول ابن تيمية عن الغزالي أنه " قد حكي عنه القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك في كتبه " نقلا عن الجابري في تكوين العقل العربي . ص 286 . ولاحظ أيضا ما ورد عند السبكي حول " أنه كان له عكوف على رسائل إخوان الصفا " طبقات الشافعية . ج 4 . ص 123 .

39 - عز الدين أحمد موسى . ص 348. 349 .

40 - ابن عذاري . البيان المغرب . ج 4 . ص 74. 75 .

41 - حسين مؤنس . نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . مجلة معهد الدراسات الإسلامية . مدريد 1955 . المجلد الأول . ع 3 . ص 97 - 140 . انظر ص 101. 105 .

42 - الحلل الموشية . ص 146 .

الفصل الثاني

الجانبان الإجتماعي والإيديولوجي لتيار التصوف ومـوقف الفقهاء والمرابطين منه

1ـ الجانب الإجتماعي :

1 ـ أ ـ موقف العامة من الشريحة الحاكمة

سبق الحديث على أن الدولة المرابطية . قامت على أكتاف الفقهاء المالكية . انطلاقا من الجنوب المغربي . ولما عبر المرابطون إلى الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين . وتم لهم فتحها . تحالف معهم الفقهاء . الذين كانوا مع ملوك الطوائف . ثم عملوا في خدمة الدولة المرابطية [1]. واحتلوا مراكز رئيسية في الإدارة . خاصة القضاء والإدارة المالية . حتى أن بعض هؤلاء الفقهاء جمعوا بين الوظيفتين [2] . ونتيجة لذلك ازدادت ثروة كل من هؤلاء الفقهاء والمرابطين . بالإضافة إلى أفراد بعض الأسر الكبيرة . سواء في الأندلس والمغرب . وأصبحوا يشكلون فئة ميسورة . منذ إمارة علي بن يوسف . يقول المراكشي : " ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم . وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم . طول مدته . فعظم أمر الفقهاء . كما ذكرنا . وانصرفت وجوه الناس إليهم . فكثرت بذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم " [3]. ويبدو أن عامة الناس كانوا مستائين من هذه الوضعية الاقتصادية الاجتماعية المتميزة . لهذه الفئة . وقد عبر عن هذا الاستياء أحد الشعراء . حين قال :

---

1 - محمود علي مكي . وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين . مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد . 1959. 1960 . المجلدان 7 و 8 . ص 109. 198 . انظر ص 114 .

2 - عز الدين أحمد موسى . ص 252 .

3 - المعجب . ص 253 .

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتمو الاموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم [4]

ونكاد نقول أن هذا الشاعر كان ينتمي إلى تيار التصوف ، الذي كان يعبر عن تذمر العامة، خاصة أن المراكشي يضيف أن الشاعر قصد بهذه ، الأبيات هجاء القاضي أبا عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة ، الذي عرفنا أنه كان على رأس الفقهاء الذين أفتوا بإحراق كتاب الإحياء ، والذي تجاوز غيره من الفقهاء إلى تكفير الغزالي ، ثم بعد ذلك هجاه الشاعر بأبيات صريحة تشير إلى شخصه حين قال :

أدجال هذا أوان الخروج ... ويا شمس لوحي من المغرب

يريد بن حمدين أن يعتفي ... وجدواه أنأى من الكوكب [5]

ولعل ما يجعلنا نميل أكثر إلى القول بأن هذا الشاعر كان قريبا من تيار التصوف ، هو أن هذه الأبيات الشعرية الأخيرة ، يمكن أن تشم منها رائحة الفكر الصوفي ، المتأثر ببعض عناصر الفكر الشيعي ، حيث يتحدث عن الدجال وعن شروق الشمس من المغرب .

1 ـ ب ـ أثر العامل العسكري والطبيعي على الجبايات

كانت كفة الحرب بين المرابطين والإمارات المسيحية ، شمال الأندلس ، خلال إمارة يوسف بن تاشفين وأوائل إمارة علي بن يوسف ، لصالح المرابطين ، لما كانت المبادرة العسكرية بأيديهم ، فقد ظهر ذلك جليا في قيادة يوسف بن تاشفين ثم ابنه علي من بعده ، لمجموعة من الحملات العسكرية إلى الأندلس [6] .

لكن يبدو أنه بعد موقعة أقليش سنة 501 هـ / 1107م ، بدأت المبادرة تتحول ببطء إلى جانب الإمارات المسيحية ، وقد تأكد هذا التحول مع سقوط سرقسطة عام 512 هـ / 1118م .

---

4 - نفس المصدر والصفحة .

5 - المصدر السابق ، ص 254 .

6 - ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج 4 ، ص 48 ، 49 ، 52 .

وكان نتيجة لهذا التحول . أن بدأ معين الغنائم التي كان المرابطون يحصلون عليها . من حملاتهم في أراضي تلك الإمارات ينضب . وفي نفس الوقت كانوا في حاجة إلى موارد مالية . لتجييش العساكر لصد الحملات المسيحية . فكان أن لجأ علي بن يوسف في أوائل عهده إلى فرض الضرائب على السكان [7] .

وبعد ذلك بقليل . أي في سنة 515 هـ / 1121م اندلعت ثورة الموحدين في المغرب . مما ضاعف التزامات المرابطين العسكرية والمالية . حين أصبح المرابطون يحاربون على جبهتين الأولى في الأندلس والثانية في المغرب . فاضطرت الدولة أن تقسّط على السكان في العدوتين . عدد الجند الذي يصد حملات المسيحيين و الموحدين [8]. كما أن نفقات إقامة التحصينات تَحَمّلها السكان أيضا . مع ما رافق هذا من كوارث طبيعية كالجفاف . أدت إلى قلة الجبايات . فأثر ذلك على مداخيل خزينة الدولة التي أصبحت في أزمة مالية [9] . فكان لابد لها أن تضاعف الضرائب على السكان في الأندلس والمغرب .

شملت هذه الضرائب القطاعات الإنتاجية الرئيسية . حيث زيدت القبالات على الأراضي الزراعية . وفرضت ضرائب على الإنتاج الرعوي . هذا فيما يخص القطاع الفلاحي [10] . ونفس الشيء حدث بالنسبة للقطاع الصناعي " ففرض (علي بن يوسف) على كل الصناعات قبلات " [11]. كما فرضت على التجارة . سواء منها الداخلية أو الخارجية مكوس . في هذه الفترة الثانية من عصر المرابطين بأن " فرضت الدولة ضرائب على كل السلع . بل إن الضريبة كانت تؤخذ أكثر من مرة . مرة من البائع وأخرى من المشتري " [12] .

وقد زاد الطين بلة . الوسائل التي كانت تتبع في جباية هذه الضرائب . فقد كان على كل من وجبت عليهم هذه الضرائب . أن يدفعوا أجور العاملين على جبايتها من خراص وقباض [13]. كما أن المرابطين أوكلوا جباية هذه الضرائب . في بعض مناطق الأندلس . إلى جباة يهودا [14]. أما في المغرب .

---

7 - عز الدين موسى . ص 166 .

8 - ابن القطان . نظم الجمان .عن التقسيط لرد حملات النصارى . زاجع ص 109. وعن الموحدين . ص 226 .

9 عز الدين موسى . ص 166 .

10 - نفسه . ص 168 .

11 - نفسه . ص 210 .

12 - نفسه . ص 266. 267. 268. 269 .

13 - نفسه . ص 170. 171.

14 - نفسه . ص 171 .

فـقـد أسـنـدت هـذه المهـمـة . أحـيـانـا . إلى الجـنـد المسـيـحـي في الجـيـش المرابطي الذين كـانوا " يأخـذون مـالهـم فـيـه من الأموال المقـررة من جـهـة السـلطان " [15]. كـمـا أسـنـدت في أحـيـان أخرى إلى الجـيـش بصفة عامة .

1 ـ ج ـ تيار التصوف والمتذمرين من الجبايات

هذا ما كان يعانيه عامة السكان من طرف الدولة المرابطيـة وعمالها . وبالمقابل فإن ما كانوا يلقـونه من طرف المتـصوفـة هو نقـيض ذلك . فالمـصادر تحـدثنا عن أن الناس . كـانوا يلتـجئـون إلى المتصـوفة . كلمـا تعرضوا لجـور العمال أو أحـسوا أنهم سـيتعـرضون له . وقد أورد ابن الزيات روايات متعددة في الموضوع . وإن كانت تحمل طابع الكرامة [16]. كما كان المتصوفة يحسون هموم الفقراء . ويحاولون مـسـاعـدتهم . خاصة في أوقـات الشدائد والجـاعات . فينـفـقـون عليـهم من كسـبهم [17]. وإليك بعض ما جاء في ترجمة أبي العباس السبتي في هذا الباب . فقد كان " محسنا إلى المساكين واليتـامى والأرامل . يجلس حيث أمـكنه الجلوس في الأسـواق والطرق . فـيحض الناس على الصـدقة ويأتي بما جـاء في فـضـيلتـها مـن الآيات والآثار . فتنثـال عليـه الصدقـات فـيفـرقـها على المسـاكين

---

15 - النويري . تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط . ص 400 .

16 - منها قـوله : " حدثني هارون بن عبـد الحليم قال : حدثني خـالي يحيى بن أبي النور أن يغالّنْ بن عـمر [...] جاء إلى عبد الله بـن وكريس فقال له : إن عامل علي بن يوسف [بن تاشفين] هددني بالقـتل والصلب وقد خرج من مراكش إلى دكالة فقال له أبو ينور : رده الله عنك ! فسار إلى أن بقي بينه وبين قرية بِلَيْسْكَاوْنْ نصف ميل . فأصـاب العامل وجع قضى عليـه من حينه بالموت " التـشـوف . ص 130 .131. وأخرى تقول : " ولي بـعـض عمال علي بن يوسف على اخوة تُنْفِيتْ . فخـافوا من جوره عليهم وأرادوا أن يحرضوا عليه الشـيخ [تُنْفِيتْ اليرصجي] ليدعـو لهم عليه . فلما وصلهم العامـل من مراكش جاؤوا إليه وقـالوا له : إن هذا الشيخ العابد قال فـيك كذا وكـذا . فبعث إلـيه العامل وقال له : يا شيخ ما لي ولك . إنك تقـول إني أطالب الناس بما لا يجب عليهم . وأغلظ له في القـول . وكـان الشيـخ بريئا مما نسب إليه قومه . وقصدوا به دعاءه على العامل فغضب الشـيخ وقال له : ما لك إلي ؟ صرفك الله عنا بصـارف من قدرته ! ثم تحول عنه إلى داره . فـجاء كتاب السلطان إلى العـامل بالعزلة . فلم يؤدوا في ذلك العام شيئا " ص 151. وللمزيد انظر . 187 . 188 .442 .

17 - انظر ما فعله المتـصوف عمر الصنهاجي خلال مـجاعة 535 هـ . وقد تزامنت مع التصـعيد العسـكري بين المرابطين والموحدين . ابن الزيات . ص183. وهنـاك أمثلة أخرى متعددة ترجع إلى العصر الموحدي . ص 24 . 245 . 246 .429 .

وينصرف" [18] . حتى قال عنه ابن رشد الفيلسوف : " هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود " [19].

لعل موقف المتصوفة هذا من عامة الناس . شجع الأوائل على استقطاب الأخيرين . لينخرطوا في تيار التصوف . فقد كان المتصوفة يشعرون بتذمر عامة الناس . ولعل ذلك ما جعل بعض المتصوفة ذوي الطموح السياسي . يستغلون هذه الوضعية . ويخرجون عن أموالهم للعامة ويعدونهم بالأموال الطائلة . كما سنرى .

ويظهر جليا استقطاب تيار التصوف للفقراء من خلال قراءتنا لتراجم بعض المتصوفة . فقد كانوا أنفسهم ينتسبون إلى الفئات الاجتماعية الدنيا . ولنضرب لذلك هنا مثالين فقط . وهما على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن أحدهما برز في ميدان الفكر الصوفي . والآخر برز في العمل السياسي لصالح تيار التصوف .

أما الأول فهو أبو العباس ابن العريف . الذي يقول عنه ابن الأبار أن أباه : " مسته الحاجة فرفعه في صغره إلى حايك يعلمه " [20] . ويبدو أن والده فعل ذلك . إما لأنه لم يستطع تحمل مصاريف تعليم ولده . أو لأنه كان في حاجة لما يمكن أن يحصل عليه ابنه من عمله في الحياكة .

ومع هذا فقد استطاع ابن العريف أن يتعلم رغم أن أباه " كان ينهاه ويخوفه ودار له معه ما كاد يتلفه " [21] . ثم انخرط في تيار التصوف . وبعد صيته فيه حتى " كثر أتباعه على طريقته الصوفية " [22].

أما الثاني فهو ابن هود المعروف بالماسي . الثائر على الموحدين برباط ماسة . والذي يقول

---

18 - نفس المصدر . ص 452، 454 . وقد عاش أبو العباس بين 524 و 601 هـ . وتتلمذ على الشيخ أبي عبد الله الفخار . وصحب الفقيه القاضي عياض . فهو مخضرم بين العصرين المرابطي والموحدي .

19 - نفسه .

20 - ابن الأبار . المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصدفي . مدريد 1885 ص 18. و يقول أبو العباس السبتي عن انتمائه الإجتماعي : " أول أمري كنت بمدينة سبتة يتيما . وكانت أمي تحملني إلى البزازين . فأفر منهم إلى مجلس أبي عبد الله الفخار . فتضربني . إلى أن قال لها أبو عبد الله الفخار : لمَ تضربين هذا الصبي ؟ فقالت له : إنه يتيم ويأبى أن يعمل شغله . وليس عندي شيء . فقال لي يا بني : لمَ لا تفعل ما تامرك به أمك ؟ فقلت له : إنما أحب هذا الكلام الذي أسمعه منك . فقال لها : اتركيه وأنا أدفع لك قدر أجرته وأدفع عنك للمعلم الذي يقرئه أجرته ... " ابن الزيات . ص 459 .

21 - ابن الأبار . المعجم . ص 18.

22 - نفسه . ص 19.

البيذق عن أبيه أنه كان خياطا [23]. في حين يقول ابن عذاري أن أباه كان دلالا . أما عنه هو فيقول ابن عذاري أنه كان قصارا [24] ويتفق معه في ذلك صاحب الحلل الموشية [25] . بينما يصفه ابن خلدون بأنه " تأثر من سوقة سلا " [26] . ولا يخفى أن لفظ سوقة . يعني الأشخاص الذين ينتمون إلى الفئات الاجتماعية الدنيا .

قصارى القول . أن تركيز الثروة في أيدي فئات معينة . من بعض الفقهاء وقادة وعسكريين وأسر كبيرة . و فرض ضرائب مرتفعة القيمة على عامة الناس . أضف إلى ذلك طريقة جبايتها التي صاحبتها بعض التجاوزات . قد أثارت حنق الفئات التي وقع عليها هذا الثقل .

وقد استغل هذه الوضعية بعض الفقهاء الناقمين على السلطة المرابطية كابن تومرت . وبعض المتصوفة . كابن قسي الذي استغل سوء الوضع الضرائبي في الأندلس . حيث أنه كان عاملا على الجباية في شِلْبَ بغرب الأندلس . فتقرب إلى العامة . حين خرج لهم عن ماله وتصدق به وقام بزعامة ثورة المريدين . ولعل العامل الاجتماعي في ثورته . يبدو واضحا . من خلال ما تخلف لنا من قليل شعره . حين يقول :

ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا عن الظلم لما جرتم بالمظالم [27]

وعن الفئات الاجتماعية التي استجابت لثورته ودعوته . وعن أساليب الإغراء المادي التي اتبعها لاستقطاب الأتباع . من إسقاط الضرائب والخراج وتوزيع المال . يقول ابن الخطيب "واتصل به الأشرار . وأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج . وكان إذا أعطى يحثو بيده من غير عدد وكان أكثر أصحابه يقولون للناس إن المال يتكون عنده إذا فرغ " [28] . أما عن الفئات الاجتماعية التي استجابت لدعوة وثورة ابن هود الماسي . فيقول ابن خلدون " فأقبل إليه الشرار من كل جانب وانصرفت إليه

---

23 - البيذق . أخبار المهدي بن تومرت . ص 67.

24 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد ابراهيم الكتاني . محمد بن تاويت . محمد زنيبر وعبد القادر زمامة . ط 1. 1985. ص 30 .

25 - الحلل الموشية . ص 146 .

26 - ابن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . المجلد السادس القسم الأول . بيروت 1983. ص 479 .

27 - ابن الأبار . الحلة السيراء . ص 400 .

28 - ابن الخطيب . كتاب إعمال الإعلام . أو تاريخ إسبانيا الإسلامية. تحقيق وتعليق ليفي بروفنصال . ط2 . بيروت . 1956. ص 250 .

وجوه الأغمار من أهل الآفاق"[29] . ولا يخفى أيضا أن لفظي الأشرار والشرار . تعنيان الأشخاص المنتمين إلى الفئات الاجتماعية الدنيا .

2 ـ الجانب الايديولوجي في ثورة المتصوفة :

مهما قيل عن العامل الاجتماعي في ثورة المتصوفة . في الأندلس والمغرب . خلال فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . فإن هذا الجانب . لا يمكّن . وحده . من فهم هذه الفترة من تاريخ الغرب الإسلامي . وبالأحرى تفسير هذه الثورة . ذلك أن الاقتصاد في المجتمعات ما قبل الرأسمالية . كما يقول جورج لوكاتش . لم يكن قد وصل بعد إلى مستوى يجعل " الوعي الطبقي" يظهر بوضوح . ويؤثر بوعي في الحوادث التاريخية[30]. لذلك كان لا بد من الاتجاه نحو التعرف على الفكر الذي رافق هذه الثورة . لأنه لا يكفي تلمس البنى التحتية للتاريخ الإسلامي فقط . لفهم حركة هذا التاريخ . بل لا بد من معرفة وتحليل للفكر الإسلامي . لمن يريد كتابة هذا التاريخ .

والواقع أن أي تحليل للفكر العربي الإسلامي . سيظل ناقصا . ما لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر[31]. إذن فالسؤال المطروح هو . ما هي علاقة السياسة بالفكر الصوفي في الأندلس والمغرب . خلال فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ؟

2 ـ أ ـ التصوف والسياسة .

معلوم أنه خلال أغلب عصور التاريخ الإسلامي . ومنذ عصر الدولة الأموية . كان اتجاه دولة الخلافة الرسمي اتجاها سنيا . بينما المعارضة كانت توظف الفكر الخارجي أو الشيعي . وبعد تراجع الخوارج من على خشبة مسرح السياسة الإسلامية . بقي الصراع أساسا بين دولة الخلافة السنية العباسية والشيعة بمختلف فرقها . إلى أن أقام الشيعة دولا لهم . خاصة الدولة الفاطمية .

وقد كان قيام الدولة المرابطية السنية المالكية المذهب . في المغرب والأندلس . يستهدف

---

29 - العبر . ص 480 .

30 - نقلا عن محمد عابد الجابري . نحن والتراث . دار التنوير . بيروت . المركز الثقافي العربي . الدارالبيضاء 1985 . ط 4 . ص 329 .

31 - الجابري . تكوين العقل العربي . ص 346 .

القضاء على بقايا الخوارج البرغواطية في المغرب . وكذا تطويق المذهب الفاطمي الإسماعيلي الباطني في الغرب الإسلامي . وذلك عن طريق توظيف المذهب المالكي . حتى أن الأستاذ عبد الله العروي يرى . أنه ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء الفقهاء المالكية الأوائل . الذين خططوا لقيام الدولة المرابطية . ابتداء من أبي عمران الفاسي إلى وجاج بن زلو اللمطي إلى عبد الله بن ياسين . سلسلة من الدعاة المالكيين العباسيين [32] .

لكن مهما كان أثر الفكر الإسماعيلي الفاطمي الباطني في الغرب الإسلامي . ومهما كان رد فعل فقهاء المالكية ضد هذا الفكر . فإن الأستاذ الجابري يرى أن المغرب والأندلس ظلا على "طريقة السلف" أي الايديولوجية السنية في صورتها الأولى السابقة على الصياغة الأشعرية لها . من هنا تلك الظاهرة التي يسميها المؤرخون المعاصرون " تزمت الفقهاء " [33]في الأندلس والمغرب . إلا أننا نتفق مع الأستاذ الجابري على أن هذا الحكم يصدق على عامة سكان الغرب الإسلامي ولا يصدق على خاصتهم . بمعنى أن " المثقفين " كانوا على اطلاع على المذاهب العقائدية . ومنهم فقهاء عاشوا في البلاط المرابطي أو قريبين منه . كما سبق أن عرفنا . فقد كان الجهاز السياسي والإداري للمرابطين خاضعا لنفوذهم . باعتبارهم منظري سياسة الدولة .

لكن ما علاقة المتصوفة برد فعل الفقهاء المالكية على بقايا الفكر الإسماعيلي الفاطمي في الغرب الإسلامي . وما علاقتهم أيضا ب " تزمت " هؤلاء الفقهاء ؟

كان التصوف قد ظهر منذ مدة مبكرة . في الأندلس والمغرب . ومعلوم أن كلا من مدينتي المرية وأغمات كانتا مركزين للتصوف . إلا أن هدفنا هنا ليس هو البحث في جذور التصوف بالأندلس والمغرب . بل رصد بعض مظاهر تحول هذا التصوف من ولاية روحية إلى زعامة سياسية . تطمح إلى الوصول إلى السلطة . خلال القرن السادس الهجري . وبالأخص خلال ما بين عصري المرابطين والموحدين .

بما أن الدولة المرابطية المالكية كانت سنية . وحين أصبح التصوف ــ كما سبق ــ يعبر عن تذمر الفئات الاجتماعية الدنيا . أي يعارض سياسة الدولة . كان لا بد له أن يتبلور ويوظف فكرا آخر .

32 - L'histoire du Maghreb . Tome 1 p . 147

33 - الجابري . تكوين العقل العربي . ص 298 . وانظر السؤال الذي ورد على ابن رشد الفقيه . المتوفى سنة 520 هـ . من أحد الأمراء المرابطين . يسأل هل الأشاعرة مالكيون وهل بعض فقهاء المغرب أشاعرة ؟ وقد علق الأستاذ إحسان عباس على ذلك بقوله أن هذا " مما يدل على ضيق أفق أتباع المذهب المالكي بعلم الكلام " إحسان عباس . نوازل ابن رشد . مجلة الأبحاث . الجامعة الأمريكية . بيروت . 1969. ج3 / 4 . ص 3 - 63 . راجع ص 10. 11. 20 . إلا أننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ عباس . لأنه لا يمكن تعميم جهل أحد الأمراء على كل " مثقفي " العصر المرابطي . راجع ما كتبناه في الفصل الثاني تحت العنوان الجانبي " مناظرة مراكش " .

غير فكر الدولة الرسمي ، في معارضته لسياسة هذه الدولة .

ومع أن الأستاذ الجابري يرى أن الصراع بين السنة والشيعة كان صراعا سياسيا ، بينما النزاع بين أهل السنة والمتصوفة كان نزاعا معرفيا محضا ، وأنه إذا كانت تبرز أحيانا على سطح هذا النزاع مظاهر سياسية ، فلقد كانت دوما داخل دائرة الايديولوجيا العامة للدولة السنية لا خارجها [34]. إلا أنه غير خاف أن هذا لا يصدق إلا على العهود الأولى من تاريخ التصوف الإسلامي ، بينما تغير الوضع ، خاصة في القرن السادس الهجري ، وبالأخص في المغرب والأندلس ، والأستاذ الجابري نفسه يعود في مكان آخر ليقرر ، أن تيارات الشيعة والمتصوفة كانت ذات علاقة عضوية بالسياسة ، ومن ثم فقد عملت على توظيف " الباطن " على الصعيدين للعقدي المذهبي والسياسي التنظيمي [35] .

إذن لم يعد التصوف يتحرك داخل دائرة السنة فقط ، بل بدأ يرفد من الفكر الشيعي ومن الباطنية .

2 ـ ب ـ علاقة التصوف بالتشيع ما بين عصري المرابطين والموحدين :

سبقت الإشارة إلى أن التصوف حين تحول ، في الأندلس والمغرب ، وأصبح يعبر عن تذمر الفئات الاجتماعية الدنيا ، فقد أصبح يتخذ موقفا سياسيا من سياسة الدولة المرابطية ، لذلك كان عليه أن يصدر في رؤيته للسلطة السياسية العليا عن مصدر غير الذي تصدر عنه الدولة المرابطية السنية ، لهذا اتجه نحو التشيع ، يستعير منه بعض مبادئه لبناء نظريته في السلطة .

إن صلة التصوف بالتشيع أصبحت الآن حقيقة تاريخية لا غبار عليها ، بعد أن أثبت ذلك الأستاذ كامل مصطفى الشيبي ، في بحثه القيم عن الموضوع [36] ، لذلك فإننا في هذا العمل سنكتفي ، بمحاولة تلمس بعض عناصر الفكر الشيعي الباطني ، التي وظفها زعماء ثورة المتصوفة ، خلال فترة الانتقال ، في صراعهم السياسي مع المرابطين والموحدين .

ـ الإمامة الشيعية والولاية الصوفية

ولعل أول هذه العناصر الفكرية ، هي قضية الإمامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية .

34 - تكوين العقل العربي ، ص 275 .

35 - الجابري ، بنية العقل العربي ، ط1 ، الدارالبيضاء 1986، ص 279 .

36 - انظر كتابه الصلة بين التصوف والتشيع في جزءين ، ط3 ، دار الاندلس ، بيروت 1982.

فمعلوم أن الإمامة عند الشيعة قضية أصولية . فهي ركن من أركان الدين وهي بالتعيين والنص . عكس أهل السنة الذين قالوا بأنها مصلحية أي من المصالح الدنيوية العامة وهي بالاختيار والشورى . يترتب عن هذا أن الامام الشيعي فقيه وزعيم سياسي وقائد روحي في نفس الوقت . بينما " الولي الصوفي فإن الموهبة الأساسية التي يدعيها والمهمة الرئيسية التي يمارسها هي القيادة الروحية . أما الفقه والسياسة . فهو من الناحية المبدئية لا يهتم بهما . وإن كان كثير من الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية قد جعلوا من قيادتهم الروحية زعامة سياسية " [37] .

فقد تأثر التصوف بالولاية الشيعية التي مثلها أئمة الشيعة " مما جعل الولاية الصوفية تتطور بسرعة إلى " دولة باطنية " خاصة بعد القرن السادس الهجري " [38] . وهكذا تتطابق الولاية والإمامة حتى تصير شيئا واحدا [39] .

والمصادر القليلة التي تخلفت لنا عن ثورة المتصوفة خلال فترة الانتقال . سواء في الأندلس أو المغرب . تثبت توظيف هذه القضية من عناصر الفكر السياسي الشيعي . قضية الولاية والإمامة في الصراع السياسي بين المتصوفة والمرابطين وبين المتصوفة والموحدين . فابن الخطيب يقول عن ابن قسي : " وابتنى . رابطة بقرية جلة من قرى شلب . كان يجمع بها دائرته التي دارت بها على الأندلس دائرة السوء وادعى **الولاية** " [40] . وفي مكان آخر " وبث للحين عقيدته وتسمى **إماما** وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين " [41] . وابن الأبار يقول عنه أيضا : " ثم ادعى **الهداية** مخرقة وتمويها على العامة وتسمى **بالإمام** " [42] . أما عن ابن هود الماسي زعيم ثورة المتصوفة في المغرب ضد الموحدين فيقول ابن عذاري : " فادعى **الهداية** وسمى نفسه **بالهادي** " [43] . ومعلوم أن الهداية أو المهدية مرتبطة بالإمام الشيعي المنتظر . وإن كانت مهدية ابن هود . كما سنرى . ليست شيعية محضة بل هداية صوفية باطنية .

هكذا إذن يتضح التوظيف السياسي الايديولوجي للإمامة عند المتصوفة . والتي تحولت من

---

37 - بنية العقل العربي . ص 355 .

38 - الجابري . المصدر السابق . ص 357 .

39 - كامل مصطفى الشيبي . الصلة بين التصوف والتشيع : العناصر الشيعية في التصوف . دار الأندلس . بيروت 1982. ط3 . ج 1 . ص 384 .

40 - كتاب إعمال الإعلام . ص 249 .

41 - نفسه . ص 250 .

42 - الحلة السيراء . ص 197.

43 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 30 .

مجرد ولاية دينية روحية إلى زعامة سياسية .

وكما هو معلوم فالقول بالإمامة في الفكر الشيعي ، يستتبع بالضرورة القول بعناصر أخرى تترتب عنها . كالعلم اللدني والعصمة والكرامة والتقية والصحبة والمهدية . فهل وظف متصوفة فترة الانتقال ، هذه العناصر مما يثبت صدورهم عن تيار التصوف المتشبع بالفكر الشيعي ؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في حدود ما تقدمه المصادر من معلومات شحيحة عن ثورتهم .

ـ علم الإمام الشيعي والعلم اللدني الصوفي :

معلوم أيضا أن القول بالإمامة عند الشيعة ، يلغي الأصلين اللذين يعتمدهما أهل السنة ، في التشريع ، بعد الكتاب والسنة ، وهما الإجماع والقياس . لذلك تصبح أصول التشريع عند الشيعة هي الكتاب والسنة وعلم الإمام . ومن ثم قالت الشيعة بأن أئمتها " يندمجون على العلم الذي أخذوه عن جدهم النبي صلى الله عليه وسلم [...] . وهذا العلم اللدني هو الذي دخل التصوف وصار المتصوفة مندمجين عليه . " [44] . ويتضح أن زعماء ثورة المتصوفة ، خلال فترة الانتقال ، قد عملوا على توظيف هذا " العلم اللدني " في صراعهم مع المرابطين والموحدين .

فمن خلال بعض تراث ابن قسي الشعري الذي وصلنا ، يمكن أن نشم رائحة هذا " العلم اللدني " . فقد كان يقول : " أنشدني ربي في المنام ! " .

أردد على قوس العلى أوتـــاره	وارم العدا بسهامها العمارة
وانفض يديك بشلب مفتاح البلا	د المنجبات وأمها المختـــارة
ويكون ذاك إذا تكاثرت العـــدا	وتملأت قنن الجبال نصـــاره [45]

وواضح من هذه الأبيات أن ابن قسي يدعي اندماجه على " العلم الإلاهي " ، وأنه كان يتلقى تعاليمه من الله في المنام ، فهو الذي " أوحى " إليه ـ حسب رأيه ـ أن يقوم بثورته على المرابطين ، وأن ينتزع منهم بلدته شِلْب .

ويبدو أنه كان يؤاخذ على هذا الإدعاء ، لكن الطريف أنه كان يصر كل زعمه ، فقد جاء عند

44 - كامل مصطفى الشيبي ، ص 409 .

45 - ابن الخطيب ، إعمال الإعلام ، ص 252 . ويبدو أن تراث ابن قسي كان ما يزال موجودا إلى عهد ابن الخطيب ، فهو يقول : أنه كانت له رسائل معروفة ، نفس الصفحة ، لكن للأسف لم تصلنا .

ابن الخطيب أنه " لما نُقِدَ عليه قوله في نصارى نصاره ، غضب وقال كذا قال لي نصاره ، فمضى على هذا السبيل " [46] .

ونفس هذا " العلم الإلاهي " أيضا كان يوظفه ابن هود الماسي في ثورته على الموحدين ، وليجعل أتباعه على يقين من أنه مؤيد ، وأنه سينتصر وأن الموحدين لن يستطيعوا قتله . فقد جاء في رسالة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية [47] ، عن قائد الحملة الموحدية على ابن هود وأتباعه ، أبي حفص عمر الهنتاتي ، الذي بعثها إلى الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي ما يلي : " وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه والنوائب لا تنوبه ، ويقول في سواه قولا كثيرا ويختلق على الله تعالى إفكا وزورا " [48] ، وواضح أيضا أنه يزعم أن البشرى تأتيه من الله ، وإن كان لم يحدد في أي حال كان يحدث له ذلك ، أفي الصحو أم المنام ، كما فعل ابن قسي .

ـ العصمة الشيعية والحفظ الصوفي

أما العصمة ، فمعلوم أن الشيعة أسبغوها على الأئمة ، بينما المتصوفة قالوا بها ، لكن على صورة غير مباشرة فسموها بالحفظ [49] ، ولئن حاولنا أن نبحث لها عن تطبيق في سلوك متصوفة فترة الانتقال ، فإن ذلك يعسر إثباته بشكل قاطع ، نظرا لندرة المعلومات التي وصلتنا عن فكر هؤلاء ، فكل ما وصلنا عنهم ، إنما جاء عرضا واستطرادا ، لذلك لم نعثر على نص صريح في العصمة ، و إن كان يمكن أن نخرج النص السابق عن ابن قسي ، حين انتقد عليه قوله " نصاره " فغضب ، على أنه يلمح إلى وجود فكرة العصمة أو الحفظ عنده ، فغضب ابن قسي راجع إلى اعتقاده بأنه لا يجوز عليه الخطأ فهو محفوظ ، ونفس التخريج يمكن أن نقوم به مع نص آخر ، ذكره ابن الخطيب ، عن رجل من البادية أعطاه ابن قسي مالا فقال لبعض أصحابه " عجبا لهذا المال الذي

---

46 - نفس المصدر والصفحة .

47 - عن ابن عطية ومصادر ترجمته ، انظر عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية للأعلام ، مطبوعات وزارة الأوقاف ، 1975، ج 2 ، ص 62 ، 63 .

48 - أحمد عزاوي ، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية ، القسم الثاني ، ص 13. وقد وردت هذه العبارة عند ابن الخطيب في الإحاطة كما يلي " وكان يدعي أن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه ويزعم أنه يبشر بذلك والنوائب لا تنوبه ويقول في سواه قولا كثيرا ويختلق علي الله إفكا وزورا " . الإحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة القاهرة ، 1973، ج 1، ص 269 - 270 .

49 - كامل مصطفى الشيبي ، ص 414 .

يصل الإمام من السماء . كيف عليه طابع المرابطين . ولم يكن عليه غير ذلك . ونقل له الحديث فكان آخر العهد بذلك الرجل " [50] . فلعل ابن قسي صفى هذا البدوي لأنه شك في " عصمة " الإمام الذي يكذبُ على أصحابه .

ـ الكرامة

أما الكرامة . فمشهور صدورها عن المتصوفة . ويكفي إلقاء نظرة على تراجم متصوفة القرن السادس الهجري . في كتاب التشوف لابن الزيات . للتعرف على كراماتهم المتعددة . واتصال المتصوفة بالتشيع في الكرامة . وإضافتها إلى الأولياء من الصوفية . والأئمة من الشيعة . حقيقة ظاهرة [51] . وحول هذا الاتصال والتشابه الواضح حتى في نوع الكرامة بين الشيعة والمتصوفة . نعطي مثلان فقط عن كل منهما . وكلاهما كرامة تتعلق بالمال . فقد روي عن الإمام محمد بن الحسن المهدي أنه " حك الارض بالسوط فاستخرج خمسمائة دينار" أهداها لأحد الشيعة " [52] . وروي عن ابن قسي أنه " أجزل العطاء [...] . وكان إذا أعطى يحثو بيده من غير عدد " [53] . واشتهر عنه أنه " ينفق من الكون " [54] .

ـ التقية

أما التقية . وإن كانت مبدأ إسلاميا بصفة عامة . ظهر منذ عهد النبي ﷺ . حين أقر عمار بن ياسر على التظاهر بالشرك وشتم النبي . ما دام قلبه مطمئن بالإيمان . وحياته مهددة بالخطر . إلا أن بعض فرق الشيعة لظروف تاريخية . كانوا أكثر من تبني هذا المبدأ . من الفرق الاسلامية . حتى أن

---

50 - إعمال الإعلام. ص 251.

51 - الشيبي . المصدر السابق . ص 427 .

52 - نفسه . ص 425 .

53 - ابن الخطيب . إعمال الإعلام . ص 249 . 250 .

54 - نفسه .

الإمام الباقر قال " جعلت التقية ليحقن بها الدم " [55] . والتقية ليست إلا مجاراة للمجتمع في عقائده وامتناعا عن إثارته " وبذلك تكون التقية من لوازم الصوفية في الظروف التي يخشى عليهم فيها من ثورة الناس أو السلطان " [56] . وهذا ما مارسه ابن قسي حيث " أقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر . وهو يستجلب أهل هذا الشأن . محرضا على الفتنة وداعيا إلى الثورة في الباطن [...] . وطُلب فاستخفى " [57] . وعن نفس الموضوع يقول ابن الخطيب " كان هذا الرجل من مشايخ الصوفية [...] . وكانت هذه الطائفة قد كثرت [...] . وكثر خوضهم في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية والكلف برسائل إخوان الصفا وأمثال ذلك [...] . وحذروا صاحب الدولة فتفرقوا " [58] .

ـ الصحبة

أما الصحبة . فهي تعني أن يكون للمريد شيخ يسدد خطاه . على الصورة التي يتلقى بها الشيعي عن إمامه المعصوم . ومن هنا يتضح أن المتصوفة اتخذوا جانب التشيع في أن العلم يؤخذ عن أشخاص لا عن كتب . وذلك مترتب عن مبدإ الإمامة . وبذلك يتضح كنه الصحبة الصوفية وصدورها عن التشيع .

وقد وردت هذه الكلمة في بعض الأخبار التي وصلتنا عن متصوفة فترة الانتقال . وزعماء الثورة . فقد كان من أصحاب ابن قسي رجل يعرف بابن المنذر . يقول عنه ابن الأبار : " كانت بينهما صحبة وصداقة " [59] . وآخر ويدعى محمد بن يحيى وعرف بابن القابلة وكان " كاتب ابن قسي وصاحبه " [60] . ففي سنة 539 هـ / 1144م . " أشار من موضع استخفائه على أصحابه المريدين . أن يسيروا مع محمد بن يحيى وكان يسميه بالمصطفى [...] وأمرهم أن يغدروا قلعة ميرتلة " [61] .

55 - الشيبي . ص 434 .

56 - نفسه . 435 . 436 .

57 - ابن الأبار . الحلة السيراء . ص 197. وانظر أيضا ابن الخطيب الذي يقول أن ابن قسي قبل أن يعلن ثورته كان قد اختفى في قرية من أعمال ميرتلة . إعمال الإعلام . ص 250.

58 - ابن الخطيب . إعمال الإعلام . ص 249 .

59 - ابن الأبار . الحلة السيراء . ص 203 .

60 ـ نفسه . ص 206 .

61 - نفسه . ص 198 .

ولعل الصحبة هنا تعني صحبة المريد للشيخ ، كما نعني صحبة التنظيم السياسي السري كما هو الحال بين ابن المنذر وابن القابلة مع ابن قسي .

ـ المهدية الشيعية والهداية الصوفية

وأخيرا نصل إلى فكرة المهدية ، وهي من المثل الشيعية التي تترتب عن الإمامة ، فقد دخلت التصوف وأصبحت الولاية تنتهي بالمهدية ، وقد حدد الأستاذ الشيبي زمان هذا التداخل أوائل القرن الرابع الهجري مع الحلاج المتصوف المعروف [62] . وقد وجدناها في القرن السادس الهجري تظهر بشكل جلي ومثير في الأندلس والمغرب ، ابتداء من فترة الانتقال ، يقو ابن خلدون : " حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية ، الكلام في الكشف وفيها وراء الحس [...] وأشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم ، حتى جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن عليا رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري [...] وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية ، يفهم منها ومن غيرها من القوم دخلهم في التشيع وانخراطهم في سلكه ، وظهر منهم أيضا القول بالقطب ، وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل هذا الفاطمي المنتظر ، وكأن بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض " [63] .

وقد وظف زعماء ثورة المتصوفة ، خلال فترة الانتقال ، هذه الفكرة في صراعهم السياسي مع كل من المرابطين والموحدين ، فابن قسي الذي يقول عنه أحد مؤرخي الموحدين أنه " ادعى الهداية مخرقة وتمويها على العامة " [64] ، صنف كتابا تكلم فيه عن المهدي المنتظر ، فقد جاء عند ابن خلدون : " وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين ، وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واصل وتلميذه

62 - الصلة بين التصوف والتشيع ، ج 1 ، ص 496 .

63 - ابن خلدون ، المقدمة ، منشورات الاعلمي ، بيروت ، دون تاريخ ، ص 323 .

64 - ابن الأبار ، الحلة ، ص 197. وانظر أيضا عن مهدية ابن قسي ، المراكشي في المعجب ، ص 309. وابن الخطيب ، في إعمال الإعلام ، ص 249 .

في شرحه لكتاب خلع النعلين " [65] . وقد وصلتنا نتف من آراء ابن قسي في المهدية بشرح ابن أبي واصل من خلال ما نقله ابن خلدون.[66]

وأهم ما يمكن تسجيله في هذا الصدد هو عدم تقيد ابن قسي . باشتراط القرشية والنسب العلوي في المهدي المنتظر . بل يمكن أن يكون " من كان من حقيقة الآل " [67]. أي صوفيا باعتبار الولي الصوفي وارثا روحيا للنبي . وبما أن الأفكار البشرية بنات شرعيات للواقع . فلعل تعليل هذا الرأي الذي ذهب إليه ابن قسي . يكون بالتعرف على انتمائه العرقي . فقد قال عنه ابن الأبار " وهو من أصل رومي من بادية شلب" [68] . فهو إذن لا تتوفر فيه لا القرشية ولا النسب العلوي لذلك ألغاهما .

أما ابن هود زعيم ثورة المتصوفة على الموحدين . خلال فترة الانتقال . فهو أيضا قد " ادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي واستقر برباط ماسة " [69]. وتؤكد الرسالة التي سبق ذكرها على أن انطلاقة عمله السياسي والعسكري كان من رباط ماسة [70] . في حين أن أصله كان من مدينة سلا.

---

65 - المقدمة . ص 223 . وقد جاء عند الأستاذ الشيبي . عند حديثه عن مهدية ابن عربي . أن تلاميذ هذا الأخير قد تناولوا أفكاره في التصوف والمهدية وبحثوها وشرحوها وربما عدلوها . ويضيف " وقد وصلنا من ابن خلدون أن ابن قسي وعبد الحق بن سبعين وتلميذه ابن أبي واصل قد قاموا بهذه المهمة " لكن الثابت تاريخيا أن ابن قسي عاش قبل ابن عربي . فالأول قام بثورته المعروفة بثورة المريدين سنة 539 هـ . بينما الثاني عاش ما بين 560 و 638 هـ فالأصح هو أن ابن عربي تلميذ ابن قسي . وإن لم تكن تلمذة مباشرة أي علاقة شيخ بمريد . لأن ابن قسي قتل سنة 546 هـ فقد يكون ابن عربي على الأقل اطلع على كتاب خلع النعلين لابن قسي . وواضح جدا أن الذي أوقع الأستاذ الشيبي في هذه الهفوة الصغيرة . هو نص ابن خلدون الذي اقتطفناه في المتن . فقد ذكر فيه ابن قسي وابن عربي دون ترتيب زمني منطقي . ومن ثم اعتقد الأستاذ الشيبي أن ابن قسي تلميذ ابن عربي .

66 - نفسه . ص 324 . 325 . حصلنا بعد فراغنا من إنجاز هذا العمل . على نسخة من مخطوط هذا الكتاب وقد حققه مؤخرا الدكتور محمد الأمراني أطروحة نال بها دكتوراه الدولة . ونشره بمطبعة IMBH بآسفي سنة 1997 . ثم أهدانا . مشكورا نسخة منه . وحصلنا كذلك على نسخة غير كاملة من مخطوط الإرشاد في تفسير القرآن و نسخة من مخطوط ترجمان لسان الحق المبثوث في الأمر والخلق . لابن برجان . ونسخة من مخطوط سراج المريدين لابن العربي . ونحن بصدد تحقيق الكتاب الأخير .

67 - المقدمة . ص 324.

68 - الحلة . ص 197. وإذا كان ابن قسي قد ألغى القرشية والنسب العلوي . فإن ابن تومرت فعل العكس . حيث اصطنع لشخصه نسبا فاطميا عند إعلان ثورته . كما سبق أن عرفنا .

69 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 30. وصاحب الحلل الموشية . يقول عنه " وتسمى بالهادي وادعى الهداية " ص 146. أما ابن خلدون . في العبر . فيقول فقط أنه " تلقب بالهادي " ص 480 .

70 - انظر نص الرسالة . على الخصوص عند ابن عبد المنعم الحميري . الروض المعطار . تحقيق احسان عباس . ط 2 . 1980 . ص 522 . وابن الأبار . في إعتاب الكتاب . تحقيق وتعليق وتقديم صالح الأشتر . دمشق 1961 . ص 226 .

والذي يفسر اختياره لهذا الرباط ليكون مركز انطلاق عمله السياسي والعسكري . هو رغبته في توظيف فكرة المهدية . فقد كان شائعا بين المغاربة إلى ذلك العصر أن المهدي المنتظر سيظهر هناك " ليملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا " حيث يقول ابن خلدون " ونجد الكثير من ضعفاء البصائر . يقصدون رباطا بماسة . لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من گدالة . واعتقادهم أنه (= المهدي) منهم أو قائمون بدعوته " [71] .

هكذا إذن وظف المتصوفة فكرة المهدية سياسيا لاستقطاب الأتباع المتذمرين من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . ولعل العامل الاجتماعي في توظيفهم هذه الفكرة . يتضح من خلال الأحاديث التي أوردها ابن خلدون في شأن المهدي . فقد ورد فيها أن المهدي يوزع المال ويعطي العطاء ويُسقى الناس الغيث وتُخرج الأرض نباتها وتكثر الماشية [72] . فلعل هذا تنفيس عن المحرومين من هذه الأشياء واستقطاب لهم لإتّباع المهدي .

قصارى القول يبدو واضحا توظيف بعض متصوفة فترة الانتقال . لبعض عناصر الفكر الشيعي الباطني في بناء ايديولوجيتهم . التي استهدفوا بها معارضة سياسة الدولة المرابطية السنية .

ولعلنا نكون قد ألقينا بعض النور . على هذا الجانب الدفين من ثورة المتصوفة . التي قال عنها أحد الباحثين " وقد حاولت أن أجد تفصيلا لآرائهم . أو شيئا من البيان عن طريقتهم هذه . فلم أجد شيئا [...] . فليس فيها شيء يدل على نزوع ديني أو ميل صوفي " [73] . بل واضح الآن منحاها الصوفي . المتشيع بعناصر من الفكر الشيعي . فقد كانوا يقبلون " على قراءة كتب أبي حامد الغزالي " [74] . مما يؤكد أن إحراق كتابه الإحياء كان بسبب منحاه الصوفي . كما " كثر خوضهم في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية والكلف برسائل إخوان الصفا " [75] . كما كانوا " يتكلمون في الكشف وفيما وراء الحس [....] . وأشربوا أقوال الشيعة . وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم" [76] . إذن يشم من ذلك " رائحة من التشيع قوية " [77] .

71 - المقدمة . ص 328 .

72 - المقدمة . ص 315 . 316 . 317 .

73 - حسين مؤنس . نصوص سياسية عن فترة الانتقال . ص 104.

74 - راجع الفقرة الخاصة بالتقية من هذا الفصل .

75 - نفسه .

76 - راجع أيضا الفقرة الخاصة بالعلم اللدني من هذا الفصل .

77 - نفسه .

إذن كان لابد أن يدخل المتصوفة في علاقة ما . مع الفقهاء . الذين قاموا برد فعل ضد بقايا الفكر الإسماعيلي الباطني . في المغرب . وحاولوا أن يخرجوه من الباب . بإقامة الدولة المرابطية . فإذا به يحاول العودة . مرة أخرى إلى الغرب الإسلامي . من النافذة متسترا في عباءة التصوف . فما هو موقف الفقهاء المالكية السنة . منظري السياسة المرابطية . إزاء تقرب هذا التيار الباطني . إلى العامة . من خلال التصوف ؟

3 ـ موقف الفقهاء والمرابطين من تيار التصوف :

سبق أن قلنا . أن الدولة المرابطية السنية . قامت على أكتاف الفقهاء المالكية . وقد كان من بين أهدافها . محاصرة بقايا التأثير الشيعي الفاطمي في الغرب الإسلامي . وإذا كان هذا التأثير لم يعد يشكل خطرا كبيرا . فإن الخطر تغلغل في تيار آخر هو تيار من تيارات التصوف .

إلا أنه قبل التعرض لموقف الفقهاء من هذا التيار . يجب أن نوضح أن التصوف لم يكن تيارا واحدا ! فقد كان هناك متصوفة عامة لا يقرأون ولا يكتبون [78]. وكان هناك متصوفة فقهاء يجمعون بين الفقه والتصوف [79] . وإن كان بعضهم درس الفقه لكنه يرفض أن تستثمر هذه المعرفة بالفقه في تولي الخطط والمراتب [80] . وأخيرا كان هناك المتصوفة " المتمكنين في علوم القوم " [81] .

3 ـ أ ـ موقف الفقهاء

وقد تراوح موقف الفقهاء من المتصوفة . بين الإنكار لكراماتهم . كعلاج المريضات من النساء بلمسهن [82] . وواضح هنا أن موقف الفقهاء هذا ينطلق من الحرص على تطبيق أحكام الشريعة . أو كالقول بالمشي على الماء وركوب الهواء وقلب الطبائع وعدم التقيد بسنن ونواميس الكون . وغير خاف أيضا أن الخلاف هنا بين المتصوفة والفقهاء في جانب منه هو خلاف معرفي . حيث أن قول

---

78 - انظر ترجمة الشيخ أبي يعزى الذي يقول " أنا رجل جاهل لا أعرف إلا ما عرفني مولاي " ابن الزيات . ص 213 . 222 . وانظر أيضا الشيخ محمد الأزكاني الذي يقول : " أنا رجل أمي لا أقرأ ولا أكتب " ص 366 .

79 - كعبد الجليل بن بحلان و ابن العريف وابن حرزهم . ابن الزيات . ص 6 ص 146. 169.

80 - نفسه . ص 92. 93 .

81 - كابن برجان وأبي الحسن علي القرشي . ابن الزيات . ص 228 . وابن قسي .

82 - ابن الزيات . ص 215. وعن موقف الفقهاء من الكرامات . انظر ص 293. 323. 421 .

الصوفية بهذه المسائل . ينطلق من موقف معرفي يعتمد الكشف والإشراق . بينما كان الفقهاء أكثر عقلانية . وفي جانب آخر كان الخلاف سياسيا . حيث كان المتصوفة يوظفون هذه الكرامات كجزء من استراتيجية الدعوة . التي تعتمد على الإيهام بامتلاك الأسرار لاستقطاب الأتباع في مجتمع نسبة عالية من أفراده غير متعلمين .

وقد كانت للمتصوفة مكانة كبيرة في نفوس عامة الناس . فهذا متصوف هو عبد الجليل بن وابحلان . كان " إذا صلى الجمعة انصرف إلى منزله . فلم يكن يصله إلا في وقت العصر . من كثرة ما يحبسه الناس للدعاء والتمسح به " [83] . وقد كان الفقهاء يخشون هذه العلاقة بين المتصوفة وعامة الناس . حتى أن أحد الفقهاء رأى أن اجتماع الناس على هذا الصوفي بدعة . وسعى به عند القاضي [84] .

لكن موقف الفقهاء كان أكثر تشددا مع المتصوفة المتمكنين من التصوف . أو على الأصح الذين أشربوا الباطنية . خاصة فيما يتعلق بتأويل القرآن . إذ لا يخفى التوظيف السياسي لتأويل القرآن عند كل من الشيعة والمتصوفة . فهذا ابن برجان كان " له تفسير القرآن العظيم وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات " [85] . ولعل منحاه الباطني في تأويل القرآن . هو ما جعل الفقهاء يتكلمون فيه ويعيبون عليه أشياء " ولما أشخص أبو الحكم ابن برجان من قرطبة إلى حضرة مراكش . سئل عن مسائل عيبت عليه . فأخرجها على ما حملته من التأويل . فانفصل عما ألزمه من النقد" [86]. وكذلك الحال مع ابن العريف فقد قيل " إن فقهاء بلده اتفقوا على إنكار مذاهبه . فسعوا به إلى السلطان وحذروه من جانبه " [87] ولعل مذهبه الذي أنكر عليه هو اتجاهه الصوفي . خاصة علاقته بابن برجان الذي قيل أنه كان إمام الصوفية بإشبيلية وأنه كان يحضر نفسه للقيام على المرابطين .

قصارى القول . أن التفاف عامة الناس حول المتصوفة . كان يزيد من توجس الفقهاء منهم . ويسعون بهم لدى السلطات المرابطية . فما هي علاقة المرابطين بالمتصوفة ؟

---

83 - نفسه . ص 147.

84 - نفس المصدر والصفحة .

85 - ابن خلكان . وفيات الأعيان . ج 4 . ص 236 . 237 .

86 - ابن الأبار . المعجم في في أصحاب الصدفي . ص 19.

87 - ابن الزيات . ص 170.

3 ـ ب ـ موقف المرابطين

من خلال قراءة تراجم بعض الأمراء المرابطين . يمكن أن نلمس أن علاقة المرابطين بالمتصوفة كانت علاقة حسنة . بل إن بعض المصادر تجعل هؤلاء الأمراء قريبين من تيار التصوف .

فالمراكشي يقول عن الأمير علي بن يوسف بن تاشفين وهو يمثل أعلى سلطة في الدولة المرابطية " كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين" [88] . ومصادر أخرى تنسب بعض الأمراء صراحة إلى تيار التصوف . كابن عذاري الذي يقول عن الأمير تاشفين بن علي : " وكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدين " [89] . و رغم انشغال تاشفين بحرب الموحدين خلال الحملة الطويلة التي بدأت بينه وبين عبد المومن من 535 / 1140م إلى 539 هـ / 1144م . إلا أنه كان يهتم بزيارة بعض المتصوفة وكأنه يريد التبرك بهم وكسبهم إلى صفه أو على الأقل جعلهم يلتزمون الحياد في صراعه مع الموحدين [90] .

كما نلمس تقرب بعض الأمراء من المتصوفة . فهذا الأمير مزدلي بن تلكان . حاكم تلمسان . جاء ذات يوم الشيخ عبد السلام التونسي وهو يعمل في أرضه : " فقال له عبد السلام : ما تطلب عندي وأنا فقير وأنت أمير ؟ فقال له : جئت لأتبرك بك وآكل من طعامك " [91] .

كما أن المتصوفة عملوا على استقطاب أمراء مرابطين إلى تيار التصوف . كما حدث مع أبي اسحاق باران المسوفي الذي يقول عنه ابن الزيات " كان من الزعماء " ولحق بأهل الطريق على يد أحد مشايخ الصوفية [92] . ونفس الشيء حدث مع أبي زكرياء بن يوغان الصنهاجي الذي " كان من أمراء صنهاجة " وانخرط في تيار التصوف [93] .

ثم إن بعض المتصوفة تعامل مع المرابطين وحاول أن يأخذهم بسلوك مبادئ الصوفية . كأبي الحسن علي بن حرزهم الذي "استدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه والأخذ عنه [...] . فلازمه

---

88 - المعجب . ص 252 .

89 - البيان المغرب . ج 4 . ص 79.

90 ـ ابن الزيات . ص 138 .

91 - ترجمة عبد السلام التونسي عند ابن الزيات ص 110.

92 - ابن الزيات . ص 254 .

93 - نفسه . 123، 124.

وأخذه بسلوك طريق الآخرة وأمره بالورع وضيق عليه في المكسب" [94] .

وإلى جانب هذا الوجه الودي ، من علاقة المتصوفة بالمرابطين ، نجد وجها آخر عدائي ، لعله بدأ مع حادثة إحراق كتاب الإحياء ، ورد فعل بعض المتصوفة بخصوص هذه القضية [95] . كما يتضح أن سلوك المتصوفة اتجاه المرابطين ، كان يستلهم آراء الغزالي ، في كتابه إحياء علوم الدين ، خاصة ما يتعلق بقبول أعطياتهم و مخالطتهم ، وكأنهم يطبقون كل ما ورد في كتاب " الحلال والحرام " من الإحياء .

فقد وصلتنا روايات عن متصوفة أعطاهم المرابطون مالا ، فمنهم من رده عليهم ، ومنهم من تصدق به [96]، ومنهم من كان يعتبر كل مال المرابطين خبيثا [97]. كما أن بعض المتصوفة كانوا يرفضون مقابلة المرابطين ، حتى أن أحدهم أضطر لمقابلة الأمير علي بن يوسف ، وعندما كان يحتضر ، قال لأخص أصحابه : " كانت لي أحوال فقدتها يوم اجتماعي بالسلطان وحديثي معه فإياك ولقاء الناس " [98] .

ويبدو أنه في أواخر إمارة علي بن يوسف ، وبعد اشتداد أزمة الدولة المرابطية المالية ، وإنهاكها في حروب على جبهتين : مع المسيحيين في الأندلس والموحدين في المغرب ، وما استتبع ذلك من بدء فقدان المرابطين السيطرة على زمام الأمور ، في كل الأقاليم ، وما نتج عن كل هذا من ازدياد الأعباء على السكان ، والتي تأثر بها كثيرا ذوو الدخل الضعيف ، نقول في هذه الظروف ، يبدو أن تيار التصوف بدأ يتحرك من أجل تحقيق أهدافه السياسية بالوصول إلى السلطة .

4 ـ الفقهاء والمرابطون ومراقبة الصوفية

يبدو أيضا أن المرابطين والفقهاء ، كانوا على علم بتحركات الصوفية ، لأنهم كانوا يرصدونها، فحاولوا عزل المتصوفة عن عامة الناس ، إما باعتقال زعمائهم أو بنفيهم ، فهذا ابن

---

94 - نفسه ، ص 169.

95 - نفسه ، ص 145.

96 - نفسه ، ص 106، 145، 146.

97 - نفسه ، ص 111.

98 - نفسه ، ص 152، ولاحظ أيضا أن ابن العريف لما نفي من ألمرية إلى مراكش ، يقول ابن الزيات ، أنه حين وصل إلى سبتة " وافاه السلطان بالأمان بتسريحه وحل قيوده فقال ابن العريف : كنت أريد أن لا يعرفني السلطان وقد عرفني الآن فلابد من رؤيته " ص 120.

العريف بعد أن " بعد صيته في الزهادة والعبادة وكثر أتباعه على طريقته الصوفية " [99] . قام قاضي مدينته ألمرية ابن الأسود " فوفد على علي بن يوسف بمراكش . فسعى بابن العريف عنده وخوفه منه غاية التخويف . فكتب إلى عامل ألمرية يأمره بإشخاصه إلى مراكش " [100] .

ويبدو أن مكانة ابن العريف وأمثاله . كانت كبيرة عند عامة الناس . لذلك لم يكن في مقدور علي بن يوسف . أن يذهب معهم إلى أبعد من جعلهم تحت مراقبته. . لذلك يبدو أنه وضعهم تحت " الإقامة الجبرية " . نستشف ذلك من جواب ابن العريف . حين عرض عليه علي بن يوسف قضاء حوائجه " فقال له : ليس لي حاجة إلا أن أخلى أذهب حيث شئت " [101] . ومع أن ابن الزيات يضيف " فأذن له في ذلك " [102]. إلا أنه يبدو أن العكس هو الذي حدث . ذلك أن ابن العريف في بعض شعره يقول :

يا واصلين إلى المختار من مضر　　　زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وعن قـدر　　　ومن أقام على عذر كمن راحا [103]

فكأنه يقول أن تخلفه عن السفر لأداء فريضة الحج . كان لسبب خارج عن إرادته . و مهما يكن من أمر . فإن ابن العريف قضى آخر أيامه في مراكش . كما لم يكن الوحيد الذي شملته حملة المراقبة المرابطية . بإيعاز من بعض الفقهاء . بل شملت أقطاب آخرين في تيار التصوف كابن برجان والميورقي [104]. ومهما كانت التفاصيل وتضاربت المصادر . فإن كلا من ابن العريف وابن برجان قد بقيا

---

99 - ابن الأبار . المعجم في أصحاب الصدفي . ص 19. وابن الزيات يقول عنه " وكان العباد وأهل الزهد يألفونه ويقصدونه فيحمدون صحبته . وسعي به إلى السلطان فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش " التشوف . ص 118 . ولاحظ أنه في كلتا الروايتين يرتبط موقف السلطان منه بالتفاف الأتباع حوله .

100 - ابن الزيات . ص 119. ورواية ابن الأبار تقول ليس فقيها واحد هو الذي سعى به بل " فقهاء بلده اتفقوا على إنكار مذاهبه . فسعوا به إلى السلطان " المعجم . ص 19.

101 - ابن الزيات . ص 120.

102 - نفسه .

103 - نفسه . ص 121.

104 - ابن الزيات . ص 170. وابن الأبار . المعجم . ص 19.

في مراكش . إلى أن توفيا معا بها . وكان زمن وفاتهما متقاربا . ودفنا في قبرين متلاصقين [105] .

واستمرت حملة مطاردة المتصوفة في إمارة تاشفين بن علي (537 / 1142-539 هـ / 1144م) وشملت متصوفة الأندلس والمغرب . ففي المغرب مثلا : " سعي بأبي عبد الله الأصم وأبي عبد الله الدقاق وأضرابهما عند تاشفين بن علي . فأمر بإشخاصهما إلى مدينة فاس فسجنا بها " [106] . وامتدت عملية مراقبة الصوفية إلى أماكن نائية . فهذا أبو الفضل بن أحمد متصوف من أهل سجلماسة " طلب . فخاف على نفسه . فاختفى في جنة له . وبقي بها إلى أن أشرف على الموت من شدة الجوع " [107] .

و قد رافق هذه الحملة . إصدار منشورات من ديوان الإنشاء المرابطي . في موضوع التشديد على التزام مذهب الإمام مالك . ونبذ كتب " البدعة " . مما يمكن أن نعده استمرارا للصراع بين المالكية السنية والتيار الباطني في التصوف . فقد وصلتنا رسالة بعثها تاشفين بن علي إلى حاكم وقاضي وفقهاء بلنسية سنة 538 هـ / 1143م . لعل أهم ما ورد فيها بخصوص هذا الموضوع ما يلي :" واعلموا رحمكم الله . أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدا . على ما اتفق عليه السلف الصالح رحمهم الله . من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه . فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه [...] . ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة . وخاصة وفقكم الله . كتب أبي حامد الغزالي . فليتتبع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع خبرها . ويبحث عليها . وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها " [108] .

وهكذا تتضح العلاقة بين إحراق الإحياء وبين استلهام التصوف الباطني له . ومن ثم رد فعل الفقهاء المالكية . بواسطة المرابطين .

ولعل اعتقال ونفي زعماء المتصوفة . ومحاولة عزل المتصوفة عن عامة الناس هذه . قد أرغمت بعضهم ممن لم تشملهم هذه الحملة . على عقد حلقاتهم الدراسية وممارسة نشاطهم في سرية . فقد جاء عن الشيخ عبد الجليل بن ويحلان المتوفى 541 هـ / 1146م أنه كان يدرس الناس الفقه " وكان إذا انصرف عنه حملة الفقه يقول لخاصة أصحابه : تعالوا تأخذ في نور العلم . فيأخذ

---

105 - تضطرب المصادر حول تحديد زمن وفاة ابن العريف وسببها . لكن الرجح أن ذلك حدث سنة 537 هـ . قبل وفاة علي بن يوسف . انظر نفس المصدرين السابقين والصفحات . أما ابن برجان فكانت وفاته سنة 536 هـ . ابن خلكان . وفيات الأعيان . ج 4 . ص 237 .

106 - ابن الزيات . ص 155.

107 -(توفي سنة 542 هـ) نفسه . ص 153. 154 .

108 - حسين مؤنس . نصوص سياسية . ص 112. 113 .

معهم في علوم الآخرة وأسرار التصوف " [109]. كما أن هذه الوضعية جعلت المتصوفة الأكثر انخراطا في العمل السياسي يعملون في سرية . ويترقبون الفرصة المواتية للبروز على الساحة السياسية بشكل عنيف وبالسيف هذه المرة . فنجد ابن قسي الذي كانت به مزاسلات مع ابن العريف قبل نفي الأخير إلى مراكش من ألمرية قد " انصرف إلى قريته وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر . وهو يستجلب أهل هذا الشأن محرضا على الفتنة وداعيا إلى الثورة في الباطن " [110] .

فمتى سنحت الفرصة للتصوف . لكي يتحول إلى زعامة سياسية تطمح إلى السلطة ؟

---

109 - ابن الزيات . ص 147 .

110 - الحلة السيراء . ص 197.

الفصل السادس

ثورة الصوفية في الأندلس و المغرب
ما بين عصري المرابطين والموحدين

1 ـ رؤى المؤرخين وتعليلاتهم لثورة الأندلسيين وموقفنا منها :

قبل الحديث عن ثورة الصوفية في الأندلس والمغرب . يحسن بنا أن نقول في البداية كلمة حول رأي بعض المؤرخين . قدامى ومحدثين . في شأن ثورات الأندلسيين ككل على المرابطين أواخر عصرهم .

1 ـ أ ـ رؤى المؤرخين وتعليلاتهم

لقد نظروا إل هذه الثورات جميعا . قدامى ومحدثين . على أنها ثورة واحدة . ثورة الأندلسيين على المرابطين . فهذا المراكشي من القدامى يقول : " ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة . ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين . أخرجوا من كان عندهم من الولاة . واستبد كل منهم بضبط بلده "[1] . أما المحدثين مستعربين وعربا . فقد ساروا في نفس الاتجاه . فالمستعرب الألماني يوسف أشباخ نظر إليها نفس النظرة وتناولها في فقرة بعنوان " ثورة الأندلس"[2] وجمع فيها الحديث عن كل الثوار الذين قاموا في الأندلس . أواخر عصر المرابطين . دون تمييز بين خلفياتهم الايديولوجية . وكذلك فعل

1 - المعجب . ص 304 .

2 - يوسف أشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة وتعليق محمد بن عبد الله عنان . القاهرة 1940. ج 1. الفقرة الأولى من الفصل الثالث . ص 215 . 226 .

كل من محمد عبد الله عنان ، الذي درسها في فصل بعنوان " الثورة في الأندلس وانهيار سلطان المرابطين " [3] وتابعه في ذلك عبد الله علي علام ، و الذي تناولها في الباب الثاني تحت عنوان " ثورة الأندلس على المرابطين قبيل حكم عبد المومن " . فوزعها إلى مجالات جغرافية . فدرس الثورة في الجنوب الغربي ، وفي الوسط والجنوب ، وفي الشرق الأندلسي [4] .

أما بخصوص تعليلها ، فنجد أشباخ ينظر إليها ، على أنها ثورة العرب ذوي الأصول الشامية ضد المغاربة [5] . ومحمد عبد الله عنان يرى أن " العامل القومي" هو الذي كان وراء ثورة " الأمة الأندلسية " حيث كانت " الفكرة القومية " تجيش بأذهان الأمة الاندلسية ، التي لم تنس أنها فقدت استقلالها في ظل الحكم المرابطي " [6] . أما عبد الله علام فيرى أن الثورة على المرابطين في الأندلس ، كانت أعذب أماني النصرانية ، لذلك ذهب إلى " الاعتقاد بأن النصارى هم المدبرون الحقيقيون لتلك الثورة العارمة " [7] .

1 ـ ب ـ موقفنا من تلك الرؤى والتعليلات

لكن هذه الرؤى والتعليلات تبدو في رأينا غير موفقة ، فالثورة كما سنرى لم تكن ثورة أندلسيين واحدة موحدة. ، بل كانت ثورتان : ثورة المتصوفة أو المريدين في جنوب غرب الأندلس ، وثورة مضادة ، تزعمها الفقهاء القضاة ، في باقي أنحاء الأندلس المرابطية .

أما عن تعليلاتها ، فلم تكن ثورة عرب ضد مغاربة ، فهذا إنما يعكس منهج بعض المستعربين الذين عولوا على العامل العرقي و القبلي في تفسير تاريخ الغرب الإسلامي عموما . كما لم تكن ثورة قومية أندلسية ضد المرابطين ، لأن ثوارا من فريقي الأندلسيين : المريدين والفقهاء ، كما سنرى ، تحالفوا ، فيما بعد ، مع الموحدين وهم مغاربة. ، ويخيل إلينا أن الأستاذ

---

3 - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط1، القاهرة ، 1964، القسم الأول ، الكتاب الثالث ، الفصل الأول ، ص 304 ، 323 .

4 - عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي ، دار المعارف ، القاهرة 1971، ص 147 ـ 173 .

5 - تاريخ الأندلس ، ص 215 .

6 - عصر المرابطين والموحدين ، ص 305 ، 306 .

7 - الدولة الموحدية في المغرب ، ص 143 .

عنان الذي عول على العامل القومي في تفسير الظاهرة إنما كان يسقط مفهوما من الحاضر الذي كان ي عيشه على الماضي الذي كان يدرسه [8] . وإذا كان النصارى قد تحالفوا أيضا مع ثوار من الفريقين . وإذا كانوا قد أسهموا بشكل غير مباشر في دفع الأندلسيين إلى الثورة على المرابطين ـ وذلك عن طريق الضغط العسكري على الأخيرين الذين اضطروا إلى إشراك الأندلسيين في تحمل نفقات تلك الحرب المزمنة ـ فاندفع بعض الأندلسيين نحو تيار التصوف المعارض لسياسة المرابطين . والذي فجر أول ثورة ضدهم . نقول إذا كان ذلك قد حدث . فلا ينبغي المبالغة . والقول بأن النصارى كانوا وراء ثورة الأندلسيين على المرابطين .

ويخيل إلينا أن أصحاب هذه الرؤى والتعليلات . ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه . لأنهم أغفلوا جانبين هامين من هذه الثورة . هما الجانب الاجتماعي والجانب الايديولوجي اللذين سبق الحديث عنهما . فلغياب الجانب الايديولوجي عندهم اعتبروها ثورة واحدة . ولغياب الجانب الاجتماعي اعتبروها ثورة قومية عنصرية .

2 ـ ثورة المريدين على المرابطين في الأندلس :

إضافة إلى الوضعية التي كانت فيها الدولة المرابطية . منذ سقوط سرقسطة سنة 512 هـ / 1118م . من رجحان كفة القوى المسيحية في الأندلس . ازدادت الأعباء العسكرية للدولة . بسبب اشتداد المواجهة بين جيوشها وبين الثوار الموحدين .

2 ـ أ ـ الصراع المرابطي الموحدي وطموح التصوف إلى السلطة

ففي سنة 533 هـ / 1138م . استدعى الأمير علي بن يوسف . ابنه تاشفين حاكم الأندلس آنذاك . إلى المغرب . وولاه عهده وعهد إليه بمحاربة الموحدين [9] . ومنذ سنة 535 هـ / 1140م بدأت حملة الموحدين الطويلة . بقيادة عبد المومن بن علي . في جبال المغرب . وقد نجم عنها مزيد

---

8 ـ فيكفي أن نذكر أن الأستاذ عنان كتب كتابه في ظل المد القومي العربي في الستينات مع الناصرية . وقد أنهى مقدمته . وهي آخر ما يكتب من الكتاب . في نوفمبر سنة 1963 بالقاهرة . انظر ص 6 .

9 - ابن الخطيب . إعمال الإعلام . ص 147.

إضعاف لقوى المرابطين . واستنزاف لمواردهم . كما كان وقع الأحداث العسكرية الداخلية والخارجية . يزداد حدة على الدولة المرابطية ويتظافر مع عوامل اقتصادية وطبيعية . تنعكس على العدوتين الأندلس والمغرب . يقول ابن عذاري : " أثناء مدة هذه الحركة الطويلة الأعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الأسعار [...] وتولاها الجذب حتى جفت في الأرض مذانبها واغبرت جوانبها . وقلت الجابي بهذه الفتن . وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين . وألح العدو النصراني بالضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب واشتغالها بحرب الثائرين " [10] .

إذن لما اشتد خطر الموحدين على المرابطين في مركز دولتهم المغرب . اضطر الأخيرون إلى حشد كل قواتهم لمواجهة الموحدين . من كل أقاليم أميريتهم . ومنها الأندلس . فكانوا ينقلون منها حاميات عسكرية بكاملها إلى المغرب. . ففي سنة 538 هـ / 1143م " كتب تاشفين إلى البلاد . يستدعيهم لنصرته [...] . ووصل من الأندلس ابراهيم بن تاشفين بعسكر ... " [11] . فاشتداد الصراع بين تاشفين وعبد المومن . جعل الأول لا يعير كبير اهتمام عسكري لشؤون الأندلس . حيث يقول ابن الخطيب عنه " فلم يلق للأندلس رأسا " [12] . فنتج عن ذلك " قيام أهل الأندلس عليهم لكونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها " [13] .

إذن كانت تلك هي فرصة الأندلسيين للقيام على المرابطين . وكانت أول ثورة اندلعت هي " ثورة المريدين " في الغرب الأندلسي سنة 539 هـ / 1144م .

لعل أخبار الهزائم المتوالية . التي كان تاشفين بن علي يحصدها أمام عبد المومن بن علي . خاصة معركة تلمسان . رغم تفوق الجيش المرابطي في العدد أواخر سنة 538 هـ / 1143م [14] . وكذلك الانشقاقات التي وقعت في صفوف المرابطين . بخروج زعماء قبيلة مسوفة المرابطية عن قبيلة لمتونة وانضمامهم إلى الموحدين [15] . نقول لعل أصداء هذه الأخبار كانت تصل الأندلس . إضافة إلى عدم وجود قوات مرابطية كافية لضبط كل الأندلس . ما جعل المتصوفة يرون أن الفرصة حانت لإعلان ثورتهم .

---

10 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 16.

11 - نفسه . ص 19.

12 - جاء هذا في سياق حديث ابن الخطيب عن عهد تاشفين بن علي وهو يذكر حروبه مع المهدي . لكن الصحيح أن الذي كان يحارب تاشفين هو عبد المومن . بينما المهدي توفي 524 هـ . في عهد علي بن يوسف .

13 - الحلل الموشية . ص 132.

14 - محمد عنان . ص 246 .

15 - نفسه . ص 254 .

فبعد نفي زعماء الفكر في تيار التصوف. ابن العريف وابن برجان والميورقي . إلى مراكش سنة 536 / 1141م أو 537 هـ / 1142م . أواخر عهد علي بن يوسف[16]. دخل التصوف ـ كما سبق ـ مرحلة الإعداد السري لتفجير الثورة [17] . وقد تركز نشاطه في منطقة نائية من ولاية الغرب بالأندلس . في كل من شلب وولبة وميرتلة .

2 ـ ب ـ ابن قسي والمحاولة الأولى

تولى هذه المهمة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي . و هو من أصل رومي من بادية شلب . كان قبل انضمامه إلى تيار التصوف موظفا بإدارة المالية المرابطية ببلدته . وبعد نفي الزعماء السابقين انتقل إلى قرية جلة من قرى شلب وجعلها مركز نشاطه السري . وأخذ يعمل على استقطاب الأتباع وتنظيمهم واستطاع أن يستميل الكثيرين . منهم أعيان وأجناد من ولاية الغرب .

ومع أن المراجع تشير إلى أن أول محاولة مسلحة للثورة . قام بها ابن قسي . هي التي استهدفت السيطرة على حصن ميرتلة سنة 539 هـ / 1144م . كما جاء عند كل من يوسف

---

16 - لم نتوصل إلى تاريخ نفيهم بالضبط . لكن ابن خلكان يذكر أن ابن برجان توفي بمراكش سنة 536 هـ . وابن الزيات . نقلا عن ابن بشكوال . يجعل وفاة ابن العريف في صفر 537 هـ . بعد وصوله إلى مراكش . بينما ابن الخطيب يقول أنهما توفيا معا سنة 537 هـ . انظر وفيات الاعيان . ج 4 . ص 237. والتشوف . ص 118. وإعمال الإعلام . ص 249 .

17 - كان ابن صاحب الصلاة قد أفرد لثورة المريدين كتابا خاصا بعنوان " ثورة المريدين " أو " تاريخ المريدين الثوار " وأشار إليه في كتابه " المن بالامامة " في عدة صفحات . كما أشارت إليه مصادر أخرى متأخرة . كالحلة السيراء لابن الأبار . والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي . انظر ابن صاحب الصلاة . تاريخ المن بالإمامة . تحقيق عبد الهادي التازي . ط 1. بيروت 1964. ص 30 وهامش 3 . كما نقل عنه ابن عذاري في نص جديد من كتاب البيان المغرب . نشره الأستاذ عبد القادر زمامة في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية . سنة 1980. وأعيد نشره في مجلة كلية آداب فاس . العددان 4 و 5 لسنتي 1980 - 1981. ثم ضمنه الطبعة المزيدة من البيان المغرب . قسم الموحدين . الذي اشترك في إخراجه مع آخرين . راجع مجلة كلية آداب فاس ع 4 و 5 سنة 1980 - 1981 . ص 302 . وابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 35 .

مما سبق يتضح أن كتاب " تاريخ المريدين " كان متداولا بين القراء إلى أوائل القرن الثامن الهجري . حيث أن ابن عذاري صنف كتابه سنة 712 هـ . لكن للأسف انقطعت عنا أخباره بعد هذا التاريخ . ولم يصلنا . وأغلب ما وصلنا من أخبار عن ثورة المريدين جاء بواسطة تراجم بعض زعمائهم عند ابن الأبار في الحلة السيراء وابن الخطيب في إعمال الإعلام . ونتف أخرى عند كل من المراكشي وابن عذاري وابن خلدون .

أشياخ ومحمد عنان وعبد الله علام [18]. إلا أن الثابت أنه كانت هناك محاولة أولى سابقة على هذه . فقد ذكر ابن الخطيب أن ابن قسي أمر أحد أصحابه أن يهاجم فجأة حصن منتيقوط [19] ففعل ذلك . واستطاع أن يسيطر عليه في شوال عام 538 هـ / 1143م . لكن المرابطين تمكنوا من إخراجه من الحصن وقتلوه قبل أن يستفحل أمره .[20] ولعل السبب في إغفال هذه المحاولة لدى المستعرب أشياخ واضح . ذلك أنه لم يطلع على كتاب ابن الخطيب . فهو لم يرد في هوامشه . بينما اطلع عليه كل من عنان وعلام . ولم يتعرضا لهذه المحاولة . والراجح أنهما عند إعادة بناء الأحداث التاريخية اعتمدا على أشياخ أكثر من عودتهما إلى المصادر .

2 ـ ج ـ المحاولة الثانية واندلاع ثورة المريدين

على أية حال نتج عن فشل هذه المحاولة الأولى أن " خاف ابن قسي عند القبض على المذكور" [21] . وزيادة في الحيطة . نقل مركز نشاطه من قرية جلة قرب شلب إلى قرية الجوزة قرب ميرتلة [22] . حيث كان له حلفاء هناك هم قوم يعرفون ببني السنة . بقي مختفيا عندهم يخطط سرا مدة. . وفي يوم 12 صفر 539 هـ / 1144م أصدر أمره إلى أحد أصحابه المقربين . وهو محمد بن يحيى الشلطيشي المعروف بابن القابلة . يقود سبعين رجلا من المريدين . باقتحام حصن ميرتلة . فسقط في أيديهم بفعل المفاجأة رغم مناعته [23] . وهكذا تم إعلان قيام ثورة المتصوفة المريدين من حصن ميرتلة الذي لم يستطع المرابطون استعادته منهم .

وبعد شهرين من ذلك انتقل ابن قسي . مع عدد كبير من المريدين . إلى ميرتلة . وهناك أعلن إمامته . وأخذ يستقطب المزيد من الأتباع لحركته من جميع الفئات ويندبهم للثورة على المرابطين . فاستجاب له أعيان الناس في ولاية الغرب كما " اتصل به الأشرار" [24] . واستجاب له أهل يابرة

---

18 - انظر تاريخ الاندلس . ص 216 . وعصر المرابطين والموحدين . ص 308 . والدولة الموحدية . ص 148.

19 - لم نتمكن من تحديد موقع هذا الحصن . لكن الراجح أنه كان في المناطق القريبة المحيطة بشلب حيث كان ابن قسي مختفيا في قرية جلة إحدى قرى شلب .

20 - إعمال الإعلام . ص 250 .

21 - نفس المصدر والصفحة .

22 - نفس المصدر والصفحة.

23 - ابن الأبار . الحلة . ص 198 .

24 - إعمال الإعلام . ص 250 .

بقيادة عميدهم سيدراي بن وزير . وخلعوا طاعة المرابطين . ثم تبعهم أهل شلب بزعامة أحد المتصوفة . وهو محمد بن عمر بن المنذر . الذي كان مثل ابن قسي . موظفا في إدارة الدولة المرابطية . فقد كان يلي خطة الشورى . ثم لما انظم إلى تيار التصوف تركها وتصدق بماله [25] . واستقر برابطة على ساحل البحر إلى أن انظم إلى ثورة المريدين عند إعلانها . وأصبح من أكبر زعمائها . ثم اتجه نحو حصن مرجيق في شمال غرب شلب الذي كان بيد المرابطين فانتزعه منهم .

ولما وصلت أخبار سقوط ميرتلة ويابرة وشلب ومرجيق . إلى من كان من المرابطين بمدينة باجة . طلبوا من أهلها تأمينهم . على أن يغادروها إلى إشبيلية . وإثر انسحابهم منها . دخلها ابن المنذر يساعده عسكر أمده به ابن وزير تحت قيادة أخيه أحمد وخاله عبد الله بن علي بن الصميل .

ولعل ظاهر الأشياء . كان يوحي بأن دخول قوتين إحداهما من يابرة والأخرى من شلب . إلى باجة . يعني تعاون الثوار ضد عدو مشترك هو المرابطين . بيد أن حقيقة الأمور ستكشف لنا أن هذا الدخول المزدوج . يعني المنافسة بين قوتين . تختلفان من حيث الانتماء الاجتماعي والخلفية الايديولوجية . كما سنرى .

المهم أنه في ربيع الثاني 539 هـ / 1144م . قدم كل من ابن المنذر وابن وزير . إلى ابن قسي بحصن ميرتلة . حيث كان قد استقر هناك . وبايعاه على الطاعة له وسلما عليه بالإمارة . فأقر ابن المنذر على حكم شلب وما والاها . وابن وزير على حكم باجة وما والاها [26] .

بعد ذلك حشد ابن المنذر قوات من أكشنوبة وشلب وأصحابه المريدين . وعاد ثانية إلى ابن قسي بميرتلة حيث جدد له البيعة . فجدد له ابن قسي عهده على حكم شلب وما والاها وسماه " بالعزيز بالله " [27] . ولعل ابن المنذر كان يطمع في أن يوسع دائرة نشاط المريدين ضد المرابطين . خارج حدود ولاية الغرب . ومن ثم يعزز مركزه في صفوف الثوار .

وبالفعل فقد غادر ميرتلة . وعبر وادي آنة متجها إلى مدينة ولبة . فدخلها واستولى عليها . ثم اتجه منها إلى لبلة . فقاتلها بمساعدة أحمد البطروجي الذي يقول عنه ابن الأبار أنه " أحد مردة الثوار من هؤلاء المريدين " [28] . واستطاعا أن يتغلبا على من تحصن بأبراجها من المرابطين . ولاشك أن ابن المنذر أثناء زحفه نحو الشرق . كانت قواته تتضاعف . كما كان يستطلع أخبار المرابطين في

25 - نلاحظ أنه يطبق هنا ما ورد في كتاب الإحياء في الموضوع . وهو نفس السلوك الذي اتبعه ابن قسي .

26 - محمد عنان . عصر المرابطين والموحدين . ص 309 .

27 - ابن الأبار . الحلة . ص 204 .

28 - نفسه .

المواقع القريبة منه . فقد وصلته الأخبار . وهو بلبلة . أن اشبيلية كانت آنذاك دون أمير يضبطها . فتطلع إلى الاستيلاء عليها . وهكذا زحف نحوها . واستطاع أن يسقط حصونا في ظاهرها كحصن القصر وطلياطة والحصن الزاهر في غربها .

لكن عند طلياطة . في ضاحية إشبيلية . تعثرت عملياته العسكرية لأول مرة حتى ذلك الوقت[29]. ذلك أن الأمير أبا زكريا يحيى بن غانية الصحراوي . والي قرطبة والقائد العام للجيش المرابطي بالأندلس . حين علم بثورة غرب الأندلس . وتقدم قوات الثوار في اتجاه الشرق نحو إشبيلية . بادر بالخروج من قرطبة لمواجهة الموقف . فوصل إشبيلية وابن المنذر ما يزال خارجها . فوجه فرقة من قوات المرابطين عبرت الوادي الكبير . واشتبكت مع الثوار المريدين في طريانة وهزمتهم وقتلت عددا كبيرا منهم وطردت الباقي .

وهكذا تراجع ابن المنذر ليلا إلى لبلة وجعل يحصنها . ثم انسحب نحو شلب وترك البطروجي يصد هجمات ابن غانية على لبلة . التي استمرت ثلاثة أشهر . إلى أن وصل خبر قيام القاضي أحمد بن حمدين بقرطبة في 5 رمضان سنة 539 هـ / 1144م . حينذاك ترك ابن غانية لبلة وانصرف نحو إشبيلية [30] .

ولما علم ابن قسي بثورة قرطبة على المرابطين بزعامة قاضيها . حاول أن يثنيها عن المضي بعيدا مع ابن حمدين . حيث تجاوز اهتمامه إشبيلية . إلى عاصمة الأندلس . فأمر ابن المنذر ومحمد بن يحيى (ابن القابلة) أن يحشد قوات المريدين ويسيرا إلى قرطبة . كما خاطب أهل المدينة يرغبهم في دعوته ويحاول استقطابهم نحو تيار التصوف السياسي . ويبدو أن دعوة المريدين كانت تلقى استجابة من طرف سكان الأحياء الهامشية من قرطبة فقد كان " بالربض الشرقي من له حرص عليه (= أمر ابن قسي) ورغبة فيه كأبي الحسن بن موسى وغيره " [31] وواضح أن الأرباض كانت تسكنها الفئات الاجتماعية الدنيا . لكن رغم حضور التصوف كتيار سياسي في بعض فئات سكان قرطبة . غير أن تيارات أخرى كانت تنتظم فئات أخرى .

وهكذا ففي الوقت الذي تحركت فيه قوات المريدين نحو قرطبة . طرأت متغيرات جديدة على

---

29 - محمد عنان . المصدر السابق . ص 311.

30 - ابن الأبار . الحلة . ص 203 . 204 . 205 . 206 .

31 - نفسه . ص 206 .

الخريطة السياسية بقرطبة. فقد جاء سيف الدولة أحمد بن هود [32] المدينة فدخلها " بمداخلة أهلها إياه وممالأة ملإها على ذلك " [33] . فملكوه عليهم وطردوا ابن حمدين . بمعنى أن الأعيان وعلية القوم قد قاموا بانقلاب ضد ابن حمدين . لكن لم تمض أكثر من اثني عشر يوما على تنصيب ابن هود حتى " ثارت به العامة وقتلت وزيره ابن شماخ وطائفة من أصحابه " [34] وأعادت ابن حمدين .

ولعل من أهم ما يجب ملاحظته هو أن الصراع في قرطبة كان بين عامة وخاصة . كل تنصب زعامة للمدينة .

في هذه الظروف العصيبة والمتقلبة . وصل جيش المريدين إلى قرطبة . وكان الأمر قد حسم لصالح ابن حمدين [35]. رغم الفئة التي كانت تريد الانضمام إلى المريدين . فعاد ابن المنذر وابن القابلة إلى إمامهما ابن قسي .

3 ـ ثورة الفقهاء القضاة و الأعيان المضادة:

إلى هنا كان الثوار المريدون قد استولوا على غرب الأندلس كله . ولم تتقهقر قواتهم إلا عند إشبيلية . أمام المرابطين بقيادة ابن غانية . كما أنهم لم يفلحوا في إيجاد موطئ قدم لهم في قرطبة . نظرا لالتفاف العامة حول القاضي ابن حمدين . ومن هنا بدأت العقبات التي اعترضت امتداد ثورة المريدين إلى باقي الأندلس .

3 ـ أ ـ الفقهاء القضاة والثورة المضادة

---

32 - هو سليل عائلة بني هود ملوك سرقسطة . أثناء حكم ملوك الطوائف للأندلس . وقد كانت سرقسطة آخر قواعد ملوك الطوائف التي سقطت في أيدي المرابطين . وذلك أواخر سنة 503 هـ . وعن ترجمة ابن هود هذا . انظر ابن الأبار . الحلة السيراء . ص 250 . 251 . 252 .

33 - الحلة السيراء . ص 251 . وانظر أيضا في مكان آخر يقول : " أعادته (= ابن حمدين) العامة . لما قامت على ابن هود وقتلت وزيره ابن شماخ " ص 207 .

34 - نفسه .

35 - نفسه . ولم يحدث أن رحب أهل قرطبة وعلى رأسهم ابن حمدين بابن قسي ولم يشايعوا دعوة المريدين . كما زعم الأستاذ علام . الذي لم يحل على المصدر الذي استقى منه هذا الخبر . انظر الدولة الموحدية . ص 151 .

فثورة قرطبة وبقية مدن الأندلس الأخرى ، كانت في الحقيقة ثورة مضادة لثورة المريدين ، تزعمها الفقهاء القضاة ، الذين ضحوا بسلطة المرابطين ، حين شعروا أن الاتجاه العام لأهل الأندلس يميل إلى تأييد المريدين ، فحاولوا أن يسحبوا البساط من تحت أقدام المتصوفة ، ويمنعوهم من الالتحام ببقية المتذمرين من الأعباء التي فرضتها الدولة المرابطية عليهم ، مضحين بالمرابطين كسلطة تنفيذية من أجل استمرار نفس الخط الايديولوجي ، أي المذهب المالكي متمثلا في أشخاصهم ضدا على التصوف الباطني .

وهكذا وبعد ستة أشهر من إعلان ثورة المريدين (12 صفر 539 هـ) ، وبعد انتزاع المريدين غرب الأندلس كله ، من أيدي المرابطين ، ووصولهم إلى مشارف إشبيلية ، قامت الثورة المضادة في الأندلس ، و انطلقت شرارتها الأولى من قرطبة ، حيث بويع القاضي ابن حمدين يوم 5 رمضان سنة 539 هـ ، وسكن قصر الخلافة وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين [36] .

ويبدو أن هذه الثورة المضادة ، قد أعلنت بعد سابق تخطيط وإعداد ، ولم تأت هكذا عفوا ، وإنما جاءت لقطع الطريق على المتصوفة ، فقد ورد في ترجمة القاضي الحسين بن حسون الذي ثار بمالقة أنه " دعا إلى نفسه لما تكاتبت القضاة " [37] ، كما جاء في ترجمة القاضي علي بن عمر بن أضحى ، أن ابن حمدين لما دعا لنفسه بقرطبة " خاطب أبا الحسن بن أضحى يحظه على اتباعه ... فقام بدعوة ابن حمدين وتابعه أهل بلده ، وأخرجوا الملثمين من المدينة " [38] ومما يقوي هذا الزعم هو السرعة اللافتة للنظر – بمقاييس ذلك العصر – التي انتشرت بها الثورة في بقية مدن الأندلس، مثل مالقة وغرناطة ومرسية وبلنسية ووادي آش وغيرها ، وهي المناطق التي لم يكن قد امتد إليها نفوذ المريدين بعد ، فغرناطة بزعامة ابن أضحى دعت لابن حمدين في نفس شهر رمضان الذي أعلن فيه ثورته ، [39] كما انضمت مرسية إلى ابن حمدين في نفس الشهر بقيادة عبد الرحمان بن جعفر اللورقي ، وإن قدم بدله القاضي محمد بن عبد الله أبي جعفر في شهر شوال الموالي [40] . وحتى بعض المدن التي لم تدع لابن حمدين ولم تعترف بسلطته كبلنسية ووادي آش ، فإنها ثارت في

36 – ابن الخطيب ، إعمال الإعلام ، ص 253.
37 – نفس المصدر ، ص 255.
38 – الحلة السيراء ، ص 212 .
39 – نفس المصدر ، ص 214 .
40 – نفسه ، ص 227 ، 229 .

نفس الوقت وتزعم ثورتها قضاة [41] . واللافت للنظر أيضا أنه باستثناء غرب الأندلس فإن معظم زعماء الثورة كانوا قضاة فقهاء .

وقد علل الأستاذ محمد عبد الله عنان هذه الظاهرة . بكون هؤلاء الفقهاء القضاة كانوا يتمتعون بجاه ونفوذ في ظل الدولة المرابطية . وحين أحسوا بقرب انهيار سلطة الأخيرين . تولوا زعامة مدائنهم وثاروا أولا : ليحتفظوا بسابق رياستهم . وثانيا لكي " يستردوا سلطانهم القومي" [42] .

قد يكون السبب الأول . المتمثل في محاولتهم الحفاظ على مكانتهم الاجتماعية صحيحا . لكنه يبقى عاملا شخصيا . بينما السبب الثاني المتمثل في محاولة تحقيق الإستقلال القومي . قد لا يثبت أمام النقد التاريخي وأمام ما استجد . فيما بعد . من الأحداث . فقد اتصل الكثير من هؤلاء الثوار الفقهاء القضاة فيما بعد بالموحدين . راغبين في الدخول في طاعتهم . وعلى رأسهم ابن حمدين نفسه [43] . فكيف يحاولون استرداد استقلال قومي من المرابطين ليقدموه للموحدين ؟ ولعل تعويض هذا " العامل القومي" بالعامل الايديولوجي الذي يتضمن بالضرورة العامل الاجتماعي . هو الذي يقدم التفسير الأقرب إلى الصحة ـ في رأينا ـ لهذه الثورة المضادة .

هذه الثورة التي استهدفت ـ في رأينا ـ قطع الطريق على تيار التصوف . الذي أخذ يستقطب عامة الناس في الأندلس - مثال ذلك قرطبة مركز هذه الثورة المضادة - حتى ولو أدى ذلك إلى التضحية بالمرابطين . الذين لم يعد عامة سكان الأندلس يستحملون ما فرضوه عليهم من ضرائب نقدية وعينية . لمواجهة هجمات الممالك المسيحية والموحدين . وحتى يستمر التمكين للمذهب المالكي السني متمثلا في هؤلاء الفقهاء القضاة .

ولعل هذا الزعم يتأكد إذا علمنا أن الخطر الأكبر الذي واجهه الثوار المريدون لم يكن من المرابطين . بل من تحالفوا مع الفقهاء . كابن وزير . ومن هنا بدأ تراجع المريدين عن المكاسب الترابية التي حققوها ليرتموا هم الآخرون في أحضان الموحدين .

3 ـ ب ـ تحالف الفقهاء والأعيان ضد المريدين :

---

41 - عن بلنسية ووادي آش . انظر . كتاب إعمال الإعلام . ص 256 . 264 والحلة السيراء . ص 218. 219. 220.

42 - **الحلة السيراء**. ص 214.

43 - **نفسه**. ص 227. 229.

سبقت الإشارة إلى أن دخول قوتين من يابرة وشلب ، إلى باجة ، بعد انسحاب حاميتها المرابطية ، وإن كان يوحي في ظاهره بتعاون الثوار ، بيد أنه في باطنه يعبر عن منافسة وصراع بين جناحين غير متجانسين ، من حيث الانتماء الاجتماعي والخلفية الايديولوجية داخل ثورة المريدين .

فقد كان ابن المنذر زعيم شلب متصوفا نشطا في صفوف تيار التصوف ، قبل إعلان ثورة المريدين ، فقد كانت بينه وبين ابن قسي " صحبة وصداقة " ما استحق معه لقب " العزيز بالله ". ولعل ذلك ما دفعه إلى الإخلاص للثورة وقيادة جيوشها شرقا نحو وسط الأندلس .

أما ابن وزير وزعيم يابرة ، فلا تحدثنا المصادر عن تصوفه ، قبل إعلان ثورة المريدين ، رغم أن الأستاذ علام يرى أنه كان " رائد المريدين في مدينة يابرة " [44] لكنه كان ـ في رأينا ـ من أعيان يابرة ، استجاب للثورة ضد المرابطين ، دون أن يكون على اتفاق مع منحاها الايديولوجي ، فابن الخطيب يقول أن ابن قسي حين كان يبث دعوته في غرب الأندلس استجاب له " أقوام من أهل البيوتات والأجناد منهم ابن وزير الذي ذكرنا " [45] ، وسيتأكد هذا الذي نذهب إليه ، حين نعلم أنه عندما ثار ابن حمدين في قرطبة ، انفصل ابن وزير عن المريدين بيابرة وتبعه أخوه أحمد بباجة " وصرفوا الدعوة إلى ابن حمدين بقرطبة " [46] ، ما يعني أنهما تحولا عن تيار التصوف إلى محالفة الفقهاء ، وهو ما يدل على أنهما لم يكونا ينتميان إلى تيار التصوف ، قبل قيام ثورة ابن قسي ، بل كانا من الزعامات المحلية فقط ، ذلك ما يُمكّن من تفسير هذا التحول الايديولوجي السريع ، وذلك أيضا ما يفسر الدور الذي قام به ابن وزير في القضاء على ثورة المريدين ، سواء حين كان حليفا لابن حمدين أو حين تحالف مع الموحدين ، كم سيأتي .

ويبدو أن ابن قسي كان يرتاب في إخلاص ابن وزير لحركة المريدين ، فأثناء مسير ابن المنذر إلى إشبيلية ، قبض ابن قسي على ابن وزير بحصن ميرتلة وخلعه عن حكمه لما تحت يده ، لكن سرعان ما أطلق سراحه وأعاده إلى حالته الأولى [47] ، ولما لم يفلح قائدا ابن قسي ابن المنذر وابن القابلة في استمالة قرطبة إلى صف المريدين ، وعادا إلى ميرتلة ، أمر ابن قسي ابن المنذر بمحاربة ابن وزير .

وفعلا اشتبكا عند باجة ، لكن استطاع ابن وزير أن يحقق النصر على خصمه ، ويعتقل

---

44 - الدولة الموحدية ، ص 148، 149 .

45 - إعمال الإعلام ، ص 249 .

46 - نفسه ، ص 251 . ابن الخطيب يقول أنه انفصل بشلب ، لكن الثابت أن ابن وزير كان يحكم يابرة وليس شلب .

47 - ابن الأبار ، الحلة ، ص 206 .

ابن المنذر ويسجنه بالمدينة . وبعد ذلك استولى على شلب [48]. ثم ميرتلة نفسها . وأعلن خلع ابن قسي والدعوة لابن حمدين في شعبان 540 هـ / 1145م [49] . وهكذا تحالف الأعيان مع الفقهاء ضد المتصوفة المريدين .

4 ـ المريدون والموحدون :

وفي هذه الأثناء . كان الموحدون قد قضوا على تاشفين بن علي في رمضان 539 هـ/ 1144م وفتحوا مدينة فاس . ولم يعد أمامهم إلا فتح مراكش ليصبح كل المغرب تحت طاعتهم . فبعد أن فقد ابن قسي سلطته . حين تغلب عليه ابن وزير . كان لا بد له أن يبحث هو أيضا عن حلفاء . كما تحالف ابن وزير مع ابن حمدين . ولم يكن هؤلاء الحلفاء غير الموحدين في المغرب . الذين كانوا أنفسهم ثورة على فقهاء المرابطين .

4 ـ أ ـ التحالف

وهكذا عبر ابن قسي البحر هو وبعض أصحابه المقربين إلى سبتة . واتصل بالشيخ يوسف بن مخلوف الوالي الموحدي على المدينة . فرتب له لقاءا مع عبد المومن بن علي . وذلك في شعبان 540 هـ [50] . أي في نفس الشهر الذي تغلب فيه ابن وزير على ابن قسي . وأسفر اللقاء عن الاتفاق على إمداد عبد المومن ابن قسي بجيش للعمل في الأندلس بقيادة براز بن محمد المسوفي وموسى بن سعيد . ثم أردفه بعسكر آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي [51] .

في محرم 541 هـ / 1146م عبر ابن قسي صحبة الجيشين إلى الأندلس . فافتتحوا جزيرة

---

48 - نفسه . ص 207 . يشير ابن الأبار إلى ذلك . لكن لا نعرف بالضبط متى تم هذا . وعلى العموم فإن تفاصيل الصراع بين ابن وزير والمريدين غير واضحة عند كل من ابن الخطيب وابن الأبار . أهم مصدرين وصلنا عن هذه الفترة .

49 - الحلة . ص 271 .

50 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 34. 35. وابن خلدون . العبر . وديوان المبتدأ والخبر . المجلد 6. القسم 12. بيروت 1983. ص 485 .

51 - اختلط الأمر على ابن خلدون . فظن أن الجيوش كانت ثلاثة . قارن بين روايتي ابن عذاري الأولى التي لم يذكر مصدره فيها . والثانية التي نقلها عن ابن صاحب الصلاة في " تاريخ المريدين الثوار " . وبين رواية ابن خلدون . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 35 . والعبر . ص 486 .

طريف ثم الجزيرة الخضراء [52] وحاربوا مدينة شريش ، وانتزعوها من أبي الغمر بن عزون حليف ابن حمدين ، ثم اتجهوا إلى لبلة ، فاستسلمت لهم بزعامة يوسف البطروجي من الثوار المريدين ، ثم دخلت ميرتلة في طاعتهم ، فيمموا وجوههم شطر شلب التي كانت قد سقطت في يد ابن وزير ، فافتتحوها ، وأمكنوا منها ابن قسي الذي ترك واليا عليها ، وقصدوا باجة فاستسلم لهم ابن وزير وأدخلهم المدينة [53] . وهكذا سيطر الجيشان على القواعد الرئيسية ، التي كانت مسرحا لثورة المريدين في غرب الأندلس [54] فعاد براز بن محمد من باجة واستقر بميرتلة .

4 ـ ب ـ الصدام

لم يكتف الموحدون ، باعتبارهم حلفاء ابن قسي ، بإخضاع غرب الأندلس ، بل بدأوا يتطلعون نحو الشرق ، وبقيادتهم المباشرة ، دون إشراك ابن قسي ، وهكذا حشد براز قواته وأمر ابن وزير أن يوافيه بقواته إلى ميرتلة ، ومنها اتجهوا إلى لبلة ، فانضم إليهم يوسف البطروجي ، واستطاعت هذه القوات إخضاع طلياطة وحصن القصر وحاصرت إشبيلية برا وبحرا ، وكانت ما تزال في أيدي المرابطين ، فقد كانت أول موقع استعصى على المريدين فتحه بقيادة ابن المنذر ، الذي انهزم أمام ابن غانية ، واستمر الحصار إلى أن فتحت في شعبان سنة 541 هـ / 1146م [55] .

ويبدو أن ابن قسي بدأ يستشعر أطماع الموحدين ، الذين لم يكتفوا بكونهم حلفاء له جاءوا إلى الأندلس لمساعدته على استرداد سلطته من خصومه ، خاصة ابن وزير ، بينما هم تحالفوا مع هذا الأخير ، وأشركوه في عملياتهم العسكرية ضد قواعد المرابطين ، في حين همشوا ابن قسي حيث جعلوه فقط واليا على بلدته شلب .

ورغم أن ابن خلدون يقول أن ابن قسي عند لقائه بعبد المومن " رغبه في ملك الأندلس وأغراه بالملثمين فبعث معه عساكر الموحدين" [56] غير أن الراجح أن ابن قسي رحل إلى المغرب من أجل الحصول على المساعدة لاسترجاع سلطته هو ، والتمكين لتياره الصوفي وليس للموحدين .

---

52 - ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص 199.

53 - نلاحظ كيف يغير ابن وزير حلفاءه بسرعة ، فقد تخلى عن ابن حمدين وانضم للموحدين .

54 - ابن عذاري ، ص35 ، وابن خلدون ، ص 486 .

55 - ابن عذاري ، قسم الموحدين ، ص 35، وابن خلدون ، العبر ، ص 486 .

56 - العبر ، ص 485 ، 486 .

فرغم اشتراكه معهم في عداوة المرابطين وفقهاء المالكية [57] . فقد كان التصوف على خلاف ايديولوجي مع الموحدين .

فقد كانت ثلاثة تيارات رئيسية تتصارع في المغرب و الأندلس في هذه الفترة : الفقه المالكي والتصوف الباطني والمذهب الموحدي .

ومع أن ابن قسي عاد مرة أخرى إلى المغرب في رمضان سنة 541 هـ . ضمن الوفد الذي جاء يهنئ عبد المومن بفتح إشبيلية [58] . كما يفهم من بعض المصادر أن ابن قسي كان قد دخل في دعوة الموحدين [59] .

لكن يبدو لنا أن ذلك لم يكن يعني أكثر من تحالف ظرفي لا يرتكز على توافق في المنطلق والأهداف . وهكذا فما كاد ابن قسي يعود من المغرب إلى شلب سنة 542 هـ حتى ظهر منه . على حد تعبير ابن الأبار " غير ما فورق عليه إلى أن صرح بالخلاف " [60] . ولعل ما يؤكد أن ابن قسي تحالف مع الموحدين ولم يدخل في دعوتهم . أو على الأقل دخل فيها ظاهرا ولم يؤمن بمبادئها. أن نقضه لتحالفه مع الموحدين تزامن مع ثورة ابن هود الماسي [61] . التي كانت ثورة متصوفة في المغرب ـ كما سنرى ـ فكأن التصوف يتحالف ضد الموحدين في الأندلس والمغرب .

المهم أن ابن قسي نقض حلفه مع الموحدين . في نفس الوقت الذي كان الموحدون يواجهون فيه مشاكل . في كل من المغرب والأندلس . ففي المغرب قامت ثورة ابن هود المتصوف . التي هددت سلطة الموحدين بشكل خطير . بل كادت تقضي على كل جهود الموحدين لاستلام السلطة . وكذلك ثورة مدينة سبتة بقيادة قاضيها القاضي عياض . ما يؤكد أن الصراع كان ثلاثيا : فقه مالكي . تصوف . مذهب موحدي .

فما أن أحس الفقه المالكي . في شخص القاضي عياض . أن الفرصة قد حانت للتخلص من

57 - يقول الأستاذ أحمد التوفيق . في مقدمة تحقيقه لكتاب التشوف . لابن الزيات : " فالنظام الموحدي لم يكن يواجه الفقهاء فحسب . بل واجه الصوفية أيضا . وكتاب التشوف وثيقة في هذا الموضوع " ص 20 . كما أن الخلاف بين المتصوفة والموحدين كان أيضا خلافا معرفيا . فالأولون يعتمدون الكشف والإشراق . والأخيرون . في شخص ابن تومرت . نزعوا منزعا عقليا .

58 - ابن الأبار . الحلة . ص 200 .

59 - حين تحدث ابن الخطيب . عن نقض ابن قسي تحالفه مع الموحدين قال " رجع عن دعوتهم " إعمال الإعلام . ص 251 . وقال ابن الأبار " خلع دعوتهم وانسلخ من طاعتهم " الحلة . ص 207 .

60 - ابن الأبار . الحلة السيراء . ص 200 .

61 - يقول ابن الخطيب : " ثم إنه لما اضطربت الأحوال بالدولة المؤمنية بالماسي مدعي الهداية في دولتهم . وانتقض عليهم كثير من البلاد . رجع عن دعوتهم [...] فتورط بما جناه من القطيعة ". إعمال الإعلام . ص 251 .

الموحدين . حتى انتفض أيضا . وفي الأندلس ثار يوسف البطروجي صاحب لبلة وتحالف مع المرابطين. وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس ومحمد بن الحجام في بطليوس [62] .

ولم يبق متحالفا مع الموحدين من " زعماء " ثورة المريدين سوى ابن وزير " الذي قبض يده مدة ارتداد الثوار في فتنة الموحدين وأمسك نفسه عن مقابحتهم " [63] مما يؤكد أنه لم يكن من تيار التصوف . بل أكثر من ذلك . فقد شارك في محاربة ابن قسي والبطروجي وابن الحجام إلى جانب الموحدين [64] .

ولكي يحسم عبد المومن الموقف لصالح الموحدين في الأندلس . بعث بجيش جديد من المغرب بقيادة يوسف بن سليمان . تعاون مع ابن وزير . وبقية الجيش الموحدي الذي كان موجودا هناك . وعمل على أخذ لبلة من يوسف البطروجي وشنتمرية الغرب من عيسى بن ميمون . والد علي بن عيسى صاحب قادس . وحاولا غزو شلب فتحالف ضدهم ابن قسي وبقية أصحاب البطروجي . فانهزموا أمام الموحدين . لكن يبدو أنهم لم يأخذوا شلب . أما محمد بن علي بن الحجام فقد قدم تسهيلات للجيش الموحدي فوادعوه . وهكذا استرجع الموحدون سيطرتهم على غالبية غرب الأندلس باستثناء ما كان تحت سيطرة ابن قسي في شلب وأحوازها [65] .

ويبدو أن موقف ابن قسي تحرج بتطويق الموحدين . ومن تحالف معهم من زعماء غرب الأندلس له . فأخذ يبحث عن حليف جديد . مضطرا إلى ذلك . فكان الحليف هذه المرة من خارج الدائرة الإسلامية . حيث اتجه نحو ألفونسو هنريكيز . ملك إمارة البرتغال الناشئة . الذي استجاب له وبعث له بعض الهدايا [66] .

واستمرت الحال كذلك إلى فاتح محرم سنة 546 هـ / 1151م [67] . حين وفد الزعماء والثوار من الأندلس . إلى مدينة سلا بالمغرب . وتنازلوا لعبد المومن بن علي عن المواقع التي كانت تحت سلطتهم من قبل . وهكذا بايعه ابن وزير وتنازل عن باجة ويابرة . وابن عزون عن شريش ومحمد بن

---

62 ــ ابن خلدون . العبر . ص 487 .

63 - ابن عذاري . قسم الموحدين . ص 43 .

64 - نفسه .

65 - ابن عذاري . قسم الموحدين . ص 39. 40 . وابن خلدون . العبر . ص 488 .

66 - ابن الأبار . الحلة . ص 200 . وابن الخطيب . إعمال الإعلام . ص 251 . ومحمد عبد الله عنان . عصر المرابطين والموحدين . ص 330 .

67 - يذكر ابن خلدون أن ذلك كان سنة 545 هـ . وتابعه في ذلك الأستاذ عنان . لكننا آثرنا رواية ابن عذاري لأنه أكثر ضبطا من ابن خلدون الذي غالبا ما كان ينقل عنه . العبر . ص 489 .

الحجام صاحب بطليوس ، وعامر بن مهيب صاحب طبيرة والبطروجي [68] صاحب لبلة . وتخلف ابن قسي وأشياخ بلده شلب .

ولعل أهل شلب خافوا من انتقام الموحدين المحيطين بهم من كل جهة . بعد تنازل كل الزعماء الآخرين وبعد تحالف ابن قسي مع قوى غير إسلامية . فدبروا اغتياله . ونصبوا مكانه ابن المنذر . في جمادى الأولى سنة 546 هـ / 1151م [69] . معلنين طاعة الموحدين . وكان الموحدون قد خلصوا ابن المنذر هذا من سجنه عند ابن وزير بباجة . حين دخلوها أول مرة .

ورغم ما فعله ابن المنذر بابن قسي . فلم يكن الموحدون يثقون فيه حيث " خيف منه أن يثور" [70] مرة أخرى . فنقل إلى إشبيلية . ثم عبر المضيق إلى مدينة سلا ومكث هناك إلى أن توفي سنة 558 هـ / 1162م [71] . وهكذا كانت نهاية أبرز قائدين في حركة المريدين وبالتالي نهاية هذه الثورة . فخلى الجو للموحدين في غرب الأندلس .

5 ـ ثورة ابن هود على الموحدين في المغرب :

لاشك أن احتكاك الموحدين بالمتصوفة قد بدأ مبكرا . حتى قبل انتزاعهم مدينة مراكش من أيدي المرابطين . ولاشك أيضا أن الموحدين ناصبوا العداء للمتصوفة باعتبارهم التيار الذي كان ينافسهم . إلى جانب الفقهاء المالكية . لذلك لن نتوقع أن تختلف سياسة الموحدين عن المرابطين اتجاه تيار التصوف .

ويبدو أن الموحدين كانوا يتوجسون خطر المتصوفة في المغرب . حتى قبل أن ينقض ابن قسي تحالفه معهم في الأندلس . وكانوا يخشون التفاف الناس حولهم . ذلك أننا وجدنا الموحدين . وهم ما يزالون في جبل إجليز محاصرين مراكش سنة 540 هـ / 1145م . يستدعون من أغمات أحد

68 ـ ابن عذاري . ص 44 . وابن خلدون . ص 489 . ولعل اللافت للنظر ما يذكره ابن عذاري عن البطروجي ـ الذي كان من أكثر الزعماء إخلاصا لتيار التصوف - حين كان هؤلاء الثوار يعلنون انخلاعهم وبيعتهم لعبد المومن . فلما جاء دور البطروجي وأراد أن يتكلم " فلم يقدر على النطق ولا شرح بيان الحق . فنفد عليه توقفه وتبين تحرجه . لكن أمير المؤمنين (= عبد المومن) رفع رأسه للناس وقال مشيرا إليه : هذا أبو الحجاج صاحبنا بالشرف . فلم يشكره على ذلك ولا قبل يده [...] وأمر البطروجي فانصرف مهجورا إلى مراكش " مما يدل على عمق الخلاف بين المتصوفة والموحدين . انظر ص 44 . 45 .

69 - الحلة . ص 200 . و إعمال الإعلام . ص 251 .

70 - الحلة . ص 207 .

71 - نفسه .

المتصوفة وهو عبد الجليل بن ويحلان ، ليكون تحت مراقبتهم بإجليز . ولما اعتذر بكونه مريضا قرروا نقله بالقوة ، قائلين له " ولو حملناك على نعش " [72] . مما يدلنا على عدم ثقة الموحدين في الصوفية ، حتى وبو كانوا في حالة صحية لا تسمح لهم بتهديدهم . وصلتنا كذلك أخبار عن تضييق الموحدين على بعض المتصوفة في كل من فضالة وقصر كتامة وسجلماسة وغيرها [73] . كما وصلتنا أخبار ، بشكل عارض ، عن ثورة قامت ضد الموحدين ، تزعمها متصوف يدعى عتاب سنة 559 هـ / 1163م [74] .

5 ـ أ ـ ابن الزيات وابن هود :

هذه الروايات التي ذكرنا ، نقلها إلينا ابن الزيات صاحب كتاب التشوف ، أهم كتب تراجم المتصوفة ، في مغرب القرن السادس الهجري وبداية السابع . لكن اللافت للنظر أن صاحب التشوف، وإن ترجم لأشخاص من سلا وماسة ، وهما مكانان ارتبط بهما اسم ابن هود الماسي : الأول بلده ، والثاني منه انطلقت ثورته [75] ، غير أنه لم يذكر شيئا عن ابن هود ، الذي افترضنا أنه قاد ثورة للمتصوفة في المغرب ، فلماذا إذن هذا الصمت عن ابن هود ؟ ألأن ابن هود لم يكن متصوفا؟ أم هناك أسباب أخرى أخرست صاحب التشوف ؟

معلوم أن ابن الزيات عاصر الدولة الموحدية ، فقد توفي سنة 627 / 1229م أو 628 هـ / 1230م [76]. وفي ظلها صنف كتابه ، ومع أنه أشار إلى ثورة عتاب عرضا كما سبق ، لكن يبدو أنه لم يستطع أن يفعل ذلك مع ابن هود ، خاصة أن قوة ثورة هذا الأخير ـ كما سنرى ـ كادت تعصف بكل جهود الموحدين ، خلال خمس وعشرين سنة ، من أجل استلام

72 - ويضيف ابن الزيات أن ذلك حدث وقت الظهر ، فطلب عبد الجليل أن يؤخر إلى وقت العصر ، ولما حان وقت العصر " خرجت إلى الناس جنازته رحمه الله فصلوا عليه " . ابن الزيات ، التشوف ، ص 149. واضح أن ابن الزيات يقصد أن هذه الوفاة في هذا الوقت بالذات هي كرامة من كرامات الشيخ ، لكن ألا يمكن أن تكون هذه الوفاة في مثل هذه الظروف مدعاة لفتح باب احتمال أن تكون قد تمت تصفية عبد الجليل من طرف الموحدين ؟

73 - نفسه ، ص311 ، 366 ، 416 ، 417 ، 418 .

74 - ابن الزيات ، التشوف ، ص 394 ، 402 ، ورغم أن ابن الزيات هو المصدر الوحيد ـ حسب علمنا ـ الذي وردت فيه إشارة إلى ثورة عتاب ، إلا أنها جاءت بشكل عارض ، وهي على كل حال لا تهمنا لأنها تقع خارج فترة الانتقال .

75 - عن سلا وماسة ، انظر نفس المصدر ، ص 165 ، 175 ، 184 ، 205 ، 211 ، 212 ، 287 ، 407 .

76 - مقدمة محقق نفس المصدر ، ص 24 .

السلطة في المغرب .

وابن الزيات لم يسكت عن ابن هود وحده . بل فعل ذلك مع شخصيات أخرى . لذلك حق للأستاذ أحمد التوفيق أن يقول : أنه يجوز لنا أن نتساءل عما إذا كان ابن الزيات . قد ترجم لجميع الزهاد والصالحين في المنطقة التي اهتم بها في المدة التي تناولها . وخص بالذكر القاضي عياض . الذي لم يترجم له صاحب التشوف رغم "منحاه الزهدي" [77] . فواضح أن الجواب هو أن ابن الزيات لم يترجم للقاضي عياض لأن الاخير دخل في صراع سياسي مع الموحدين . حين تزعم ثورة مدينة سبتة [78] ضد الموحدين واتصل بالمرابطين في الأندلس . وتزامنت ثورته هذه مع ثورة ابن هود في ماسة . إذن فالخوف من العقاب الذي قد يصدر عن السلطة السياسية هي التي أخرست صاحب التشوف . فلم يترجم للقاضي عياض وابن هود وآخرين . ممن رأى أن تراجمهم قد تعرضه لنقمة الموحدين [79] .

5 ـ ب ـ ابن هود في المصادر والمراجع

أما المصادر الأخرى التي ذكرت ابن هود [80] . فبخصوص منحاه الايديولوجي . لم تذكر أنه كان من المتصوفة . فالبيذق . أقرب مصدر للحدث . قال عنه أنه ثائر قام على الموحدين في جزولة دون أية تفاصيل مهمة [81] . بينما قال عنه كل من ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية وابن خلدون . أنه ادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي . وأضاف صاحب الحلل أن مهديته كانت " اقتداء بالمهدي

---

77 - نفسه . ص 14 .

78 - عن هذه الثورة . راجع . عبد الهادي التازي . " القاضي عياض بين العلم والسياسة " . مجلة المناهل . ع 19. 1980 .

79 - عن عامل الإكراه السياسي . في سكوت ابن الزيات عن بعض الأحداث . انظر كيف يتصرف في النصوص حين يحس أنها ستضعه في موقف حرج إزاء السلطة . مثل ما فعل حين حذف كلمتي " معشر المرابطين " من الرسالة التي كان الطرطوشي قد بعثها إلى يوسف بن تاشفين . قارن ما اقتطفه ابن الزيات من هذه الرسالة في ص 32 . مع النص الأصلي لها . الذي نشرته الأستاذة عصمت دندش في . دراسة حول رسائل ابن العربي . ص 187. وانظر أيضا كيف يتحاشا ما يمكن أن يخلق له مشاكل حين سمى الموحدين " هؤلاء القوم " ص 138 .

80 - لم يخصه أي من هذه المصادر بأكثر من بعض صفحة وكأن هذا " التعتيم الإخباري " كان مقصودا .

81 - أخبار المهدي ابن تومرت . ص 67 . ورغم أن البيذق سماه عمر بن الخياط ولقبه ببويكندي . إلا أن سياق الأحداث يدل على أنه نفس الشخص الذي تسميه المصادر الأخرى ابن هود .

بن عبد الله بن تومرت " [82] .

أما الباحثون المحدثون مستعربون وعربا . فمنهم من تناول التصوف في العصر الموحدي . كما فعل هنري تيراس في فقرة بعنوان " الموحدون والتصوف " حيث يرى أن التصوف كحركة شعبية كبيرة . لم تتأخر في استمالة ما اسماه ب " القوات العميقة " التي لم تستطع الحركة الإصلاحية الموحدية استقطابها [83] . لكنه لم يربط ثورة ابن هود بتيار التصوف . بل تساءل فقط في مكان آخر . عما إذا كانت ثورته هي رد فعل مالكي على الإصلاح الديني الموحدي [84] . أما لوتورنو فحين تعرض لثورة ابن هود . قرنها بثورة سبتة . ولاحظ أن الثائرين كانت تحدوهم مشاعر دينية . لذلك ثاروا على الموحدين . الذين عادوا للمذهب المالكي [85] . لكن إذا كان هذا ينطبق على ثورة الفقيه القاضي عياض المالكي الذي واصل ثورته يحيى بن أبي بكر الصحراوي المرابطي [86] . فإن ذلك لا يصدق ـ في رأينا ـ على ثورة ابن هود . لأنه كان يصدر عن غير المالكية .

أما الأستاذ أحمد عزاوي . فهو يكاد يتابع صاحب الحلل الموشية في القول بأن مهدية ابن هود متأثرة بسابقه ابن تومرت . غير أنه لاحظ أنه لا يستبعد أن يكون ابن هود " من العلماء رغم أن المصادر المكتوبة في العهد الموحدي أو الناقلة عنها تصفه بالشعوذة وبأنه من العامة " [87] وقد سلف أن أوضحنا أن " العلماء" خلا المدة قيد الدراسة قد توزعوا إلى تيارات ثلاثة : فقهاء مالكيون . وآخرون انظموا إلى الدعوة الموحدية . وأخيرون كانوا رواد التصوف . ففي أي خانة من " العلماء" يمكن أن نصنف ابن هود ؟

هكذا وفي حدود اطلاعنا . لم يشر أحد من الباحثين إلى علاقة ثورة ابن هود بالتصوف . فهل هناك ما يدعو إلى إصرارنا على ربطها به ؟

---

82 - البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 30. الحلل . ص 146. العبر . ص 480 . لكن مهدية ابن تومرت تختلف عن مهدية ابن هود . فالأول كانت مهديته نشازا في مذهبه العقلي النقدي . ولم يكن يغرف من إشراقية . فهو ادعى الهداية لهدف سياسي عملي (انظر عباس الجراري : الموحدون ثورة سياسية ومذهبية. مجلة المناهل ع 1 ص 103) بينما الثاني - كما سنرى - كان ينهل من التصوف الباطني الذي أشرب التشيع .

83 - H . TERRASSE , Histoire du Maroc des Origines à l'établissement du Protectorat Français - CASABLANCA 1949 , pp . 363 , 364 , 365 .

84 - Ibid , p . 291 .

85 - لوتورنو . حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و 13. ترجمة أمين الطيبي . ليبيا . تونس 1982 ص 63 . 64 .

86 - محمد عبد الله عنان . عصر المرابطين والموحدين . ص 273 .

87 - مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية . ص 39 .

5 ـ ج ـ ابن هود والتصوف

أجل وصلتنا وثيقة تؤكد ذلك . هي الرسالة السابقة . التي كتبها أبو جعفر بن عطية . عن أبي حفص عمر الهنتاتي قائد حملة الموحدين على ابن هود . بعد نهاية المعركة . فقد جاء فيها ما يلي " ... وكان الذي قادهم (= أتباع ابن هود الماسي) إلى ذلك وأوردهم تلك المهالك . وصول من كان بتلك السواحل . ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس . فيما سلف من الأعوام واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناء الليالي والأيام . لبسوا الناموس أثوابا . وتدرعوا الرياء جلبابا . فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا "[88] . وواضح جدا أن من ينقطع عن الناس للقيام والصيام هم المتصوفة . فهل يكفي هذا النص الصريح لإثبات صلة ابن هود بالتصوف . أم يمكن أن ندعم زعمنا بقرائن أخرى ؟

نعم إن الملاحظة السابقة التي أبداها الأستاذ أحمد عزاوي . حول تحامل المصادر الموحدية أو الناقلة عنها . على ابن هود ووصفها إياه بالشعوذة ودناءة الانتماء الاجتماعي . قد تحمل نكهة التحامل . بفعل عداء الموحدين للمتصوفة . لكن هذا التحامل لم يكن ينبع من لا شيء . بل ذلك ما كان فعلا .

فالحديث عن " الشعوذة " عند خصوم المتصوفة يقابله الحديث عن الكرامة والعلم اللدني عند المتصوفة . خصوصا الباطنية منهم . ذلك أنهم يعتمدون نظاما معرفيا خاصا بهم . يعتمد الإشراق والذوق والكشف وما وراء الحس . فهم من خلال نظامهم المعرفي هذا . منسجمون مع ذواتهم . ولا يرون في تلك الأشياء التي يؤاخذهم عليها خصومهم أنها شعوذة بينما تبدو لهؤلاء الخصوم كذلك . لأنهم ينظرون إليها من الخارج أي من خلال نظام معرفي آخر . لهذا وجدنا ابن هود نفسه " يدعي بأنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه . والنوائب لا تنوبه "[89] .

كل هذا يحيلنا مرة أخرى على ما قلناه حول الجانب الايديولوجي في ثورة المتصوفة . وتوظيفهم لعناصر من الفكر الشيعي الباطني الذي منه قضيتا العلم اللدني والمهدية . أو ليست بشرى ابن هود " علما لدنيا " ؟ أو ليس ابن هود قد ادعى الهداية ؟ وإن كان واضحا الآن أنها تختلف عن مهدية ابن تومرت . أو ليست هذه القرائن أيضا كافية لربط ابن هود بالتصوف ؟

إن مما يقوي زعمنا بأن ابن هود كان ينتمي إلى تيار التصوف . هو الربط الذي قام به ابن

88 - انظر الرسالة أيضا عند المقري . نفح الطيب . دار صادر . بيروت 1968 . ج 5 . ص 187، 188 . والناصري . الاستقصا . طبعة الدارالبيضاء 1954. ج 2 . ص111 . 112 . 113 .

89 ـ راجع ما كتبناه سابقا عن " العلم اللدني "

خلدون . بين الحديث عن المهدي المنتظر . عند متأخري الصوفية من أشربوا أقوال الشيعة . وبين اعتقاد كان سائدا لدى عامة الناس بأن هذا المهدي سيظهر في رباط ماسة [90] . أو لم تكن انطلاقة ثورة ابن هود من رباط ماسة حتى أنه عرف بالماسي رغم أن أصله من سلا ؟

وبعد فلعلنا نكون قد وفقنا في ربط ثورة ابن هود لأول مرة ـ حسب علمنا ـ بتيار التصوف. فيبقى أن نتعرف على هذه الثورة .

5 ـ د ـ أحداث الثورة :

بعض المصادر التي تناولت ثورة ابن هود . تسكت عن تاريخ انطلاقها . وكذا عن تاريخ القضاء عليها . بينما التي تناولت هذا التاريخ تختلف حول تحديده . فابن أبي زرع يذكر أن ابن هود ثار سنة 542 هـ / 1147م . بعد أن بايع عبد المومن بن علي وحضر معه فتح مراكش [91] . بينما ابن عذاري يقول أنه ثار في شهر شوال من سنة 541 هـ / 1146م . وهو نفس الشهر الذي فتحت فيه مراكش من طرف الموحدين [92] .

قبل أن نرجح أحد التاريخين . نذكر أن النص السابق المقتطف من الرسالة . التي كتبت بعد انهزام ابن هود ومقتله . يشير إلى أن ابن هود كان قد استقر في رباط ماسة منذ أعوام قبل أن يقوم بثورته . مما يضعف قول ابن أبي زرع بوجوده في مراكش عند فتحها ومبايعته لعبد المومن . والنص أيضا يضيف أن ابن هود " استمال النفوس بخزعبلاته واستهوى القلوب بمهولاته [...] فأتته المخاطبات من بعد وكتب ونسلت إليه الرسل من كل حدب " [93] بمعنى أنه كان يقوم بالدعوة إلى حركته الصوفية أعواما قبل إعلان ثورته . فكانت بينه وبين أتباعه مخاطبات ومراسلات . حيث يذهب الأستاذ أحمد عزاوي إلى أنه لا يستبعد أن تكون الدعوة لحركته قد بدأت خلال غياب عبد المومن في حملته الطويلة نحو المغرب الأوسط [94] ابتداء من سنة 535 هـ/ 1140م . وبهذا تكون

90 - المقدمة . ص 327 . 328 . وانظر أيضا عن علاقة رباط ماسة بالمهدي المنتظر . الحسن الوزان الفاسي . وصف افريقيا . ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر . الرباط 1980. ج 1. ص 90 .

91 - ابن أبي زرع . الأنيس المطرب . ص 190.

92 - البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 30 .

93 - انظر متن الرسالة . عند ابن الأبار . إعتاب الكتاب . ص 228 . وأحمد عزاوي . مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية . القسم الثاني . ص 12 .

94 - مجموعة رسائل موحدية جديدة . القسم الأول . ص 40 .

المدة كافية لتستجيب لدعوته قبائل كثيرة بعيدة عن مركز دعوته رباط ماسة .

وما دام ابن هود كان يحضر نفسه للقيام . فلا معنى أن يبايع عبد المومن ويحضر معه فتح مراكش . مما يزيد في إضعاف رواية ابن أبي زرع . والراجح أن ابن هود كان يحشد الأتباع لدعوته . في نفس الوقت الذي كان يرقب فيه الصراع بين الدعوة الموحدية وبين المرابطين والفقهاء المالكية . فلم ينسرع بإعلان دخول التيار الثالث . التصوف إلى واجهة الصراع في المغرب . كما حدث في الأندلس مع ثورة المريدين . بل لعله آثر التريث حتى ينتهي الصراع بين التيارين الآخرين . ففقهاء المالكية والمرابطين ضد الموحدين . بعد ذلك يلقي بثقله في الساحة العسكرية . ولعل الموحدين أيضا كانت تصلهم أصداء هذا العمل السري الذي يقوم به المتصوفة . فحاولوا أن يحدوا من خطره . فقد رأينا من قبل موقفهم من المتصوف عبد الجليل بن ويحلان . وهم لم يفتحوا بعد مراكش .

ولما أخذ الموحدون مراكش من المرابطين . في شوال 541 هـ / 1146م . رأى ابن هود أن يدخل الصراع . فهو حينذاك لن يواجه إلا خصما واحدا منهكا من الصراع مع الثالث . وهو أيضا إذا تأخر في الدخول في المواجهة فسيعطي الفرصة للدعوة الموحدية لكي يشتد ساعدها . لذلك بادر . في نفس الشهر . إلى إعلان مهديته وثار على الموحدين . وهو ما يرجح رواية ابن عذاري .

على أي فإن دعاية الماسي أثمرت فانضمت إلى دعوته . ثم إلى ثوته . قبائل ومدن متعددة . فمنها جزولة عصب دعوته . وحاحة ورجراجة وهزرجة وهسكورة الوطاء ودكالة وبني ورياغل [95] وأهل نفيس وهيلانة وبرغواطة . كما استجابت لدعوته كل من سلا وسجلماسة ودرعة. [96] . وعن امتداد هذه الثورة وخطورتها على الموحدين يقول ابن عذاري : " فأقبل الناس المغترون به من كل مكان وقبيل إليه . فاجتمعوا بشقاوتهم عليه . اجتماعا طار له الذكر في الآفاق . وتحدثت به الرفاق . وكثروا عنده واستندوا إليه . فقامت بدعوته جموع لا تحصى [...] حتى لم يبق منها إلا مراكش وفاس . وارتدت سائر البلاد كلها " [97] . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن دعوته كانت منظمة تنظيما جيدا . نستنتج ذلك – رغم قلة ما وصلنا عنها من أخبار – من امتدادها إلى مناطق نائية كبني ورياغل وسجلماسة .

وقد أشار البيذق إشارة ذات دلالة . حين قال أن من جملة من " ارتد " على الموحدين عند قيام

95 - البيذق . أخبار المهدي بن تومرت . ص 67 .

96 - ابن عذاري . البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 32 . وابن خلدون . العبر . ص 480 .

97 - ابن عذاري . المرجع السابق . ص31 .

ابن هود . أهل مدينة ألمرية [98] في الأندلس . لكن معلوم أنه حتى سنة 541 هـ لم يكن الموحدون قد استولوا على ألمرية [99] حتى ترتد عن دعوتهم .

ومع ذلك ألا يمكن أن تكون هذه إشارة إلى تجاوب تيار التصوف مع ثورة ابن هود . خاصة ونحن نعلم أن ألمرية كانت أهم مركز للتصوف في الأندلس خلال المدة قيد الدراسة ؟ يؤكد هذا التجاوب ما سبق أن قلناه حول نقض ابن قسي زعيم المتصوفة المريدين في الأندلس . حلفه مع الموحدين . عند قيام ثورة ابن هود . ويبدو لنا أن البيذق عوض أن يذكر شلب أخطأ فذكر ألمرية .

رغم أن ابن عذاري ومن نقل عنه كابن خلدون يذكرون أن أغلب القبائل . وكثير من المدن بالمغرب . قد ثارت عند قيام ابن هود . بحيث لم يبق تحت سلطة الموحدين غير مراكش وفاس . ورغم أن البيذق يتحدث عن " ردة " أهل سبتة وطنجة عن طاعة الموحدين . ضمن حديثه عن ثورة ابن هود [100] . إلا أنه لا يمكن التسليم بأن كل هذه المناطق قد قامت في صف ابن هود . خاصة أهل سبتة وطنجة .

إن قيام هاتين المدينتين كان تحت راية التيار الثالث : تيار الفقهاء المالكية والمرابطين الذي خسر الصراع مع الموحدين في المغرب عند سقوط مراكش . ولما ثار ابن هود وانتشرت الفوضى في البلاد . حاول أن يسترد سالف سلطته . حيث تمثل ذلك في شخص الفقيه القاضي عياض . الذي تزعم ثورة سبتة حين قتل أهلها الوالي الموحدي على المدينة يوسف بن مخلوف التينملي . فعبر القاضي البحر إلى الأندلس . ليطلب من يحيى بن علي بن غانية المسوفي المرابطي أن يبعث معه واليا مرابطيا . لضبط المدينة .

فكان هذا الوالي هو يحيى بن أبي بكر الصحراوي . الذي مد نفوذه إلى طنجة . وأخذ مدينة سلا من والد ابن هود بعد قتله . وتحالف فيما بعد مع بعض القبائل . التي كانت قد قامت مع ابن هود . خاصة برغواطة ودكالة . وذلك بعد مقتل هذا الأخير [101] .

أما عن سبب التفاف كل هذه القبائل حول الثائر ابن هود . فإن الأستاذ عز الدين موسى .

---

98 أخبار المهدي . ص 6 . ويبدو أن هنري تيراس أخذ هذه الإشارة عن البيذق دون أن يذكر أنه مصدره . انظر Histoire du Maroc , p. 291

99 ـ يوسف أشباخ . الأندلس في عصر المرابطين والموحدين . ص 234 .

100 - أخبار المهدي . ص 67 .

101 - البيذق . المرجع السابق . ص 67، 68 .

يرى أن ذلك كان رد فعل على تخميس الموحدين لأموالها وهي مسلمة [102] . ولا شك أن في هذا الرأي نصيبا من الصحة . فعن قبيلة جزولة التي كانت عصب دعوة ابن هود الماسي . يذكر البيذق . أن عبد المومن بن علي بعد أن تفاوض معهم على أن يدخلوا في طاعته مكر بهم ودبر لهم مجزرة حيث " قتلهم جميعا إلا الصبيان الصغار . وسقنا غنائمهم [...] وكان ذلك في عام تسعة وثلاثين وخمسمائة " [103] . ولعل هذه الخديعة التي أوقعها الموحدون بجزولة وأخذ أموالهم كغنائم رغم أنهم مسلمون [104] . كانت من بين الأسباب التي جعلت جزولة تتبنى ثورة ابن هود الماسي ضد الموحدين . بعد عامين من هذه الحادثة . أي سنة 541 هـ / 1146م .

لكن رغم ما يمكن أن يقال عن هذا الجانب . فلا يمكن إغفال الجانب الايديولوجي في تبني هذه القبائل لثورة ابن هود . فكما سبق . تعرفنا على أن رباط ماسة . وهو يقع في أراضي جزولة . كان يُنتظر فيه ظهور المهدي .

هذا فيما يخص جزولة عصب دعوة وثورة ابن هود . أما عن قبائل أخرى كبرغواطة ودكالة . فلا يمكن أيضا إغفال الموروث العقائدي والايديولوجي لها خاصة " ديانة برغواطة باعتبارها تقول بالمهدوية والرجعة " [105] . ولعل ابن هود نفسه . كان يستشعر هذا التقارب الايديولوجي . لذلك عمل على نشر دعوته في هذه المناطق بالذات .

لقد كانت هذه الثورة من القوة . بحيث كادت تعصف بكل جهود الموحدين العسكرية . على مدى خمس وعشرين سنة . من أجل السيطرة على المغرب بل كان لها تأثير أيضا على

---

102 - النشاط الاقتصادي . ص 135 . لم ينظر الأستاذ عز الدين موسى إلى ثورة الماسي . والقبائل التي انضمت إليه على أنها ثورة واحدة . بل قسمها إلى ثورتين . فجعل إحداهما ثورة ابن هود والثانية ثورة دكالة وبرغواطة . لكن الراجح أن دكالة وبرغواطة قامتا تحت راية ابن هود . ولما قضي عليه . استمرت ثورتها متمسكة بدعوة الماسي . فعن برغواطة يقول ابن عذاري : " لما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة الماسي وأراح بمراكش أياما [...] خرج غازيا إلى برغواطة . فنهض إليهم فقاتلوه مدافعين لأهل عبد المومن متمسكين بطاعة الماسي " البيان . قسم الموحدين . ص 32 . ثم بعد ذلك تحالفت برغواطة ودكالة مع الصحراوي ضد الموحدين . يقول ابن خلدون : " ووصل (= يحيى بن أبي بكر الصحراوي) يده بالقبائل الناكثة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة " العبر . ص 484 . وانظر أيضا البيذق . المرجع السابق . ص 67 . 68 .

103 - البيذق . أخبار المهدي . ص 57 . 58 .

104 - وعن موقف الموحدين من أموال أهل أغمات . يقول أحد الجغرافيين " ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا [...] وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب . فقد أتى على أكثر أموالهم المصامدة . وغيرت ما كان بأيديهم من نعم الله .. " الشريف الإدريسي . وصف افريقيا الشمالية والصحراوية . تصحيح ونشر هنري بيريس . الجزائر 1957 . ص 42 . 43 .

105 - سالم يفوت . ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس . ص 360 .

وضعهم في الأندلس . لذلك كان لا بد أن يولوها كل الاهتمام . فالراجح أن الموحدين بعد أن فرغوا من أمر فتح مراكش . وهدأوا الأوضاع بها . بدأوا يعملون من أجل سحق ثورة ابن هود .

وهنا مرة أخرى تختلف المصادر حول عدد الحملات التي وجهت ضده . وأيضا حول تاريخ القضاء على ثورته . فابن أبي زرع يقول أن عبد المومن وجه جيشا واحدا إلى الماسي . بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي . الذي تمكن من القضاء على الثائر [106] . أما البيذق وهو أقرب المصادر إلى الأحداث . فيذكر أن ابن يگيت . من أهل العشرة . خرج على رأس أهل سوس . إلى ابن هود الذي هزمهم . ثم بعد ذلك خرج جيش موحدي ثان . بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي . فتمكن من القضاء على ابن هود [107] . وابن عذاري وابن خلدون وصاحب الحلل الموشية . كل منهم يذكر حملتان اثنتان . لكن الأخير لا يسمي قائد الحملة الأولى . بينما الأول والثاني كلاهما يجعل الأولى بقيادة أبي زكريا يحيى المعروف بأنگمار [108] . وفي الأخير نجد صاحب الروض المعطار يذكر أن " عبد المومن صير إليه (= ابن هود) الجيوش مرة بعد مرة . فهزمهم . وكثر شغبه وعظمت جموعه . فتوجه إليه بالعساكر الشيخ أبو حفص صاحب الإمام المهدي . فواقعهم . وكانت بينهم حروب صعبة . فانهزم هذا القائم وقتل أصحابه " [109] .

هكذا فقد تراوح عدد الحملات التي وجهها الموحدون ضد ابن هود وأصحابه . حسب هذه المصادر . بين واحدة . واثنتين . ومجموعة من الحملات . وإن كانت اتفقت كلها على أن الحملة الأخيرة كانت بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي . فقد اختلفت المصادر التي جعلت عدد الحملات اثنتين . حول قائد الأولى . فهو مرة ابن يگيت وأخرى أنگمار [110] . مما يفتح باب الاحتمال . بأن عدد الحملات السابقة على حملة الشيخ أبي حفص . كان أكثر من واحدة . وذلك ما يذهب إليه صاحب الروض المعطار . ويرجحه الأستاذ أحمد عزاوي أيضا [111] .

على أي بعد فشل الحملات الأولى . جهز عبد المومن حملة كبيرة . ضمت قبائل الموحدين

---

106 - ابن أبي زرع . الأنيس المطرب بروض القرطاس . ص 190 .

107 - أخبار المهدي . ص 67 .

108 - البيان المغرب . قسم الموحدين . ص 31 . العبر . ص 480 . الحلل الموشية . ص 146 .

109 - محمد عبد المنعم الحميري . الروض المعطار . ص 522 .

110 - حاول الأستاذ عنان حل هذه المشكلة . فجعل ابن يگيت ويحيى أنگمار قائدين لحملة واحدة .

111 - مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية . القسم الأول . ص 41 .

وأشياخهم . وأفراد من المرتزقة الروم المسيحيين [112] وعدد من الرماة . وبلغ عدد أفراد هذه الحملة ستة آلاف فارس وستة آلاف من المشاة . جعل على رأسهم الشيخ أبا حفص عمر الهنتاتي . وخرج عبد المومن مشيعا لهذه الحملة إلى وادي تانسيفت . وقد كان سلاح الفرسان في قوات الماسي قليلا من حيث العدد . بالمقارنة مع مثيله عند الموحدين حيث لم يتجاوز السبعمائة فارس . لكن بالمقابل يبدو أنه كان له تفوق في عدد المشاة . حتى أن الروايات - ويبدو أنها تبالغ في ذلك - تذكر أنه كان يقدر بستين ألف راجل [113] .

سار الجيش الموحدي في اتجاه رباط ماسة . مركز انطلاق ثورة ابن هود . والظاهر أنه التقى بقوات الماسي على إحدى ضفتي نهر ماسة بالقرب من مصبه [114] . ونشبت هناك معركة عنيفة . حمي وطيسها بين الطرفين . وأظهر فيها أتباع الماسي بسالة واستماتة في القتال . شهد بها خصومهم الموحدون أنفسهم حيث " كانت هناك كرات شهيرة وحملات كثيرة . وظهر لأعداء الله تجلد لم ير قط لأمثالهم . ولا تخيل من أفعالهم " [115] .

ولما تعذر على الموحدين إحراز النصر بسرعة في هذه المعركة المفتوحة . لجأوا إلى المناورة للتأثير على معنويات أصحاب الماسي . فعملوا على الوصول إليه شخصيا وقتله أثناء المعركة . فلما رأى أتباعه مصير قائدهم . انهزموا وتفرقوا فارين . فتتبع الموحدون فلولهم بالقتل . وهكذا تم النصر للموحدين وحملت جثة الماسي إلى مراكش . بعد نهاية المعركة . حيث صلبت هناك [116] لتنتهي بذلك ثاني ثورة للمتصوفة خلال فترة الانتقال .

وقبل إسدال الستار على ثورة ابن هود هذه . لا بد من الخوض في تحديد زمان القضاء عليها

---

112 - هم بقايا الكتيبة المسيحية في الجيش المرابطي .

113 - ابن عذاري . البيان . القسم الموحدي . ص 31 . ابن خلدون . العبر . ص 480 .

114 - تتحدث رسالة أبي حفص إلى عبد المومن . عن أن فلول أتباع الماسي عند انهزامهم . حاولوا النجاة بدخولهم في النهر " في أول مده إلى حين ابتداء الوادي في جزره ونقصانه " ولعل الكاتب يقصد بالمد والجزر هنا مصب النهر في البحر . انظر أحمد عزاوي . مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية. القسم الثاني . ص 13.

115 - نص الرسالة في نفس المصدر . ص 12 .

116 - يذكر ابن أبي زرع أن الشيخ أبا حفص . قتل الماسي " بيده " وتابعه في ذلك الأستاذ عنان . لكن نص الرسالة التي كتبت على لسان الشيخ الهنتاتي . لا يشير إلى ذلك . ولا يحدد شخص القاتل بعينه . بل يذكر أن الموحدين بصيغة الجمع " قصدوا بعون الله لإطفاء ناره . وكف عنانه . فصرع بحمد الله لحينه وبادرت إليه بوادر منونه " . كما جاء في الرسالة أيضا على لسان الشيخ الهنتاتي " كان للناس هناك موقف أخذت الحرب فيه حقوقها . ونهجت به طريقها . وعرفت به رجالها وفريقها وكنا نحن بخاصتنا في الساقة " نفس المصدر والصفحة . فكيف يقتل الماسي بيده . وقد كان هو وخاصته في ساقة الجيش ؟

وبالتالي تحديد تاريخ هذه المعركة الفاصلة . فابن أبي زرع يذكر أن حملة الشيخ الهنتاتي خرجت من مراكش في اتجاه ماسة . في أول يوم من شهر ذي القعدة عام 542 هـ / 1147م . وهزيمة الماسي كانت في شهر ذي الحجة من نفس العام [117] . وابن الأبار يدقق في التاريخ الأخير . حيث يقول أن الهزيمة كانت يوم الخميس 16 ذي الحجة 542 هـ / 1147م [118] . بينما ابن عذاري يقول أن حملة الشيخ الهنتاتي وصلت إلى ماسة في ذي الحجة عام 541 هـ / 1146م . والمعركة بين الفريقين وقعت يوم الخميس 15 من نفس الشهر عام 541 هـ / 1146م [119].

وقد سبق أن ضعفنا رواية ابن أبي زرع . بخصوص تاريخ انطلاق ثورة ابن هود . ورجحنا رواية ابن عذاري للأسباب التي ذكرناها . ونجد أنفسنا الآن مضطرين لقلب الآية . والأخذ برواية ابن أبي زرع لأنها أكثر اتساقا مع منطق الأحداث وذلك لأسباب :

أولا : سبق أن قلنا . مع ابن عذاري . أن ثورة ابن هود انطلقت في شهر شوال 541 هـ . وتعرفنا على الصدى الكبير الذي خلفته هذه الثورة في المغرب . رغم ندرة ما وصلنا عنها من أخبار فقد ذكرت المصادر . ومنها ابن عذاري . أنها كادت تقضي على نفوذ الموحدين . حيث لم يبق تحت سلطنهم غير مراكش وفاس . ولا يعقل أن يكون كل هذا قد تم في ظرف لا يتجاوز الشهرين [120] .

ثانيا : سبق أن رجحنا . أنه كانت هناك حملات سابقة على حملة الشيخ الهنتاتي . ضد ابن هود . اعتمادا على اختلاف البيذق من جهة وابن عذاري وابن خلدون من جهة أخرى . حول اسم قائد إحدى الحملات . وكذلك اعتمادا على تصريح صاحب الروض بوجود أكثر من حملة . وابن عذاري يجعل وصول حملة الشيخ الهنتاتي إلى ماسة في شهر ذي الحجة عام 541 هـ/ 1146م .

وإذا كان من المقبول أن تقطع حملة واحدة المسافة الفاصلة بين مراكش وماسة مشيا على الاقدام – ذلك أن الحملة الأخيرة ضمت إضافة إلى الفرسان ستة آلاف راجل – خلال الفترة المتراوحة بين 18 شوال و16 ذي الحجة . فإنه من غير المقبول أن تكون قد قطعت تلك المسافة حملات متعددة أو حتى حملتين . في الفترة نفسها .

وبما أن حملة واحدة على الأقل . سابقة على حملة الشيخ الهنتاتي ثابتة تاريخيا . فلا يمكن

---

117 – الأنيس المطرب بروض القرطاس . ص 190 .

118 – إعتاب الكتاب . ص 226 .

119 – البيان المغرب . القسم الموحدي . ص 31 . ويتابعه ابن خلدون في جعل المعركة في ذي الحجة 541 هـ . دون تحديد اليوم .

120 – ذكر ابن عذاري روايتين عن فتح مراكش . فمرة جعله تم يوم 17 شوال وأخرى يوم 18 منه سنة 541 هـ (ص 27 . 28) ولا بد أن ابن هود قد أعلن ثورته بعد هذا التاريخ . فيكون الفاصل الزمني . إذن . حسب ابن عذاري بين انطلاق الثورة والقضاء عليها أقل من شهرين .

أن تكون الأخيرة قد وقعت في ذي حجة عام 541 هـ / 1146م بل الأرجح أن الحملة أو الحملات الأولى قد وقعت بعد شوال 541 هـ / 1146م تاريخ فتح مراكش . وقبل ذي القعدة 542 / 1147م . وهي فسحة زمنية تسمح بانضمام كل المناطق التي انضمت إلى ثورة ابن هود . وأيضا تتناسب مع حجم وعرامة هذه الثورة .

ذلك ما يجعلنا نستبعد رواية ابن عذاري لتبقى رواية ابن أبي زرع حول تاريخ القضاء على ثورة ابن هود وتأكيد رواية ابن الأبار لها . هي التي تتمشى مع سير الأحداث . فتكون هذه الثورة إذن قد انطلقت في شوال 541 هـ وتم القضاء عليها في ذي الحجة 542 هـ. أي أنها استمرت لمدة أربعة عشر شهرا وهو زمن يتناسب مع أهميتها وخطورتها .

خاتمة

لعل أهم ما يمكن تسجيله من استنتاجات هي أن المرابطين تبنوا نظرية السلطة السياسية العليا السنية ، والتي تقول بالشورى والاختيار ، تطبيقا لتوجيهات أهل الحل والعقد من الفقهاء الذين أقاموا أميرية المرابطين في الحقيقة ومن ثم أوعزوا لأمراء المسلمين المرابطين باحترام الخلافة الإسلامية في بغداد رغم زنهم أقاموا دولتهم بسيوفهم . أما على مستوى الممارسة داخل الأميرية المرابطية ، فإنه يمكن القول أنها عرفت طورين : طور الدعوة ، حيث مورست الشورى والإختيار ،وإن كانت تحت رقابة المنظر / المرشد ، فانتقلت السلطة في بداية الحركة لس من أمير إلى آخر بل من قبيلة إلى أخرى ، إلا أنه حين تحولت الدعوة إلى دولة في عهد يوسف بن ناشفين فإن تداول السلطة قد أصبح بطريقة وراثية في أعقابه شأنها في ذلك شأن باقي الدول الإسلامية ، منذ نهاية العصر الراشدي .

ولعل المفارقة التي يمكن استنتاجها هي أن الحركة الموحدية التي تبنى مؤسسها ومنظرها ابن تومرت ، عناصر من نظرية السلطة السياسية العليا الشيعية ، التي تقول بتوريث السلطة في أعقاب الأئمة بالوصية ، لم يوص لخلف من بعده ، بل انتقلت السلطة أيضا داخل حركة الموحدين من قبيلة إلى أخرى من هرغة إلى كومية في طور الدعوة ، لكن ليس برغبة من منظر الدعوة الموحدية وإنما تحت ضغط عامل الصراع داخل الحركة بين قبائل مصمودة التي آثرت أن تنتقل السلطة إلى شخص زناتي ليست له عصبية بينهم على أن تنفرد بها إحدى القبائل المصمودية . لكن ما أن تحولت الحركة الموحدية أيضا إلى دولة ، بعد القضاء على المرابطين ، حتى أصبح تداول السلطة بين الموحدين بطريقة وراثية في أعقاب الخليفة عبد المومن ، مما يدل على أن التغيير الذي حدث في المغرب والأندلس ، إنما كان تغييرا على مستوى النظر فقط ، اقتضته ظروف الصراع المرابطي الموحدي ، أما على المستوى العملي فلم يكن هناك خلاف في الممارسة .

أما بخصوص تيار التصوف السياسي المتمثل في المريدين فإنه مارس السلطة لمدة قصيرة لا تتجاوز ثماني سنوات متقطعة لان ابن قسي كان يخلع تارة من طرف حلفائه الأعيان وتارة من طرف الموحدين ، وإن كان قوله بالإمامة والمهدية الصوفيتين يوضح بأنه كان يروم إقامة سلطة سياسية عليا أقرب إلى التي أقامها الموحدون من التي تبناها المرابطون ، زما ابن هود فالمعلومات عن شكل السلطة التي كان ينوي رقامتها أكثر شحا وإن تحرك في نفس دائرة ابن قسي .

ما يستحق التسجيل أيضا هو أن كل تلكك الفكرانيات السياسية التي تصارعت ما بين

عصري المرابطين والموحدين كان يتم إنتاجها داخليا استجابة لظروف ذلك الواقع ولم تكن تأتي من خارج دار الإسلام . ثم إن عدم تبلور تقاليد ومؤسسات في تاريخنا تسمح لكل الفكرانيات السياسية بالتعبير عن نفسها بكل حرية قد جعل الغرب الإسلامي يعرف ظاهرة محاولات الوصول إلى السلطة بالقوة . ولعل اللوم في هذا لا يعود إلى السلطة السياسية التنفيذية فقط بل إلى بعض الفقهاء أو رجال القانون أو المشرعين لتلك السلطة . لدرجة أن موقف ابن تومرت من هذه الفئة كان أشد عنفا من موقفه من أمراء المسلمين المرابطين . وقد نتج عن ذلك إهدار لطاقات هائلة في الصراعات المسلحة . فيكفي أن نذكر أن المرابطين والموحدين دامت الحرب بينهم مدة خمس وعشرين سنة . استفاد منها الآخر . فيكفي أن نذكر أن الموحدين رغم شساعة المجال الجغرافي الذي امتدت إليه سلطتهم في شمال إفريقيا . إلا أنهم لم يستطيعوا الحفاظ إلا على نصف ما كان تحت سلطة المرابطين في الأندلس .

قائمة بمصادر ومراجع البحث

المصادر :

1 - البكري . المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر دي سلان . الجزائر 1957 .

2 - ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق وتعليق حسين مؤنس. ط1 . 1963 . ج 2 .

3 - ابن الأبار . المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصدفي . مدريد 1985 .

4 - ابن الأبار . إعتاب الكتاب . تحقيق وتعليق وتقديم صالح الأشتر . دمشق 1961 .

5 - ابن أبي زرع . الأنيس المطرب بروض القرطاس . دار المنصور . الرباط 1973 .

6 - ابن تومرت . أعز ما يطلب . نشر لوسياني . الجزائر 1903 .

7 - ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة . طبعة القاهرة 1973 . ج 1 .

8 - ابن الخطيب . كتاب إعمال الإعلام أوتاريخ اسبانيا الإسلامية . تحقيق وتعليق ليفي بروفنصال . ط 2 . بيروت 1956 .

9 - ابن خلدون . المقدمة . منشورات الأعلمي . بيروت . دون تاريخ .

10- ابن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . الجلد السادس . القسم الأول . بيروت 1983 .

11- ابن خلكان . وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ج 7 .

12- ابن الزيات . التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي . تحقيق أحمد التوفيق . منشورات كلية آداب الرباط . ط 1 . 1984 .

13- ابن صاحب الصلاة . تاريخ المن بالامامة . تحقيق عبد الهادي التازي . ط 1. بيروت 1964 .

14- ابن القاضي المكناسي . جذوة الاقتباس . دار المنصور . الرباط 1974 . القسم الثاني .

15- ابن القطان . نظم الجمان . تحقيق محمود علي مكي . المطبعة المهدية . تطوان . دون تاريخ .

16- ابن عبد المنعم الحميري . الروض المعطار . تحقيق إحسان عباس . ط 2 . 1980 .

17- ابن عذاري . البيان المغرب . تحقيق ومراجعة ج . س كولان وليفي بروفنصال . ط 2 . بيروت 1980 . ج 2 .

18- ابن عذاري . البيان المغرب . تحقيق ومراجعة إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت 1980 . ط 2 .

ج 4 .

19- ابن عذاري . البيان المغرب : قسم الموحدين . تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة . ط 1 . بيروت / الدار البيضاء 1985 .

20- أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق . المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب . تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الرباط 1971 .

21- أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق . أخبار المهدي بن تومرت . دار المنصور. الرباط 1971.

22- أبو بكر المرادي الحضرمي . كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الإمارة . تحقيق الدكتور سامي النشار . دار الثقافة . الدار البيضاء 1981 . ط 1 .

23- أبو حامد الغزالي . كتاب الحلال والحرام من إحياء علوم الدين . تقديم رضوان السيد . ط 1 . بيروت 1983 .

24- الحسن الوزان الفاسي . وصف افريقيا . ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر . الرباط 1980 . ج 1 .

25- اسماعيل بن الأحمر وآخرون . بيوتات فاس الكبرى . دار المنصور . الرباط 1972 .

26- الشريف الإدريسي . وصف افريقيا الشمالية والصحراوية . تصحيح ونشر هنري بيريس . الجزائر 1957 .

27 - عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب . ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان . محمد العربي العلمي . الدار البيضاء 1978 . ط 7 .

28 - عبد الوهاب السبكي . طبقات الشافعية الكبرى . ط2 . بيروت . بدون تاريخ . ج 4 .

29 - علي بن محمد الماوردي . الأحكام السلطانية والولايات الدينية . بيروت . 1978 .

30 - ليفي بروفنصال . كتاب أخبار المهدي بن تومرت . باريس 1928 .

31 - إ . ليفي بروفنصال . مجموع رسائل موحدية . الرباط 1941 .

32 - مجهول . الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية .. تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء 1979 . ط1 .

33 - المقري . نفح الطيب . دار صادر . بيروت 1968 . ج 5 .

34 - الناصري . الاستقصا . الدار البيضاء . 1954 . ج 2 .

35 - النويري . تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الادب . تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد . دار النشر المغربية . الدار البيضاء 1984 .

المراجع :

36 - ابراهيم حركات . النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين . الدار البيضاء . بدون تاريخ .

37 - أحمد حسن محمود . قيام دولة المرابطين . مكتبة النهضة المهدية . القاهرة 1957 .

38 - أحمد عزاوي . مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية : دراسة وتحقيق . رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ . نسخة مرقونة .

39 - ألفرد بل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي . ترجمة عبد الرحمان بدوي . ط 2 . بيروت 1981 .

40 - حسن حسني عبد الوهاب . الإمام المازري . تونس 1955 .

41 - عبد الله علي علام . الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي . دار المعارف . القاهرة 1971 .

42 - عبد الله علي علام . الدعوة الموحدية . ط 1 . القاهرة 1964 .

43 - عبد المجيد النجار . المهدي بن تومرت : حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب . دار الغرب الإسلامي . بيروت 1983 . ط 1 .

44 - سالم يفوت . ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس . ط1 . الدارالبيضاء 1986 .

45 - شارل أندري جوليان . تاريخ افريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة . تونس 1983 . ط 2 .

46 - عز الدين أحمد موسى . النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري. دار الشروق . ط 1 . بيروت / القاهرة 1983 .

47 - كامل مصطفى الشيبي . الصلة بين التصوف والتشيع : العناصر الشيعية في التصوف. دار الأندلس . بيروت 1982 . ط 3 . ج 1 .

48 - لوتورنو روجي . حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و 13 . ترجمة أمين الطيبي . ليبيا تونس 1982 .

49 - محمد عابد الجابري . فكر ابن خلدون : العصبية والدولة . الدار البيضاء 1982 . ط 2 .

50 - محمد الجابري . تكوين العقل العربي . دار الطليعة . ط 1 . بيروت 1984 .

51 - محمد الجابري . نحن والتراث . دار التنوير بيروت / المركز الثقافي العربي الدار البيضاء . 1985 . ط 4 .

52 - محمد الجابري . بنية العقل العربي . ط 1 . الدار البيضاء 1986 .

53 - محمد عبد الله عنان . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس . ط1 . القاهرة 1964 . القسم الأول . الكتاب الثالث .

54 - محمد عبد الهادي شعيرة . المرابطون تاريخهم السياسي . ط1 . القاهرة 1969 .

55 - محمود اسماعيل . مقالات في الفكر والتاريخ . دار الرشاد الحديثة . ط1 . الدار البيضاء 1979 .

56 - هوبكنز . النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى . تعريب أمين توفيق الطيبي . ليبيا تونس 1980 .

57 - يوسف أشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان . القاهرة 1940 . ج 1 .

المقالات :

58 - إحسان عباس . نوازل ابن رشد . مجلة الأبحاث. الجامعة الامريكية . بيروت 1969 . ج 3 / 4

59 - حسين مؤنس . سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين في الأندلس . مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية . مدريد 1954 . م 2 . ع 1 و 2 .

60 - حسين مؤنس . نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . 1955 . م 1 . ع 3 .

61 - عباس الجراري . الموحدون ثورة سياسية ومذهبية . مجلة المناهل . ع 1 .

62 - عبد القادر زمامة . اكتشاف نص جديد من البيان المغرب يتعلق بتاريخ الموحدين . مجلة كلية آداب فاس . ع 4 / 5 . 1980 / 1981 .

63 - عبد الهادي التازي . القاضي عياض بين العلم والسياسة . مجلة المناهل . ع 19 . 1980.

64 - عبد الواحد العسري . مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت . مجلة كلية آداب تطوان . العدد 1 . 1986 .

65 - عصمت دندش . دراسة حول رسائل ابن العربي . مجلة المناهل . ع 9 .

66 - محمد اليعقوبي البدراوي . إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي . مجلة المناهل . الرباط . ع 9 .

67 - محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. مجلة معهد الدراسات

الاسلامية مدريد 1959 / 1960 . المجلدان 7 و 8 .

مراجع بغير العربية :

68 - Abdelaziz . EL ALAOUI,le maghreb et le commerce transsaharien (milieux du 11eme -- milieux du 14eme S) . these du doctorat de 3eme cycle dactilographié Universite de Bordeaux 3 . 1983 .

69 - A . HUICI MIRANDA , Historia Politica del Emperio Almohade . Tétouan . 1956 T1 .

70 - A. LAROUI,l 'histoire du Maghreb : un essai de synthèse. Maspero - Paris 1976 .

71 - H .TERRASSE, Histoire du Maroc des origines à l 'etablissement du protectorat français - Casablanca 1949 . v1 .

72 - A . BEL , Contribution A l 'étude des Dirhems de l 'époque Almohade . Hespéris 1933 . Tome 16 .

73 - Roger . LETOURNEAU , du mouvement Almohade la dynastie Mu'minide la revolté des frères d 'Ibn TAOUMARTE de 1153 à 1156 . Mélange d' histoire et d'archéologie de l'occident musulman . T 1 Alger 1959 .

74 - E . LEVI PROVENCAL , un receuil de lettres officielles Almohades : Etude diplomatique et historique . Hespéris , Tome . 25 . 1941 .

الباب الأول
من أميرية للمسلمين إلى خلافة للمؤمنين

الفصل الأول
السلطة السياسية المرابطية

تقديم الدكتور امحمد بنعبود

الفصل الثاني
الدعوة الموحدية والسلطة السياسية العليا

الفصل الثالث

الخلافة الموحدية والسلطة السياسية العليا

الباب الثاني

من ولاية صوفية إلى إمامة سياسية

الفصل الرابع

إحراق " الإحياء " وعلاقته بتنامي تيار التصوف

الفصل الخامس

الجانبان الإجتماعي والإيديولوجي لتيار التصوف

وموقف الفقهاء والمرابطين منه:

الفصل السادس

ثورة الصوفية في الأندلس و المغرب

ما بين عصري المرابطين والموحدين

منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

سلسلة دراسات

1 - مصطفى بنسباع،

السلطة بين التسنن و"التشيع" والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين

2 - د. امحمد بن عبود،

جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري (الطبعة الثانية)

3 - محمد الشريف،

الغرب الإسلامي : نصوص دفينة ودراسات (الطبعة الثانية)

4 - عبد الواحد عبد السلام شعيب،

القاضي عياض مؤرخا

عنوان الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

8، شارع امحمد بن عبود،

الطابق الأرضي، رقم 21،

تطوان، المغرب

هاتف / فاكس: 72 72 96 (09)

مطابع الشويخ "ديسبريس" ـ الهاتف: 09 50 96 (09) تطوان